مكتبة ياسمين

جاكي كاي

ترومبيت

رواية

ترجمة: عماد الأحمد
مراجعة: معز زيود

مكتبة
يـاسمين

جاكي كاي

ترومبيت

يخيّمُ على عالم الجاز حُزنٌ غامر بوفاة جوس مودي، عازف الجاز الأسطوري، ولا يفعل موته سوى إفشاء سرٍّ كبيرٍ عمل على كتمانه طوال حياته. بين ثنائيّتي الحياةِ والموت، والسّرّ والعلن، تنبش الرّوائيّة الإسكتلنديّة جاكي كاي في روايتها «ترومبيت» الحائزة على جائزة غوارديان سنة 1998، في كل ما يُشكّل حفريّاتِ القلب البشريّ وعقله.

تطرح الرّواية أسئلة الأزمنة المعاصرة الحارقة، عبر محور الهويّة: كيف يصنع البشر معنى مّا يحدّد هويّاتهم، في ظروفٍ تمزّقهم وتكسر قناعاتهم وتوقّعاتهم إزاء ما اعتقدوا أنّه أبسط الحقائق وأكثرها يقينيّة؟ وما الذي يُشكّل هذه الهويّة؟هل هي عائلتك؟ مكان ولادتك؟ طبيعة عملك؟ الأشخاص الذين تحبّهم؟ أم هو جنسك؟

في خضمّ كلّ هذه الأسئلة والتمزّقات، التي تجعل ابنًا مُتبنّى يركض وراء سرِّ أبيه الفاضح، وأرملة المتوفّى تهربُ إلى جزيرة إسكتلندية نائية، وكلّ من عرفه يحاول إعادة تركيب حياةٍ له، كمن يرتّبُ قطع البوزل، تقدّم لنا جاكي كاي حكاية عن الخداع والإخلاص في حياة بُنيت على كذبة، ومع ذلك حافظت على حبّ نادر غير مشروط.

الناشر

ISBN 978-9938-24-112-9
9789938241129

يسعدنا انضمامكم إلى قناة

مكتبة ياسمين

معكم نكبر ونستمر بكل جديد

ترومبيت

telegram @
yasmeenbook

عنوان النسخة الإنجليزيّة الأصليّة المعتمدة في هذه الترجمة

Trumpet

by Jackie Kay

جاي كاي

مكتبة ياسمين
telegram @yasmeenbook

ترومبيت

ترجمة: عماد الأحمد
مراجعة: معن زيّود

مسكيلياني

الكاتبة: **جاكي كاي**

عنوان الكتاب: **ترومبيت**

ترجمة: **عماد الأحمد**

مراجعة: **معز زيّود**

تدقيق: **بلال المسعودي**

خط الغلاف: **الفنّان سمير قويعة**

تنضيد داخلي: **سعيد البقاعي**

تصميم الغلاف: **الشاعر محمّد النبهان**

ر.د.م.ك: **978-9938-24-112-9**

الطبعة الأولى: 2020

Copyright © 1998, Jackie Kay

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

طريقةُ اعتمارِكَ القُبّعة

طريقةُ ارتشافِكَ الشاي

وكلّ تلك التفاصيل التي تسكن الذاكرة

لا، لا! محالٌ أن ينتزعوا كلّ ذلك منّي!

جورج غيرشوين

البيت والوطن

telegram @
yasmeenbook

سحبتُ الستارة قليلًا ورأيت رؤوسهم تتمايل. لا أعلم على وجه التحديد منذ متى يقبعون هناك. اشتدّ الظلام. مازلتُ أتوقّع أن يختفوا، وأن يكونوا جميعًا مجرّد تهيّؤات. سأدرك أنّني قد تخيّلتهم بكلّ تأكيد كما تخيّلت حياتي بأكملها، ولكنّهم مازالوا يحدّقون فيّ بوقاحة متعمّدة. يرتدون ملابس حقيقيّة. أنظر إلى الصور في الصحف، وفي كلّ مرّة أبدو مختلفة عن الذكرى التي أحتفظ بها عن نفسي. أبدو غير حقيقيّة. لديّ شعور غريب اليوم. لطالما كان لديّ يقين تامّ بأنّني أعرف نفسي حقًّا. كان ذلك في غاية السهولة ولم يكن ينطوي على أيّ نوع من الألم.

عليَّ العودة إلى غرفتنا، ثمّ عليَّ أن أبعد نفسي عن كلّ شيء. يا لحظّ الحيوانات! يمكنها دفْنُ رؤوسها في الرّمال، وإخفاؤُها تحت جلودها وكأنّها لا تمتلك رؤوسًا أصلًا. أشعر بألمٍ في المكان نفسه الذي آلم جوس منذ أشهر. ألم مريع في القسم الأيسر. هل من الممكن أن نموت للسبب ذاته؟

شاهدت مرّة فيلمًا بعنوان «دوبل أنديمنتي» يروي فيه شخص مّا قصّته من خلال تسجيلها على شريط كاسيت، وهو يُحتَضَر ويلتقط أنفاسه. ينتابني الإحساس بأنّي مثله، لم أقتل أيّ شخص، ولم أقم بأيّ تصرّف خاطئ. وإذا كان عليَّ أن أسجّل شريطًا مّا، فلا بدّ من أن أسجّله لكولمان.

في منتصف الليل خرجت من بيتي ببطء وبقلب مضطرب. لم يكن هناك أحد. قدتُ سيّارتي مع تباشير الفجر. شعرتُ بالراحة عندما عبرت الحدود الأسكتلندية. أنزلتُ زجاج السيّارة لأعُبَّ هواء مختلفًا. إنّني مرهقة للغاية.

في كلّ صباح طوال الأيّام العشرة الماضية، كان هناك شخص مّا خارج بيتي ينتظر مسلّحًا بالكاميرات والأسئلة. شاهدتُ أسوأ الصور الممكنة لي في الصحف، كانت تبدو جنونيّة وصادمة. فبالتأكيد لن تبدو رائعًا إذا كان أحد مّا يتعقّبك ليلتقط لك الصور بمجرّد ظهورك. كيف ستبدو في هذه الحالة؟

ما تزال أصوات الكاميرات تدور في رأسي حتّى اليوم مثل أصوات المسدّسات. لم أتمكّن من التخلّص من هذه الضجّة بأيّ طريقة كانت. أسمعها، ضجّة أصوات الكاميرات الأشبه بالرصاصات السريعة مع صوت الموسيقى وصوت الكاسيت وصفّارة غلاّية الماء. تبقى الأصابع على الزناد، لا يرفعونها حتى نهاية الفيلم. وقبل أن يأخذوا لي الكثير والكثير من الصور، يتوقّفون لعدّة لحظات رهيبة يشحنون جُعَبَهُم ليبدؤوا من جديد. ما الذي يريدون فعله بكلّ هذه الصور؟ أشعر

في قرارة نفسي كأنّني أتلاشى مع كلّ صورة وكلّ ومضة ضوء وكلّ صوت لالتقاط الصورة. روحي تتلاشى تمامًا. قابلت مرّة رجلًا رفض أن آخذ له صورة مع جوس. قال إنّها ستسرق روحه. أتذكّر أنّني كنت أفكر في مدى سخف هذا الكلام، لا يمكن لشيء أن يسرق روحك. من الغريب أن تعيش مع قناعات كهذه وكأنّ الحياة تنتظرك لتثبت لك إلى أيّ مدى أنت مخطئ. تلاشت روح جوس وسُرقت روحي بالفعل. هكذا بكلّ بساطة!

بعد جنازة جوس بيومين، خرجتُ من منزلي لأجد عشرةً منهم في انتظاري. شعرتُ وكأنّني في متاهة. لم يكن ردّ فعلي سريعًا بما يكفي. لم أتمكّن من التملّص والاختباء. التقطوا لي صورًا وأنا في طريقي إلى سيارتي، وأنا أركبها، وأنا أجلس أمام عجلة القيادة. بدوتُ كممثلة في فيلم قديم بالأبيض والأسود، ممثّلة قتلتْ زوجها وذهبتْ تحثُّ الخطى في طريقها إلى الهرب.

بدأت مسّاحات الزجاج تتحرّك، والمطر يتساقط على البلور الأمامي بينما كان وجهي مرتاعًا أمام عجلة القيادة. الْتمَعَ الضوء الساطع وملأني بالنور. وكدت لا أتمكّن من رؤية طريقي لأنطلق بالسيارة. في لحظة جلوسي في مواجهة ذلك الضوء الساطع، لم أعد أنا ذاتي بكلّ تأكيد. لقد ضيّعتُ ماهيّتي، كأرنب تسمّر في مكانه مواجهًا الأنوار الأماميّة الساطعة. يتجمّد الأرنب في مكانه، ولن ترى أمامك على الطريق، في هذه الحالة، محض أرنب بفرو، بل سترى الخوفَ متجسدًا بذاته، خوفًا يلتمع أمامك لثانية حتى تزعق فرامل سيّارتك على الإسفلت.

حدّقتُ مرارًا وتكرارًا في هذه المرأة التي التُقطت لها الصور في الضوء لأجد نفسي فيها. لم أتمكّن يومًا من معاينة الخوف بوضوح هكذا. لا يحظى كثير من النّاس بفرصة رؤية أنفسهم مرعوبين تمامًا. كانوا سيتابعون التصوير صورة تلو الأخرى حتى لو وافتني المنية. سيلتقطون صورتي ميتة. وفي اليوم الموالي كنت أغلي تقريبًا، وأنا أتصفّح الصحف مجددًا، مع المزيد من الأكاذيب والمزيد من المانشيتات البرّاقة.

كان عليَّ أن أبتعد. وهكذا قدتُ سيّارتي إلى هنا. جئت إلى هذا المكان ملايين المرّات، ولكنني لم ألاحظ ولو مرّة واحدة ذلك المنعطف على اليسار عند «كيبر». وضّبتُ حقيبتي على عجل ورميتها في السيّارة وانطلقت. ليس لديّ أدنى فكرة عن الوقت الذي استغرقتُه للوصول إلى هنا. يبدو الزمن اليوم على الجانب الآخر منّي، بعيدًا باتجاه البحر، وكأنّني في بلد آخر. لم أعد أعيش في الزمن بعد اليوم، ولم يعد الزمن يتحكّم فيّ.

أشعر بالنّار تتأجّج في داخلي. تُغذّي النّار نفسَهَا لتبقى متأجّجة على الدوام. أمّا الضجّة الوحيدة المسموعة فتنبعث من داخلي. تندفع وتنبثق كزعقة جافة. تبدو كمسّ من الجنون. تبدو تلك الضجّة كرفيق غريب متقلّب مرفرف يتصاعد منه اللهب الباهت والمتذبذب، وكأنّه قابل للتلاشي في أيّ لحظة، ولكنّه تحوّل بعد فترة إلى صديق وفيّ مخلص. جلستُ هنا لفترة طويلة منبهرةً بالألوان الزاهية، أنظر مباشرة إلى الروح المتوحّشة للنّار محاولةً إيجاد نفسي. يمكنني رؤية جوس ينحني ليشعل النّار، مستخدمًا جريدة ملفوفة ومطويّة بدقّة،

ثمّ يقوم بإشعالها. يقول جوس: «إشعال النّار فنٌّ بحدّ ذاته»، يشعل النّار، ينطلق الدخان فيشعر بالراحة.

لا أحد يعلم أنّني هنا سوى كولمان. تركت له رسالة على المجيب الآلي. لم أقل الكثير على ما أعتقد سوى أنّني ذاهبة إلى «تور». يمكنه إيجادي إذا ما أراد، مع أنّني أشكّ في أنّه سيقوم بذلك أصلًا. لا أعلم مطلقًا إن كان سيكلّمني مجدّدًا. ولكنه مستعدّ على الدوام لتلقّي رسالة من بروس الجزّار. ولا يمكنني بالطبع تعليق أملٍ كبير على ذلك.

يمكنني رؤية الأمواج تضرب الصخور في الأسفل من خلال الضوء الباهت عبر النافذة الصغيرة لغرفة الجلوس. تتبعُ عيناي ارتداد الأمواج إلى حيث يبدو البحر فجأة عميقًا للغاية. يبدو الآن كأنّ جوس قد مات منذ زمن طويل، وكأنّ كلّ يوم أشبه بأسبوع كامل. أبقى معظم الوقت مستيقظةً، أحدّقُ في الظلام أو في ضوء النهار، لا فرق البتّة.

كانت يدي ترتعش عندما أشعل النار. لقد صرت مضطربة إلى هذه الدرجة. لا يمكنني حتى أن أوقد النار في كوخ صغير دون أن أرتعش. ربّما تكون هذه البداية وحسب. هكذا تفعل الحيوانات، أليس كذلك؟ عندما يتقدّم أحدها تتبعهُ الأخرى لاحقًا لتقوم بالشيء نفسه تمامًا. لم أعد أدرك الفرق بين الحقيقة والخيال، وهل الألم في القسم الأيسر من جسدي حقيقي أم متخيّل؟ ولكنّ أسوأ ما يتعلّق بالألم أنّه يهجم على الجسد دون أيّ تمييز. مازال الألم مستمرًّا. مازال الألم لا يطاق كالجحيم.

لن يتمكّنوا من إيجادي هنا، فـ«تور» تقع في مكان منعزل. لم نذكر وجود هذا المكان لأيّ شخص في وسائل الإعلام خلال السنين الماضية. أبقيناه مكانًا خاصًّا بنا. كولمان هو الوحيد الذي يعلم بوجود هذا المكان، ولن يتكلّم بطبيعة الحال إلى أيّ منهم. أخبرني بأنّه يشعر بحرج شديد في الخروج إلى العلن. لم أتخيّل يومًا أنّ هناك أناسًا قادرين على فعل شيء كهذا أو على إثارة هذا القدر من البلبلة والجلَبة. أعلم الآن لماذا يطلقون على المراسلين اسم كلاب الصيد. أشعرُ بأنّني مُلاحقة. أشعرُ بأنّني طريدة مثيرة للشفقة. يا للفريسة المسكينة!

جميع ملابس العطلة الخاصّة بجوس هنا في هذا المكان. تظهر على سطح البحر نماذج طائرات كولمان، وصنّارات الصيد، والزجاجات الخضراء العتيقة، ومجموعة كولمان من التحف، والعملات، وإسطوانات جوس، وصندوق سيجاره الفاخر. كلّ شيء مهمّ بالنسبة إلينا وكلّ شيء أحببناه هنا. كان أوّل ما فعلناه عندما تبنّينا كولمان هو أنّنا أتينا به إلى هنا. لم ننتظر وقتًا طويلًا. اخترنا له هذا الاسم هنا أيضًا. كدنا، أنا وجوس، نغفل أنّ علينا إطلاق اسم مّا على كولمان. أراد جوس أن يسمّيه مايلز فأردتُ أن أسمّيه كامبل. أراد أن يسمّيه لويس وأردتُ أن أسمّيه ألاستير. أراد جوس اسمًا من عالم الجاز أو البلوز. فقلتُ له ممازحة: ما رأيك باسم جيلي رول أو هولينع وولف، بيرد ماجزي، فاتس، ليدبيلي. كنت أتلوّى من الضحك: بي وي. صفعني جوس على وجهي صفعة خفيفة بحزم وهو يقول: «هذا يكفي. لطالما ضحك الأشخاص البيض على أسماء السود». تحسّستُ خدي غير مصدّقة. ألقيت نظرة عليه حتّى رأيت الخجل يعتلي وجهه. وتوقّفنا عن اقتراح

المزيد من الأسماء، ثم ذهبنا إلى السرير. لطالما كان الجنس أفضل إذا ما سبقه جدل أو مشكلة مّا. اتفقنا في ما بعد على كولمان، الاسم الذي يمنحه تلك النكهة الإيرلنديّة لا يشبه كولمان هوكينز. وهكذا حصلنا على اسم إيرلندي واسم من عالم الجاز في اسم واحد. يعني اسم كولمان في اللاتينيّة «الحمامة»، أخبرت جوس بذلك متباهيةً. فقال لي: «أهذا صحيح حقًّا؟ حسنًا أتمنّى من الربّ أن يمنحنا السلام».

لا بدّ أن أخرج اليوم. إنّه يوم سيّئ، فالسماء مكفهرة وملبّدة بالغيوم. يمكن أن يصير الجوّ أسوأ وقد تمطر أيضًا، ولكن عليّ أن أخرج. ارتديتُ معطفي المطري القديم وتنشّقت الهواء المالح في الخارج. أقفلتُ الباب احتياطًا. مشيت خطوتين على الطريق وأدركتُ أنّني لن أتمكّن من القيام بذلك. هنالك الكثير من النّاس هنا سيتقدّمون لتحيتي والاستفسار عن حالي. فقد مضت أربعة أشهر أو أكثر منذ آخر مرّة كنّا فيها هنا. لا يمكنني مواجهتهم، ليس اليوم على الأقلّ، ربّما لاحقًا. عندما يأتي الظلام سأخرج. فتحتُ الباب مرّة أخرى. خلعتُ معطفي وجلستُ قبالة النّار. لا تزال كما هي مشتعلة. وضعت المزيد من الحطب، فطقطقت ألسنة اللهب المحمرّة الطويلة مثيرة عاصفة محبّبة.

لا يأبه كثير من النّاس هنا لما يحصل في عالم الجاز، ولم يسمعوا يومًا بجوس مودي عازف الترومبيت البريطاني الأسطوري. ربّما قرأ بعضهم الصحف، ولكنّ الشيء المؤكّد بالفعل هو أنّ الناس هنا يقرؤون الصحف المحليّة فقط. لهذا السبب بالذات أحببنا المجيء إلى هنا، حيث يتمتّع الإنسان بحياة خاصّة مختفيًا عن الأعين دون أيّ

ضجّة. لم نسمع كلمة من أيّ شخص حتّى جاء اليوم الذي أخبر فيه جوس الصيّاد أنغوس عن هويّته. قفز أنغوس في أحد الأيّام من قاربه القديم الذي يعبق برائحة السمك قائلًا لي: ما الذي سمعته؟ لم تخبريني أنّ زوجك يعزف على الترومبيت. لماذا أخفيت عني هذا السرّ؟ ألا يمكننا أن نحظى بحفلة صغيرة؟ وقبل أن يمرّ أسبوع على كلامه أريته الترومبيت: الجوهرة العظيمة في صندوق مجوهراتنا الكبير. لطالما تفاجأتُ بجوس يمسّد المخمل الداخلي لذلك الصندوق بنفس الرقّة المتناهية التي يمسّد بها على فرو القطط.

أتيت بجوس في البداية إلى «تور» في منتصف فصل الشتاء عام 1956. انزلقت إطارات سيّارتنا في الجليد المتجمّد على إسفلت الطريق المؤدّي إلى هنا. وعندما وصلنا أخيرًا إلى «تور»، كان الثلج يغطّيها تمامًا، وكان جوس على وشك أن يعود أدراجه. بدا الكوخ وكأنّه يمتلك ذاكرته الخاصّة، ذاكرة تحتفظ بالماضي البعيد أكثر من القريب. لطالما تعلّق بروائح الأشخاص الذين عاشوا هنا منذ سنوات طويلة. كان البساط تالفًا تمامًا، وعلى الجدران لوحات زيتيّة قديمة لفنّانين محليّين بعناوين اعتياديّة: «شباك الصيد»، «رذاذ البحر»، «الصباح الباكر»، «كيبر». شعرتُ بالاضطراب من عنوان واحد فقط، «الهيكل العظمي». ألوان مائيّة لسمكة متروكة على الشاطئ، أتذكّرها مذ كنت طفلة. لطالما حدّقتُ في شكل العظام. كان بإمكاني رؤية مدى سهولة أن تختنق حتّى الموت. تتدلّى أنسجة العنكبوت الكبيرة العالقة في كلّ مكان من زاوية إلى أخرى مثل شباك الصيد. وعلى الطاولة كوبان متعفّنان من القهوة. كان دنكان آخر من عاش هنا. انتابني

الإحساس ذاته بالإثارة التي طالما شعرتُ بها عندما كنت طفلة تأتي إلى هنا في العطلات لتستنشق رائحة الماضي. كان الماضي يعيش في تلك الغرف الصغيرة المخنوقة، بينما كنّا نعيش حياتنا بعيدًا عنها. بدا الماضي هنا في حالة انتظار دائم. كم كان هذا رائعًا! تلك الروائح العفنة العتيقة للصيف الماضي تتخلّل الوسائد القديمة. تنام على الأسرّة التي تصدر صريرًا حادًّا، رائحة البطانيّات الصدئة القديمة، رائحة الجدران الرطبة. صارت للكوخ رائحة مختلفة مجدّدًا بمجرد وصولنا بعد عطلتنا التي امتدّت أسبوعين، وكأنّه عاد إلى الحاضر مرّة أخرى.

هذا هو الكوخ، والطريقة الوحيدة التي ستجعلني أحبُّ هذا المكان هي أن نتمكّن فورًا من «تعميده» من جديد، وهذا ما قمنا به بالفعل. فعندما وصلت، تسلّقت الجدار وأزلت بعض أنسجة العنكبوت.

كنت في يومٍ مّا طفلة شجاعة. آتي إلى «تور» كلّ صيف، أتسلّق الصخور وأصعد المنحدرات والتلال، أحفر حفرًا لإخوتي حتّى يأتي المدّ. أمشّط الشاطئ بحثًا عن الأصداف الغريبة. حدث ذلك منذ وقت طويل للغاية، كأنّ فتاةً غيري هي التي عاشت تلك المرحلة من حياتي، لا أنا. ابتلع البحر تلك الفتاة التي كُنتها. كانت فتاة في غاية الاختلاف عمّا أنا عليه اليوم. وإذا عدنا بالزمن إلى الوراء، لا يمكنني أن أتخيّل ما الذي ستقوله تلك الفتاة عن حياتي اليوم، هل ستجدها كما توقّعتها أم لا؟! لطالما أرادت أن تتزوّج، أتذكّر ذلك حقًّا؛ الزواج والأطفال. لن تُفاجأ بكلّ هذا... تزوجتُ رجلًا أصبح مشهورًا، وماتَ قبلي. مات

مؤخّرًا. واليوم ما الذي أنا عليه حقًّا؟ هل يمكنني أن أتذكّر؟ أرملة جوس مودي، هذا ما أنا عليه الآن. أرملة جوس مودي. لم تتخيّل أنّها ستغدو أرملة، أليس كذلك؟ بالطبع لم تكن لتتخيّل ذلك. هل هناك طفلة صغيرة يمكن أن تتخيّل أنها ستصير أرملة؟

خرجتُ الليلة بعد الغروب مع بداية الظلام. ارتديت معطفي الأخضر الواقي من الرياح ووضعت قبعةً على رأسي. اعتاد جوس تمشيط شعري كلّ ليلة، وهو أحد الأشياء الأنثوية التي كان يقوم بها، وكنت أحبّ ذلك. يجلس خلفي ويضغط على جسدي، يُمشّط شعري الداكن الكثيف ويشدُّه بقوّة نحو الأسفل.

مشيتُ صوب البحر. لطالما كان هذا الطريق حميمًا بالنسبة إليه، ولا تزال ذكراه راسخة في قدميّ. لست مضطرّة حتّى إلى النظر أمامي. مشيت فيه مرارًا مع جوس، فكنّا ننزل التلّ المنحدر من «تور» حول زاوية الميناء صعودًا إلى الجانب الآخر باتّجاه المنحدرات، وكلّ منّا يتأبّط ذراع الآخر، نازلين التلّ لنفترق عند طريق المنحدر تباعًا إلى أن يصبح جوس خلفي دائمًا. كان الطريق موحلًا ولزقًا وخطيرًا بسبب كلّ هذه الأمطار. أمشي صاعدة خطوة جديدة صوب المنحدر في كلّ مرّة. يئنُّ البحر مثل شخص عليل. لا يمكنني أن أبعد ناظريّ عنه أبدًا. مهما كان عدد المرّات التي أقترب فيها من البحر، لا يكفّ عن إخافتي وبثّ الرعب في أوصالي. أقف لأشاهد لحظات هيجان البحر وتلك القفزات السريعة الرائعة. يمكنني سماع جوس يقول: «ياله من وحشٍ عظيمٍ!» تبدو القوارب المنقلبة في الأسفل ميتة ووحيدة.

أعرف صاحب كلّ مركبٍ من تلك القوارب. تبدو مجاديفها كأذرع طويلة حزينة بانتظار من يمتشقها ليُعيد الحياة إليها. صرتُ في منتهى التوتّر، أخشى أن ينقضّ عليَّ شخص مّا. لم يكن عليَّ الخروج أبدًا ولا بدّ من العودة. من الصعب أيضًا النزول مجدّدًا. لا بدّ من أنّني مجنونة. يمكنني أن أنهار وأن أسقط في البحر. تبدو الفكرة جذّابة للغاية بالنسبة إليّ. لا يوجد أيّ شيء أمامي أو خلفي، أمسيتُ وحيدة مع الرياح والبحر. يبدو كلّ شيء مألوفًا ومرعبًا في الآن ذاته. أحاول أن أكبت صوت أنفاسي. أبدأ الركض، لتصير ساقاي أقصر. لقد جعلني الحزن أتقلّص.

فتحت بابي ودخلت البيت. كنت في حالة عصبيّة شديدة للغاية. هناك شيء مّا خاطئ يتعلّق بهذا المكان. أصغيت إلى ضجّة. هناك شخص مّا هنا أو كان هنا على ما يبدو. أخذتُ أتفقّد البيت من غرفة إلى أخرى. باغتني معطفي المعلّق على مشجب الباب. مرَّ ضوء سيّارة في الخارج. لا شيء. سيطر عليَّ الشعور بالخوف. إذا لم يكونوا يتعقّبونني فلا بدّ من أنّني أتعقّب نفسي. حاولت تجاهل مخاوفي. كان هذا سرُّنا. هذا كلّ ما في الأمر. يحتفظ الكثير من النّاس بأسرار كثيرة، أليس كذلك؟ يقوم العالم على الأسرار. كيف سيكون العالم دون هذه الأسرار؟ كان سرّنا بريئًا، لم نؤذِ أحدًا أبدًا.

لا بدّ من أنّنا ارتكبنا خطأً مّا، خطأً عظيمًا، أخفيناه في مكان مّا، وربّما نسيته بطريقة أو بأخرى.

جلست على أريكة جوس. لست متأكّدة ممّا سأقوم به. وجدت

نفسي مضطربة، فتساءلت: ماذا أفعل بيدي؟ التقطت كتابًا وحاولت قراءة فقرة، ولكنّني لم أتمكّن من ذلك. تناثرت الكلمات وأخذت تقفز أمام ناظريّ، فلم أقوَ على استيعاب أيّ شيء. أغلقت الكتاب وشغّلت التلفاز، لكنّ صوت المضيف في البرنامج الحواري وسرعة حديثه أثارا مشاعري، فأطفأتُه وشغّلت بعض الموسيقى. يمكنني الاستماع إلى الموسيقى. أحاول أن أتنفّس معها لأنّ تنفّسي لا يزال مضطربًا. مازلت أتنفّس بسرعة. في نهاية المطاف، صار تنفّس جوس سريعًا للغاية. بدا تنفّسه سريعًا، فلم يعد قادرًا على التنفّس بعمق. حين بدأت أفكّر في أنفاسه التي اعتاد سحبها شهيقًا وزفيرًا وهو ينفخ الترومبيت، تخيّلت لو كان بمقدوره أخذ نفسٍ عميقٍ من الترومبيت عندما كان يُحتضر، فربّما حصل آنذاك على القليل من الراحة.

كنت هنا في «تور» في ذلك الصيف مع أخي وعائلته، قبل أن أقابل جوس. افتقدت الشعور بالراحة وقد كنت منفصلة عن حياتي. كنت أحتاج إلى الشغف بشخص مّا يجعل الزمن يمضي بسرعةٍ أكبر بفضل حبّ أسطوري كبير. لم تكن لدينا مياه ساخنة في تلك الفترة بعد. وهكذا كنت أغنّي ليلًا في الحمّام المتجمّد من شدّة البرد، بينما أغتسل بواسطة وعاء مليء بالمياه الساخنة في حوض الاستحمام القديم المتهالك: «سيأتي يومًا مّا حبيبي، سيأتي حبيبي القويّ العظيم، حبيبي... ربّما سألقاه يوم الأحد، ربّما الاثنان، وربّما لن يأتي، ولكنّني متأكّدة من أنّه سيأتي يومًا مّا، ربّما يكون الثلاثاء يوم سعدي». أستلقي بعدها على سريري الرقيق القاسي، محُاولة رسمه بالألوان المائيّة. تخيّلته بفكّ عريض قويّ.

كأنّه أمامي الآن، يوم تقابلنا في صالة مركز التبرّع بالدمّ في جلاسكو. كيف أمكنني أن أعرف حينها؟ كان يرتدي ملابس أنيقة، وهو في غاية الوسامة، يتمتّع بوجنتين تمنحانه إطلالة منحوتة كتمثال ومليئة بالفخر. يمتلك تينك العينين الداكنتين اللتين لم أرَ في حياتي مثلهما. شعره أسود كثيف ومجعّد، يتمتّع بأدقّ تجاعيد رأيتها في حياتي في غُرَّته مثل رفّ من السرخس الليّن. أظفار نظيفة ويدان جميلتان. لقد دقّقت في كلّ تفاصيله، كما لو أنّ لديّ إحساسا مسبقا بما سيحدث لاحقا، بل كأنّني استشرفت في داخلي ما الذي سيحدث أصلا. كان لون بشرته كريميًّا مثل حلوى هايلاند، وفمه جميلًا للغاية. شعرت بأنّني غير قادرة على مقاومته، كأنّ مجموعة من الأحصنة تشدّني إليه. كان بإمكاني تخيّل تلك الأحصنة تعدو بي حتّى تصل إلى طريق ضيّق يُفضي إلى منزل كبير، إلى تلك البوابات السوداء الضخمة. كنت مأخوذة دون أيّ سيطرة على ما سيحدث معي، سوى تلك المتعة المبهجة المقلقة وذلك الإحساس المريع بأنّني وقعت فريسة القدر. قلت لنفسي: لقد تبرّع كلانا بالدمّ. تساءلت عن السبب الذي دفعه إلى التبرّع بالدمّ، أيّ حادث أصاب عائلته، أيّ صدمة مرعبة. لم نتكلّم في تلك المرّة الأولى، رغم أنّني كنت أشعر بنظراته إليّ.

تتقلّص النار أيضًا. تنكمش على نفسها لتتحوّل إلى رمادٍ. استيقظت ووضعت حاجز الأمان على النار ودخلت المطبخ. وقفت أمام غلّاية الماء لوقت طويل، فركت يديّ حتى اخترقني صفير الغلّاية المدوّي، كأنّني لم أكن أتوقّعه. حضّرت كوبًا من الشاي لأخذه إلى السرير. لا يزال النوم في سريرنا هنا تجربة مريرة. فكّرت في النوم في

غرفة كولمان القديمة أو النوم على الأريكة في الطابق السفلي أو النوم على الأرض. شعرت كما لو أنّني سأتخلّى في هذه الحالة عن جوس. صعدت إلى سريرنا القديم ووضعت كوب الشاي إلى جانبي. الفراغ يختنق من حولي بالصمت. فراغ واضح ومحسوس. فالخسارة ليست غيابًا في نهاية الأمر، بل حضور، حضور قويّ أمامي هنا. ارتشفت رشفة من كوب الشاي ونظرت إليه. لم يكن يبدو كأيّ شيء مألوف، وكان ذلك أمرًا في غاية الغرابة. ولكنّه يبدو مناسبًا فقط. كنت متأكّدة في الليلة الماضية من شكله المحدّد. سحبت الملاءة بسرعة لأرى إن كان سيعلن عن وجوده. لن يتركني بمفردي ولن يدعني أنام. حاولت تسوّل النوم والرقاد، لكنّه كان هناك حيث يرقد جوس، أليس كذلك؟ هذا ما يقوله شاهد القبر: هنا يرقد فلان. يرقد هناك ساهيًا عن كلّ شيء، مثل التلاميذ الذين سهوا وغطّوا في النوم في البستان وتركوا يسوع بمفرده. يرقد جوس هناك وراء الخطّ الساحلي. لا يمكنني النوم بعد الآن. لن أتمكّن من النوم بشكل جيّد. يخدشني النوم ثمّ يوقظني. أنغمسُ في النوم للحظة، ثمّ أطفو على السطح مرّة أخرى. تكشط عيناي الظلام. لا أعلم على وجه التحديد عدد الساعات التي نمت منذ وفاته. لا يمكن أن تكون ساعات طويلة. وذلك شكل من أشكال التعذيب. ألا يعتبر الحرمان من النوم تعذيبًا؟

إذا لم أحاول النوم فربّما يتسلّل إليّ ويتملّكني. لن أحاول النوم، سأحاول أن أتذكّر. كانت المرّة التالية بعد ستّة أشهر. عدنا مرّة أخرى لنتبرّع بالدم في اليوم نفسه، يوم الثلاثاء. أنا فتاة شجاعة، مليئة بالمعرفة. اقتربت منه وفاتحته بالحديث. كنّا في العام 1955، ولا تقوم النساء

بمثل هذه التصرّفات. لا يهمّني أبدًا. أنا متأكّدة من أنّ هذا الرجل سيغدو حبيبي. وعندما تكون متأكدًا من شيء مّا فلا بد من انتهاز الفرصة، ويجب ألّا تضيّع فرصتك وإلّا ستضيع حياتك. أتذكّر عندما أخبرني جدّي عن الطريقة التي تعرّف بها على جدّتي وكيف غازلها حتّى حظي بها. قلت له إنّني قد لاحظت وجوده هنا من قبل. تحدّثنا عن التبرّع بالدم وكيف نكره كلانا هذا التبرّع، ولكننا نحبّ غلق قبضة يدنا ونعشق البسكويت الذي نحصل عليه بعد التبرّع. سألته ما إذا شاهد الدم يتدفّق من جسده. قال إنّه يُشيح ببصره لينظر إلى أيّ شيء آخر. قال إنّه يشعر بالقليل من الغثيان. وسألني كيف تشعرين، كيف تتعاملين مع الوضع؟ أخبرته بأنني أفضّل مشاهدة الدماء تتدفّق لأنظر إلى لونها الكثيف الرائع. ضحك من قلبه، وكأنّه بدأ يعجب بي فجأة. ثمّ ران الصمت على كلينا، وبدأ يحدّق فيّ بغرابة، محتارًا كيف ظهرت أمامه بهذه الطريقة. ولكنه لم يحاول التخلّص منّي. نظر إليَّ من الأعلى إلى الأسفل وكأنّه يقيّمني. كنت في غاية السعادة بارتداء ثوبي الجميل المنقّط مع الحمّالات. أعلم أنّني أبدو جميلة.

ذهبنا لنشرب كأسًا في حانة لاودر. أخبرني بأنّ اسمه جوس مودي، فسألته ما إذا كان هذا هو اسمه الحقيقي. شعر بالإهانة، علت وجهه نظرة لم أرها من قبل. إنّه بالطبع اسمه الحقيقي، ما الذي أتحدّث عنه؟! قلت له إنّه يبدو اسمًا مسرحيًّا أو فنيًّا، وإنّه أشبه باسم قد يُطلقه شخص مّا على نفسه، وكأنّه يعلم مسبقًا بأنّه سيصبح مشهورًا. ضحك ممّا قلته، وقال لي إنّه سيصبح مشهورًا. ضحكت بشدّة بدوري لأنّني أعلم أيضًا أنّه سيصبح مشهورًا. ربّما لاحظت ذلك على ما أعتقد،

تلك الإثارة التي تملّكتني عندما سألته عن اسمه. قلت له: «اسمي ميلي ماك فيرلين»، وكأنّني أسمع اسمي للمرّة الأولى، وكأنّ اسمي كان بعيدًا لأميال عمّا أنا عليه حقًا. قلت: «ميليسنت ماك فيرلين، ولكنّ أصدقائي ينادونني ميلي»، وشعرت بالخجل فجأة. تحدّثنا آنذاك عن كلّ شيء ولا شيء. أخبرني بأنّه يعزف على الترومبيت، وبأنّه سعيد للغاية بعزفه على الترومبيت، وهو ما استشعرته بالفعل. تلتمع عيناه عندما يقول كلمة «ترومبيت». سألني: هل تريدين كأسًا لتشربيه على الطريق يا ميلي؟ شعرت بأنّني ضعيفة وهو ينطق اسمي. بقيت على الطاولة أراقبه وهو يذهب إلى البار ليأتي بكأس الويسكي له وكأس الجن لي.

اصطحبني إلى شقّتي في شارع روز ستريت، الشقة رقم 14، وتركني هناك. قال: «أعرف أين تسكنين الآن». قبّلني قبلة رقيقة على خدّي. دخلت الشقّة ورميت نفسي على سريري، وعانقت الوسادة. ثمّ بدأت أمسّد الخدّ الذي قبّله جوس مودي، وغازلني وداعبني حتّى أصبحت كلماته كقطعة موسيقية جميلة.

بقينا على هذا الحال من الغزل لمدّة ثلاثة أشهر. مع قبلة على الخدّ في نهاية كلّ لقاء. كنّا نلتقي في «بوتس كورنر» بمطعم «ذا شيل» الواقع في المحطّة الرئيسيّة «سنترال ستيشن» أو عند مَعْلَم «هيلان مانز أمبريلا» في المكان الذي تخرج منه القطارات من المحطّة المركزيّة بشارع «أرجيلي ستريت»، بين شارعي «هوب ستريت» و«يونيون ستريت». كنت أحتمي من المطر خلال اللحظات التي أنتظر فيها

جوس تحت مَعْلَم «هيلان مانز أمبريلا»، مُتخيّلةً رجال منطقة هايلاند في السنوات الماضية، منطلقين من هناك وهم يتحادثون بلغة غاليّة إسكتلندية محبّبة. قد نذهب لشرب كأس أو قد نذهب للرقص. هناك الكثير من صالات الرقص الرائعة في جلاسكو. قد نذهب للرقص في بلاي هاوس، في دينيستون باليه في لوكارن، في أستوريا أو في بلازا. فلا أحد هناك يكبر في السنّ على ما يبدو. لا أحد من هؤلاء يمكن أن يموت. حتّى القبيحون منهم يصبحون جميلين بشكل لا يصدّق. كان جوس راقصًا بارعًا، يحبّ أن يتبختر ويتباهى بحركاته في صالات الرقص تلك. أماكن يغمرها الجاز والرقص. كان في الحقيقة يستعرض قدراته. جميعهم كان يستعرض مواهبه حقًّا. أذكر أنّني كنت أضحك بشدّة عندما أشاهد الرجال واحدًا تلوَ الآخر يتقدّمون في لوكارنو مقلّدين فرانك سيناترا، وهو يغنّي أغنية «دانسينغ إن ذا بارك». وفي مسابقة متجر «كارزويل كلوثيز» للألبسة. أتذكّر أنّني أحببت أسماء تلك الفرق في صالات الرقص: راي ماك فاي تريو، دكتور كروك أند ذا كراكبوتس، جو لوس، أوسكار رابين، كارل باريتيين، هاري باري، فيليكس ميندلسون. أمّا فرقتي المفضلة فهي فرقة «هاوين سيرينادرز». يجعلنا الرقص في ذروة السعادة. الخطوات الطويلة، الخطوات السريعة، الانحناءات... رقصنا على طريق بارولاند حتى تباشير الفجر. كان الجوّ حيويًّا ومذهلا ومليئًا برقصات جالوس Gallus، بأسلوبها الساحر، وكأنّ الغد لن يأتي. نشعر بالدقيقة، بالثانية وبخطوات الرقص فقط، بالحرارة والعرق والحماس. ذلك الشعور بأنّك متّحد مع جسدك تمامًا، وبأنّ الروح والجسد متّحدان.

اصطحبني من البلاي هاوس بعد أن قضّينا هناك الليلة بأكملها. أخذني جوس إلى المنزل، ثمّ ابتعد مجدّدًا واضعًا كفّيه في جيوبه. رأيته يعبر ناصية شارع روز ستريت إلى شارع سوشي هول ستريت قبل أن يدلف إليه. لم يلتفت إلى الوراء أبدًا. لم يلوّح مودّعًا. بدأت أشعر بأنّ هناك خطبًا مّا. إمّا أن يكون جوس رائعًا للغاية ومن الطراز القديم أو أنّ هناك خطبًا مّا. لم يحاول أن يلمسني أبدًا. إمّا أن يشبك كفّه بكفّي أو نسير متعانقين. كنا نتبادل قبلات قصيرة رقيقة. مضت ثلاثة أشهر من القبل على خدّي الأيسر. مجموعة من القبل الخالدة التي بقيت تنتظر دون أن تتطوّر إلى شيء أكثر منها. أذهب كلّ ليلة إلى المنزل ذائبةً في حبّ جوس ومليئة بالإحباط. أنا في العشرين من عمري وهو في الثلاثين. ربّما يُشعره فارق السنّ هذا بالخجل، ولكنّني لم أعد طالبة في المدرسة.

رأيت جوس يمشي في الشارع ليلا واضعًا يديه في جيبيه. له مشية بطيئة عمدًا، وكأنّه قد تدرّب عليها. دخلت غرفة نومي الصغيرة. في الغرفة سرير صغير ومرآة وخزانة صغيرة. نظرت إلى نفسي في المرآة وفركت الكريم الليلي على خدّي لفترة طويلة، مُتخيّلة جوس واقفًا ورائي، يخلع ملابسه ويسحب روب الحمّام عن كتفي. فركت المزيد من الكريم على خدّي. مرّرت فرشاة المساحيق تحت نهديّ، وجوس خلفي. تنهّدت وارتديت قميص النوم الأبيض وذهبت متثاقلة إلى سريري. يمكنني سماع هيلين، شريكتي في السكن، وقد تعافت من المرض. استمعت إلى الضجّة التي تثيرها، وغططت في النوم كي أحلم بجوس مجدّدًا وأوقظ نفسي في منتصف الليل.

أعلم أنني في انتظار أن يحدث شيء مّا. اليوم الجمعة، سأقابل جوس الليلة. سنستمع إلى عازف ساكسفون نسيت اسمه. جوس يعرفه. أحبّ عالم الأماكن الخاصة بالجاز التي كان يأخذني إليها على الدّوام. أحبّ التبغ والمشروبات والثقة. إنّه عالم قائم بذاته. لطالما شعرت بأنّ أحدًا مّا يأخذني بعيدًا عن نفسي إلى مكان مّا. عليَّ إنهاء ترتيب ملفّات الطبيب ليحين بعدها موعد العودة إلى المنزل. أفكّر في ما عليَّ أن أرتديه. أقضّي معظم الوقت في التفكير. الليلة هي ليلتنا. غنّيت في داخلي. أنظر إلى الساعة في غرفة الانتظار. إنّها تستفزّني للغاية، إذ تكاد لا تتحرّك.

تأخّر جوس عن ملاقاتي، كعادته. وعندما وصل أخيرًا كان يرتدي بزّة زرقاء من الكتّان وقميصًا أبيض وربطة عنق مخطّطة. تخترقني إطلالته الرائعة وشعره الكثيف الداكن وعيناه الثاقبتان. بدا جاهزا تمامًا للعمل الليلة، ومعجبا للغاية بعازف الساكسفون هذا. علينا أن نخرج الآن. يحدّق الجميع فينا وخصوصًا في جوس. يعرف القليل من الأشخاص في هذا النادي الليلي، ويعرفه بعض الغرباء أيضًا. بنى لنفسه سمعة جيّدة من خلال العزف في عدّة حانات للجاز وفي عدّة نوادٍ ليليّة. قال جوس: حدث ذلك في بداياتي، تلك البدايات المليئة بالحماس والإثارة. كانت تلك بدايات الجاز وبدايات حياته الجديدة. كان يعمل بدوام كامل في متجر معدّات صيد السمك في شارع رينفيلد ستريت. قال إنّ ذلك هو اهتمامه الآخر في الحياة. قلت له: «يا لك من رجل استثنائي! كيف تجمع بين السمك والجاز؟» فقال: «أليس هذا أفضل من السمك والبطاطس».

هناك هالة مّا حوله بالفعل، شيء أشبه بقوّة مغناطيسيّة تجذب الآخرين إليه. إنّه شخصيّة مناسبة للغاية لكلّ هذا. طويل القامة وملوّن. من أبٍ إفريقيّ وأمّ إسكتلنديّة. لم يكن يعلم بلد والده على وجه التحديد، ولكنّه يعرف القارّة فقط. كان يقول مازحًا: إنّها قارّة كبيرة للغاية، أليس كذلك؟ والدته لا تتذكّر البلد بدورها، لكنّها ميّتة الآن كما كان يقول. تردّد عندما سألته عن سبب وفاة والدته، ثمّ رمى عبارة «أزمة قلبيّة». لم أتمكّن من قراءة ملامحه في ذلك الجوّ الخانق. سألته: «ألم تكن علاقتك جيّدة بها؟» فأجاب: «لم يكن الوضع على هذه الحال بالضبط».

أغلق جوس عينيه عندما بدأ العزف على الساكسفون وتركهما مغلقتين أطول فترة ممكنة. شعرت بالحرج قليلًا. شعرت كأنّني قد أضعته، وبأنّه ينتمي إلى الموسيقى لا إليّ. كان هناك أشخاص آخرون يصرخون بكلمات قليلة وبإثارة شديدة ومتعة منقطعة النظير «هييه» ويصفّقون بأكفّهم ويضربون الأرض بأقدامهم. يستمعون إلى الموسيقى وكأنّهم هم الذين ألّفوها بأنفسهم، مع ذلك الكبرياء السينمائي على وجوههم. كانوا يحرّكون رؤوسهم من جانب إلى آخر بما يتناسب تمامًا مع إيقاع الموسيقى. تتحرّك وجوه بعضهم إلى الأسفل لتدقّ ذقونهم بصدورهم، بينما يميل البعض رؤوسهم إلى الخلف. تهتزّ جميع الرؤوس وتنتفض من جانب إلى آخر. يحرّك البعض فكّه إلى الخارج وإلى الداخل بكلّ بساطة في حركات بلهاء، مغلقين أعينهم. كان كلّ وجه في هذا المكان جاهزًا للمضيّ بعيدا.

انهمك جميعهم في تلك الأجواء، مبتهجين وشاردي الذهن. يتبعون موسيقى الساكسفون إلى ذلك المكان المظلم الداكن، مهما كانت الوجهة التي سيقودهم إليها، مستسلمين لعالم من الزرقة الأنيقة الدافئة. كان الجوّ أشبه بالطقوس الدينيّة. شعرت كأنّني في كنيسة وأنّني الوحيدة التي فتحت عينيها وهي تصلّي. حرّك الرجل الذي يقابلني يده اليمنى مع الموسيقى بحركات صغيرة سريعة، وكأنّه مايسترو يقود فرقته الخاصّة. تساءلت إنْ كنت قادرة على إطلاق العنان لنفسي إلى درجة أن أضع قناع الجاز الجدّي هذا وأن أزمّ شفتيّ وأهزّ رأسي بحركات صغيرة متزامنة مع الإيقاع.

تتغيّر الموسيقى، يبلغ الساكسفون ذروة البطء والحزن، وكأنّه يحاول تذكّر شيء ضائع. حاولت أن أنقر بقدميّ، بحذائي الرقيق مع إيقاع الضرب على الطبول. في البداية شعرت بالثقة في النفس. لا أعلم ما إذا كانت قدمي التي تنقر على الأرض تبدو كأقدام الآخرين. لست متأكّدة من أنّني أنقر بإيقاعهم نفسه. أدرك أنّني لن أخاطر بهزّ رأسي أو بتغيير ملامحي بارتعاشة الوجه أو بحركات المايسترو بيديّ. ولكنّ هذا النقر الهادئ يمنحني شعورًا بالراحة. لم أعد أشعر، بعد فترة قصيرة، بأنّني مازلت أنقر بقدمي. انسجمت تمامًا مع الموسيقى، ياله من شعور غريب ينتظرني هناك. أجلس في منتصف الأنين الطويل البطيء للساكسفون، فتغمرني الموسيقى تمامًا. أشعر كأنّ شيئا مّا قد استسلم بداخلي وأصبحت أكثر رقّة. نظرت إلى جوس لأجده يحدّق فيّ، كان يراقبني. بدا كأنّه يقرؤني ويعرف ما يحصل معي تمامًا.

حلّ الظلام في الخارج. ألقت المصابيح بأنوارها على الشوارع. غادر الكثيرون منّا حانة «وي جاز» في الوقت نفسه. بدونا كأشخاص خرجوا من بطن الليل، هبطوا على سطح الكوكب سويًا في الوقت ذاته. وعلى وجوهنا تلك النظرة المؤثرة الحماسيّة نفسها. تحرّكنا بمعاطفنا الطويلة وياقاتنا المرفوعة. الرياح قويّة. ضربت الريح علبة كانت في الشارع. الليلة ليلتنا. شدّ جوس على كفّي بقوّة وكأنّه يحميني من شيء مّا.

أوصلني إلى الباب. تقدّم ليقبّلني على خدّي، ولكنّه غيّر رأيه وقبّلني على شفتيّ. حملني بذراعيه وقرّب وجهي من وجهه. سحبني إليه أكثر فأكثر حتى ارتفعت قدماي قليلًا عن الأرض. كان يتنفّس بسرعة ويشعر بحماسة شديدة. فتحت عينيّ وحدّقت فيه وهو يقبّلني. كانت عيناه مغلقتين تمامًا. نطق باسمي عندما قبّلني مرارًا وتكرارًا. شعرت كأنّني أموت. أمسكت بذراعه وصعدت به السلم إلى شقّتي الصغيرة. تمنّيت أن تكون هيلين قد خلدت إلى النوم واندسّت في سريرها الصغير.

ولكن كلّ شيء تغيّر عندما صعدنا السلالم. لم يرمِ جوس بي على السرير كما توقّعت. تمشّى في الغرفة. قلت له: «اجلس، البيت بيتك». شعرت بخجل شديد. حميميّة غرفة نومي جعلتنا نشعر بأنّنا غرباء. جلس على حافة سريري مضطربًا وبحالة في منتهى السوء. «ما بك يا جوس، ما الأمر؟» كان على وشك إخباري بشيء مّا، شيء كان عليه أن يخبرني به منذ زمن طويل، منذ أشهر، ولكنّه لم يتمكّن من

ذلك. كان يخاف من أنّني لو عرفت فقد أتوقّف عن مقابلته. شعرت بامتعاض شديد. ما الذي عليَّ أن أعرفه؟ اضطرب ذهني بشدّة. ربّما يكون متزوجًا أو يعاني من أحد الأمراض الذكوريّة أو ربّما ارتكب جريمة مّا. لا أعلم ما قد يكون عليه الأمر؟ استرقت نظرة إلى المرآة. كان شعري أشعث، وعيناي متوحّشتين كعينيه. أدركت أنّ هناك شيئًا خطيرًا، ولكنّني حاولت أن أمازحه. داعبت شعره بيدي وقبّلت خدّه. قلت: «لا يمكن أن يكون شيئًا خطيرًا إلى هذه الدرجة. فلا شيء يمكن أن يهدّدك عندما تكون واقعًا في الحبّ». كانت المرّة الأولى التي أفصح فيها عن حبّي، ما جعله يغدو أكثر حزنًا. بدا بالفعل على وشك البكاء. قال لي إنّه لم يعد بوسعه أن يقابلني مجدّدًا، هكذا بكلّ بساطة. لا أصدّق أن يحدث هذا حقًّا. بدا القمر من النافذة بدرًا مكتملًا، وكان الظلام مجرّد كذبة. أردت أن أنام، أردت أن أسكته وأن أندسّ معه في سريري وأستسلم للنوم بين ذراعيه. لا يهمّني ما فعله مطلقًا. لا أريد أن أعرف ما الذي اقترفه. إنّه يعترف بأنّه آسف. حدّق البدر فيّ فاغرًا فاه. بدا القمر في غاية الغرابة. شعرت بأن عالمي قد صار مجنونًا وانقلب رأسًا على عقب.

ضربت الكريم الليلي وأوقعته عن مرآة الماكياج. انفجر شيء مّا بداخلي. قلت له: «لا يمكنك القيام بذلك»، ووجدت نفسي أضربه على صدره وأبكي. غضب من نفسه. يمكنني سماعه يشتم نفسه بصوت مكتوم. ثمّ سمعته يقول: «سامحيني»، ونهض ليغادر، لكنّني لم أتقبّل ذهابه. أمسكت به وسحبته ليعود. إنّه أطول قامة منّي. لا يمكنني بكلّ قوّتي أن أهزّه، فصرخت بدلًا من ذلك. لم أبال بإيقاظ أيّ

كان. صرخت في وجهه: «لا بدّ أن تشرح لي كل شيء، أنت مدين لي بالشرح. ما هي مشكلتك؟ هل أنت مريض؟ هل قتلت شخصًا مّا؟»، لكنّ الشيء الغريب أنّه بدا كأنّه ينتمي إليّ. جعله غضبي كأنّه ملكي. قال بصوت لم أتمكّن من تمييزه تمامًا: «هل تريدين حقًّا أن تعرفي؟ سأريك ما الأمر». ظهر على وجهه تعبير غريب، كأنّه قد تراجع ولم يعد هو نفسه.

خلع معطفه الأزرق ورماه على أرضيّة غرفتي. خلع ربطة عنقه ورماها هي الأخرى أرضًا. كانت يداه ترتجفان، وكنت أرتجف بدوري. اعتقدت أنّه ربّما قد غيّر رأيه ويريد ممارسة الحبّ. ولكن ألا يتوجّب عليه أن ينزع عنّي ملابسي أوّلًا؟ لست متأكّدة تمامًا. حاولت تذكّر ما الذي كان يفعله عشّاقي سابقًا. شعرت كأنّ دماغي صار فارغًا كليًّا. أخذ يفكّ أزرار قميصه ببطء. كان يفكّ كلّ زرّ ببطء أشدّ. وقد كان يرتدي كنزة تحت القميص. خلع الكنزة ببطء أيضًا، وأخرج ذراعيه منها ورفعها من خصره إلى رأسه، ثمّ رماها. بدا في عينيه مصمّمًا على استكمال ما بدأه. لم يكفّ عن النظر إليَّ طيلة الوقت، نظرة غريبة متحدّية وعدائيّة، كأنه يقول لي: «لقد قلت لك. لقد حذّرتك حقًّا». خلع الكنزة الأخرى من رأسه ورماها بالطريقة نفسها. كان يرتدي طبقة أخرى من الملابس الداخليّة. كانت ثيابه ممدّدة على أرضيّة غرفتي كجثّة في فيلم. خلع القميص الداخلي أيضًا. يبدو الآن أكثر نحولًا عمّا كان عليه. أخذتني الحماسة لرؤية هذا الرجل يخلع ملابسه من أجلي. هناك الكثير من الضمّادات الملفوفة تحت القميص الداخلي حول صدره. بدأ بفكّ هذه اللفافات. انتابتني

موجة من الراحة عندما شعرت بأنّ كلّ ما يقلقه لم يكن سوى القليل من الندوب. لا بدّ من أن يدرك أنّ حبيّ أعمق بكثير من أيّ جرح كان. قلت له: «لست مضطرًا إلى أن تريني». شعرت فجأة بشفقة كبيرة حياله. «هل تعرّضتَ لحادث؟ لا أهتمّ حقّا بأشياء سطحيّة بسيطة كهذه». اقتربت منه لأعانقه. قال: «لم أنته بعد». تابع فكّ اللفافات الكثيرة من الضمادات حول صدره. كنت أقبض على يديّ بقوّة عندما ظهر أحد ثدييه أمامي. ثدي صغير وقاس.

بزغ الضوء الخفيف الهشّ في الخارج. يمكنني رؤيته من نافذتي يتقافز راقصًا على سطح البحر، وعلى التلال الوعرة الغنيّة بالنباتات الصغيرة. بدا البحر أكثر هدوءًا اليوم، غالبه الخجل من هيجانه في الليلة الماضية. يحاول أن يبدو هادئًا بكامل زرقته ومفعمًا بالبراءة. انتابني شعور بالأمان. سأذهب إلى التسوّق. شعرتُ بشهية غريبة لأوّل مرّة منذ أيّام عدّة. سأشتري رغيفا طازجا وبعضًا من جبن شيدر الناضج، وبعض الطماطم والقليل من لحم الخنزير المملّح المنزوع من العظام، ولن أشتري جريدة.

لماذا عليّ العودة أصلًا؟ النّاس هنا أكثر لطفًا. ومهما بدا الأمر غريبًا، فإنّهم حقيقيّون أكثر. النّاس هنا حقيقيّون حقًّا. يمكنني نقل أغراضي الخاصّة إلى هنا، ثمّ رمي بقيّة الأغراض. بات أصدقاؤنا في لندن أكثر تشاؤمًا، وربّما أصبحوا فضوليّين أكثر من اللزوم. لا أريد رؤية أحد باستثناء كولمان. أتمنّى لو بإمكاني رؤيته. ما الذي يمكن أن أقول له؟! إنّني كنت ووالده متحابّيْن، ولا شيء يهمّنا، وإنّنا توقّفنا

عن التفكير في الأمر بعد فترة قصيرة؟ وكيف يمكنني أن أخفي أمرًا إذا لم يكن لديّ شيء أصلًا لأخفيه؟

غسلت وجهي بالماء البارد. كنت منهكة من شدّة التعب. أصبحت شخصًا مختلفًا. تغيّرت طريقة تفكيري، أدرك ذلك تمامًا. أذكر أنّني اعتدت على إيجاد المزيد من الفراغ في رأسي، ولكنّ القلق غمره اليوم تمامًا. أحلّق من قلق إلى آخر مثل عصفور نزق. أحاول ألّا أجبر نفسي على ذلك. لو كان عليَّ أن أقلق بالفعل لكان أجدى بي أن أعيش القلق في السنوات الماضية. ربّما أصبحت طاعنة في السنّ. فقد كان القلق يُغالب جدّتي حين تنسى ما تريد قوله. كانت تكتب ملاحظاتها على أوراق ثمّ تنسى أين وضعتها. تجد أحيانًا الورقة الخاطئة لتقوم في نهاية الأمر بإخبارك بأشياء عفا عليها الزمن. ارتديت بنطلوني وسترتي الكشميرية ووضعت دبّوس الزينة ذا الحجارة الكريمة. يمكنني أخيرًا أن أبدو حسنة المظهر للخروج إلى العالم. لا يمكنني أن أسمع أحدًا يقول إنّ أرملة جوس مودي أصبحت رثّة. كان جوس يحبّ أن يراني جميلة. ارتديت معطفي وخرجت، دون أن أقفل الباب. لم أعتَدْ غلق الباب هنا، ولن أقوم بذلك الآن. سأتمشّى قليلًا على الكورنيش ريثما تفتح المتاجر أبوابها. أغنّي لجوس «ستأخذ الطريق العلويّة وسآخذ الطريق السفليّة». لطالما أحبّ غنائي له رغم أنّني لا أجيد الغناء. أصبح النهار مختلفًا عمّا بدا عليه من النافذة. الرياح باردة مولولة. في هذا الوقت من العام يصبح الطقس هنا متقلّبًا ومتغيّرًا ومخادعًا مثل النّاس تمامًا.

رائحة البحر تبدو قويّة كما لو أنّك لم تقترب منه منذ فترة طويلة. يمكنني الشعور بطعم الحشائش البحريّة والأسماك في فمي، والملح في شعري وعلى خدّي. تعوي الرياح خلفي وتنفخ معطفي وتدفعني إلى التحرّك بسرعة أكبر ممّا أريد. وحين اقتربت أكثر لم أجد البحر هادئًا بتاتًا. يمكنني النظر إلى قلبه مباشرة. تتصارع الأمواج، فتنكسر بجنون. وتتلاطم فوقها أشباح أمواج أخرى تحاول أن تتكلّم. يمكنني رؤيتها تطارد الأمواج الحقيقيّة، تريد أن تعود إلى الحياة. نادرًا ما مررت منذ سنوات في هذا الطريق بمفردي. لطالما كنّا نتمشّى هنا في نزهاتنا. ينتابني شعور غريب حين أكون هنا وحيدةً. يمكن للرياح أن تقتلعني وترميني في البحر. لا شيء يثبّتني على الأرض. يمكنني أن أحلّق في الهواء، يمكنني الطيران.

بقي الميناء على حاله مذ كنت طفلة صغيرة، آتي إلى هنا في العطلات مع عائلتي من لندن. لا تزال تلك الفتاة الصغيرة على حالها. لا يزال محلّ التصوير «آف. فوتشر وأولاده» الذي تأسّس عام 1886 قائمًا. كما أنّ عائلة «باتشر بي سافاج» الرائعة لا تزال هنا مذ كنت طفلة. يدير الابن متجر والده هذه الأيّام، يدعى بدوره بروس على اسم والده. يمتلك كلاهما خدودًا ويدين حُمرًا كما يليق بجزّارين. وهناك مقهى إيطاليّ صغير تديره عائلة دالساسو، يقدّم أفضل آيس-كريم في المنطقة ويبيع الحلويّات في جرارٍ ضخمة من النايلون. أغنت تلك الحلويات عطلاتي زمن الطفولة في هذا المكان، وقد سرّني كثيرًا أن أعرف أنّها لا تزال موجودة. سور بلوم، تابليت، سيربيت فونتينز، سينامون بولز،

أنيسيد بولز، وحلوى بطعم الليمون، والفطر بجوز الهند، وكريمة النعناع. يقدّم المقهى الإيطالي أيضًا طعام الفطور. تقدّمت رغمًا عني لأجلس. شَعرتْ السيدة دالساسو بالسعادة لرؤيتي. قالت: «أتريدين الطلب المعتاد؟» البيض المقلي مع الخبز المحمّص. سألتني: «أين السيد مودي هذا الصباح؟» قلت: «مات السيّد مودي منذ عدّة أسابيع».

قالت، وهي تشدّ على يديّ بقوة: «حقًّا؟ أنا آسفة للغاية، ياله من رجل لطيف، السيد مودي، ياله من رجلٍ لطيف». أومأتُ برأسي، متسائلةً ما الذي يمكن أن تقوله السيدة دالساسو إذا ما قرأت الصحف. شعرتُ بغصَّة في حلقي. جعلتني السيدة دالساسو أبكي. إنّها أوّل شخص يعاملني على أنّي أرملة عاديّة، أوّل شخص يمنحني الاحترام، بدلًا من العدوانيّة. أردت أن أنتحب في حضنها. ارتشفت كوب الشاي فانسكب القليل منه على معطفي. نظّفته بمنديل فعَلِقَ القليل من بقايا المنديل على المعطف.

جاءت بالبيض المقلي والخبز المحمّص وبقيت جالسة في مكاني. رمقتني بنظرة أخرى، واحدة من تلك النظرات الإيطاليّة المكثّفة التي يمكن أن تُشعِر الأشخاص الأكثر نبلا بشدّة الشفقة على أنفسهم. قالت لي: «سأتركك بمفردك، يبدو أنّك لا تريدين التحدّث عن الأمر». مسحَتْ أسفل كوب الشاي بقماشة تحملها ببراعة، ثم أردفت: «سأحضر لك كوبًا آخر».

حاولتُ متابعة وجبة الإفطار كي لا أجرح مشاعر السيدة دالساسو. لا بدّ من أن أتناول الطعام، فقد أصبحتُ أكثر نحولًا.

صارتْ ملابسي واسعة على جسمي. كانت حياتي منذ شهر مضى مليئة بأمور أكيدة كنت على وشك القيام بها. كانت أمام جوس جولة فنيّة جديدة، وكنّا سنذهب أولًا في عطلة نهاية الأسبوع إلى توباغو. ولكنّني هنا اليوم، بعيدًا عن كلّ الأشياء الرائعة المألوفة في هذا المكان، غير مصدّقة أيّ شيء على الإطلاق، حتّى في ما يتعلّق بحياتي، بل خصوصًا ما يتعلّق بحياتي.

قرّرت السير إلى «لاير» للتسوّق في طريق العودة. كانت كابينة الهاتف على ناصية الشارع بالقرب من متجر تشيبي. تجاوزتها، ثمّ عدت أدراجي. قلت لنفسي ادخلي واتّصلي به. لن تخسري شيئًا، هيّا اتّصلي به. دخلت الغرفة الحمراء القديمة التي لا تزال سليمة وكأنّها مومياء مصريّة، مع أنّها قد تميل وتهتزّ عندما يدخلها شخص مّا ليحمل سمّاعة الهاتف. وضعت القطع النقدية المعدنيّة واتصلت بكولمان. جاء الردّ من المجيب الآلي. بدأت بقول شيء مّا: «كولمان، ارفع سماعة الهاتف إذا كنت موجودًا؟» كنت أعلم أنّه لن يرفع السماعة ليردّ عليّ. هناك طفل صغير في الميناء يضع الطعم في صنارته كما اعتاد كولمان القيام بذلك سابقًا. علّمه جوس الصيد، وعشق كلاهما الصيد سويّا. لطالما أبحر بهما أنغوس على متن قاربه. امتلك كولمان صنّارته الخاصّة عندما كان في الثالثة من عمره. رمى ذلك الطفل صنّارته بحركة سريعة كخبير وجلس ينتظر. رفعت السمّاعة واتصلت مجدّدًا. «كولمان، ما الذي يمكنني أن أقوله لك، أنا والدتك، أحبّك». وضعت السماعة مجدّدًا وخرجت مواجهة الرياح. فضربَتْ وجهي ولسَعَتْ خديّ.

تغيّر الطقس مجدّدًا. من المفترض أنّنا في الصيف. تتمايل الأشجار مثل سكارى يعربدون في الريح.

الريح صديقتي الحميمة، تعبث بأصابعها الطويلة القويّة في شعري؛ تضرب وجهي، وتدفعني وتصرخ في أذنيّ. أفضّلُ البقاء في الخارج على الدخول إلى أيّ مكان. أحثّ الخطى إلى «لاير»، تتبعني الريح الغاضبة، حتّى كدت أطير. الميناء في «لاير» مهجور وموحش. ينحني صيّاد أو صيّادان على قاربيهما، منتفخْين بالرياح التي تكاد تبتلعهما. يصرخ أحدهما ويلوّح لي. أفرحتني بساطة التلويح والتحيّة وجعلتني أشعر بالدفء. ما أجمل محبّة الغرباء.

دخلت إلى أوّل حانة في طريقي «ذا أولد شيب»، وطلبت وجبة غداء ممّا يقدّمونه. شعرت بالجوع فجأة. سمك الحدوق والبطاطس المقلية والبازلاء. بعض الأشخاص يشربون كأسًا من الجعة وأزواج يتناولون وجبة الغداء. وعلى طاولة في الزاوية مقابل البار جهاز «فونوغراف» للأغاني المسجّلة تصدح منه أغنية: «Boogi Woogie Bugle Boy of Company B». كان هناك عازف ترومبيت في أحد شوارع شيكاجو، يعزف البوب الراقص بطريقة لا يضاهيه فيها أحد. تركتُ الشوكة والسكّين من يدي ووضعتهما في الطبق، تجمدتُ مثل طائرة في الهواء.

حضر أشقائي الأربعة في حفلة زفافي. ارتديت يومها فستانًا أنيقًا أخضر فاتحًا. تناقشت وجوس حول لون الفستان الذي ينبغي أن أرتديه. قلت له إنّني لست عذراء، فحدّق فيّ لفترة طويلة، ثمّ

قال: «معك حقّ». لقد بدا هادئًا وفي منتهى الثقة في نفسه.، لكنّني كنت متوترة للغاية، أذرع الغرفة جيئة وذهابًا. فكّرت في مكتب دائرة السجلّات في ذلك المشهد في رواية «جين آير»، حين سأل القسّ ما إذا كان أحد الحاضرين يعرف سببًا يمنع زواج السيد روتشستر من جين، ليتقدّم الشخص الكاريبي فجأة قائلًا: نعم أنا. كشف الثوب عن صدري. بدوت مثيرة للغاية وكان إخوتي الأربعة وجوس يحدّقون فيّ بالنظرة نفسها في أعينهم. كانت أمّي هنا أيضًا. لا بد من أنّ والدي كان يحبّ أن يعيش ليشهد ذلك اليوم. لم أقابل عائلتي منذ فترة طويلة. لا يمكن أن أصدّق أنّهم فرحون اليوم. كيف أصدّق أن تكون أمّي متحاملة إلى هذه الدرجة؟ عندما أخبرتها بأنّني سأتزوج جوس، قالت إنّه لا شيء لديها ضدهم، لكنّها لا ترغب في أن تتزوّج ابنتها منهم. وأضافت إنّه لا بد من أن يتزوّج كلّ شخص ممّن يشبهونه. لم تعتبر أمّي ذلك تحاملًا بل قاعدة عامّة معروفة لدى الجميع، وفق قولها. ثم نطقت تلك الكلمة: «زنجي»، «لا أريدك أن تتزوّجي من زنجي». أوقفتُها قبل أن تشعرني بالمزيد من الخجل. قلت لها إنّها لن تراني مرّة أخرى وغادرت. جاء أخي دنكان إلى شارع «روز ستريت» ليعلمني بأنّ العائلة بأكملها تريد حضور حفل الزفاف. استطاعوا في نهاية الأمر التغلّب على تحاملهم وانحيازهم، على الأقل، في هذا اليوم.

ارتديت فستاني الأخضر الفاتن وحذاءً بكعب عالٍ من الجلد السويدي الأسود، ووضعت شريطا أخضر في شعري، حتّى إنّني وضعت ماكياجي لأوّل مرّة في حياتي في محلّ فريزرز للتجميل. بلغ

منّي التوتّر ذروته، ولم أكد أستمتع بذلك كما يجب. استمرّ جفناي بالغمز بينما طلبَتْ منّي أن أبقيهما مستقرّيْن. وأخذ خدّاي بالارتعاش عندما كانت تضع كريم الأساس. غالبني الإحراج. أكثر ما أحببته أنّها جعلت فمي على شكل «قُبلة»، إذ وضعت ثلاث طبقات من أحمر الشفاه.

حضر الحفل سبعون شخصًا، شعروا بالإثارة واستمتعوا بموسيقى الجاز. بدا الجوّ رائعًا. امتلأت الأقداح بمشروب كينغ بومبا والكودو، والنبيذ الجنوب إفريقي المركّز، مع النبيذ الأسترالي المركّز. بدت الأقداح وكأنّها تمتلئ من تلقاء نفسها، وتحتفي بذاتها. دارت الأنخاب الإسكتلنديّة. كان أعضاء فرقة «مودي مين» ما عدا جوس يحتفلون في الجانب الآخر من الصالة. ذهب جوس إلى هناك ليحادثهم. علمت أنّه لن يتمكن من الابتعاد عنهم أبدًا. بدأت الفرقة بعزف أغنية «Boogi Woogie Bugle Boy of Company B». كان جوني يغنّي وينظر إليَّ مباشرة ويومئ لي بأن أتقدّم إلى حلبة الرقص. اقترب جوس لملاقاتي. دخلت ساحة الرقص كمن يمشي على الماء. تبادلنا النظرات حتى تلاقينا. أحاطني جوس بذراعيه وقبّلني. صفّق الجميع وهلّلوا. ثمّ رقصنا. وتشكّلت حولنا فورا دائرة من النّاس في شكل حائط بشري. انصبّت جميع العيون علينا. أمسك جوس بيدي وبدأنا ندور. كنت أدور على رجل واحدة تحت يده، وأتمايل راقصة عند ساقيه. رفعني عاليًا في الهواء. ثم قفز مبتهجًا، فقد حان وقت متعته. كان ذلك يوم الثامن والعشرين من أكتوبر من عام 1955. أصبح رقم 28 رقم الحظّ الجديد الخاصّ بي. يمكنني الشعور بعينيّ

تلتمعان. وبدا جوس وسيمًا للغاية، لم أره بهذه الوسامة من قبل. يوم 28 أكتوبر 1955 أصبحتُ السيدة ميليسنت مودي، السيدة مودي، السيدة حرم جوس مودي.

عندما أنهت الفرقة العزف هنَّأَنا الجميع وبدؤوا يصدرون ضجيجًا صاخبًا. رفع جوس ذراعيه في الهواء بطريقة دراميّة، ثمّ انحنى يُحيّيني. استأنفت فرقة مودي مين العزف بأغنية «Aint Misbehavin». لا أحد لأتحدّث إليه، لا أحد غيري، لا أحد لأتمشّى معه ولكنّني سعيدة بعيدًا عن الجميع، «Aint Misbehavin»، أحتفظ بحبّي لك. رقصنا لفترة طويلة، رقصنا كما لو كنّا في فيلم. كان كلّ شخص يجتذب الأضواء كما لو كان يرقص رقصة منفردة. «شيك راتل ان رول»، «بيل بايلي»، «تيك ذا ايه ترين»، «واي دونت يو دو رايت؟»، «بلوز إن ذا نايت»، «ماي ماما دونتول مي وين أي واز ان نيي بانتس»، «إن ذا مود»، «توتي فروتي»، «روك أراوند ذا كلوك»، «دانسينغ تايم»... لم تتوقّف الفرقة عن العزف. عزفت موسيقى «الرومبا لا كونغا»، «ماري لاند». كانت فرقة «مودي مين» في أبهى حالاتها مستمتعة للغاية، وكانوا يغيّرون الموسيقى طيلة الوقت. حسنًا لقد فزت عليّ. أنا غارقة في الحبّ. حسنًا إذن، لقد فزت عليّ يا حبيبي، ما الذي يمكنني أن أفعله؟ ترقص والدتي مع أخي. وتمتلئ عينها بالدموع كلّما وقع نظرها عليّ. إنّه زفاف ابنتها الوحيدة.

جاء بيل برادي وقال لجوس: «هل يمكنني الرقص مع العروس؟» كان جوس يرقص مع إيلين صديقتي القديمة منذ أيّام المدرسة. لم يأت

أحد من أصدقاء جوس القدامى من المدرسة، ولا أيّ فرد من عائلته، ولا أيّ شخص من ماضيه. بعض الأشخاص من فرقته وبعض الأصدقاء الآخرين من عالم الجاز. والدة جوس متوفّاة، ولم يعرف والده مطلقًا. نظرت من خلف كتفي بيل برادي إلى جوس، كان ينظر إليَّ من خلال إيلين. لا يبدو هذا صائبًا. إنه يرقص مع إيلين، لا يبدوان ثنائيّا لطيفا. هناك شيء خاطئ في المشهد. كلّ نحلة تغرق في الغيرة عندما تراك معي. لا ألومهنّ أبدًا، لا ألومهنّ حقًّا أيتها الزهرة المليئة بالعسل. شعرت للحظة بالغيرة، تخيّلتُ ما قد يحدث لو خانني جوس. ثمّ تذكّرت، فشعرت بالأمان. لا نزال نمتلك حبنا كاملًا، بالإضافة إلى سرّنا. ابتسمت له وهو يرقص مع إيلين موراي، رفعت له حاجبي ورميت له قبلة من فوق كتفي بيل برادي الضخمتيْن. «عندما أرتشف شفتيك اللذيذتين، اللتين يقطر منهما العسل، أنت حلواي اللذيذة حقًّا، أيّتها الزهرة المليئة بالعسل».

اتّجهت إلى جوس جاهزة لمراقصته مجدّدًا. قال لي: «سأدعو والدتك للرقص لأكسر الجليد معها». حدّقت به لثانية. عليَّ أن أكتم ضحكاتي. تبدو رقصة أمّي مع جوس مشهدًا رائعًا. ماذا لو كانت تعرف؟! بدأت فرقة «مودي مين» أداء الأغاني الأمريكيّة الوافدة إلينا حديثًا كقطارات جديدة تنفث بخارها في المحطّة. «اولد ماسون ديكسي لاين»، هذا يخالف بالطبع فكرة والدتي عن موسيقى حفلات الزفاف. وقفت أمّي تستمع مصدومة. زلزل روبرت براون عواطفي وخطف أنفاسي، وانطلقت إلى حمّام السيدات.

هل أبدو كعروس؟ هل أبدو متزوّجة للتوّ؟ تأمّلت نفسي في المرآة في حمّام السيّدات لبرهة. شعرت بأنّني مشهورة. أحسست حقًّا بالشهرة لأنّني عروس. تورّد خدّاي بفضل الزواج. تحسّستُ شفتيّ، وأصلحت تسريحة شعري. ما هي الإشارات التي تنمّ عن ذلك؟ تبدو عيناي كعيني عروس جديدة. قلبي يخفق بسرعة كبيرة، يمكنني أن أشعر بدقّات قلبي تحت ثوبي. أشعر بحماسة بالغة وبسعادة لا تقاوم. لا يمكنني أن أتناول أيّ طبق من الطعام.

خرجت من حمّام السيّدات واصطدمت بجوس في طريقه إلى حمّام الرجال. قبّلته. كان قلقًا قليلًا. قلت: «هل هناك أيّ مشكلة؟». قال: «لا مشكلة، ولكنّ الرقص مع والدتك أشبه بكابوس. كانت تمسك ذراعي بقوّة خلال الرقص على أغنية (أرجوك، لا تتكلّم عنّي عندما أذهب)، مع أنّها لم تقترب منّي أبدًا».

لقد فعلناها حقًّا أنا وجوس، تزوّجنا. كان هناك القليل من الضيوف في مكتب السجلّات عند الظهيرة: إخوتي وأمّي وجوني وبريت وراجنيل من الفرقة وإيلين، هؤلاء فحسب. والآن جاءت الخاتمة الكبرى. ربّما أنفقت والدتي كلّ مدّخراتها على هذه المناسبة. قلت وجوس إنّ علينا تعويضها عن ذلك، لكنّها لم تكترث لهذا الاقتراح. وقالت: «لن تتزوّج ابنتي الوحيدة كلّ يوم».

جاء الجميع لتهنئتي. بعض أصدقائي القدامى من المدرسة أتوا من إنكلترا. وأتت صديقاتي اللائي لم يقابلهنّ جوس بعد، قالت إحداهنّ: «أين وجدتِه؟ يا له من صيد ثمين». وقالت أخرى: «سأراقبه، لطالما

كان الرجال الوسيمون لعوبين». ضحكتُ وقلت: «أنت فقط تشعرين بالغيرة يا أجاتا». ضحكت ثانية من كلّ قلبي، يا له من صيد ثمين!

خرجنا على الساعة الثالثة صباحًا من الحفلة وقدنا السيّارة إلى شقّتي. لا نملك مالًا يكفي لقضاء شهر عسل. ولا يمكننا شراء منزل. أعطتنا والدتي سريرها المزدوج القديم، قالت إنّه قد حان الوقت لتحظى بسرير صغير. انتقلت هيلين شريكتي في السكن. ينبغي أن يحظى شركاء السكن دائمًا بعمر افتراضي. كنّا نضحك ثملين. بدأ يخلع عنّي ثوبي الأخضر، ودلفنا إلى السرير لنغرق في بحر من القُبل. ولجنا عالمًا آخر، فصرنا غريقين. نستفيق فجأة لنلتقط أنفاسنا، ثمّ نعود لنغرق مجدّدًا.

عانينا في الصباح التالي من آثار الكحول، إلى درجة أنّني لم أتمكّن من تحضير الإفطار الذي فكّرت في إعداده. اللحم المملّح والنقانق والبيض كانت ستنهك معدتينا. نهضت وأعددت القهوة والخبز المحمّص الجافّ. أحمد الله على أنّنا أخذنا على الأقل إجازة لعدّة أيّام. أخذت الأطباق والأكواب في صينيّة، فتنهّد جوس قائلًا: «صباح الخير سيّدة مودي»، أجبته: «صباح الخير سيّد مودي». ودلفت إلى السرير إلى جانبه. وضع ذراعه حولي وجذبني إليه، وقال لي: «عزيزتي ميلي، عزيزتي ميلي»، قبّلني وأضاف: «لا أصدّق أبدًا أنّني قد فزت بك، قولي لي هل أنا في حلم؟ هل هذه حقيقة؟! اقرصيني». قرصته بالفعل، فقال: «ليس بهذه القوّة».

إنّني متعبة هذه الليلة لكثرة ما مشيت، متعبة من الهواء البحري

المنعش والمفعم بالنشاط، ومن رؤية السيدة دالساسو، ومن سماع صوت كولمان على المجيب الآلي. صعدت السلالم الضيّقة التي تصدر صريرًا عند الزاوية في أعلى غرفة نومنا الصغيرة. حملت معي فقط رواية «آنا كارنينا» من رفّ الكتب في الصالة. استيقظت في الليلة الماضية وبحثت عن جوس. أما الليلة فسأضع الوسادة الاحتياطيّة من جهة مكان نوم جوس، وهكذا لن أضطرّ إلى النهوض بسبب تلك المساحة الفارغة التي تصيبني بالدوار. اضطربت ساقاي وكأنّني أطير في الهواء، محاولةً إيجاد درجات السلم. استوقفتني الجملة الأولى في الكتاب: «جميع العائلات السعيدة تتشابه في سعادتها، لكن لكلّ عائلة تعيسة أسباب مختلفة تخصّ تعاستها». سقطت بطاقة بريديّة من الكتاب. بطاقة لا تحمل أيّ تاريخ. وظهر أمامي خطّ جوس الرقيق. تبدو كما لو أنّه كتبها لي اليوم لأنّني وجدتها للتوّ. إنّها آخر تواصل له معي. «ربّما تقضّين وقتًا ممتعًا الآن، هذا مريع حقًّا. الإطلالات هائلة، افتقدك بجنون. أتمنّى لو تطيرين في الهواء وتأتين فورًا لترينني الآن، سأخبرك بشيء أو شيئين. وستصبحين لي». قلبت البطاقة على الجانب الآخر، فرأيت صورة جسر البوابة الذهبيّة، فابتسمت رغمًا عنّي.

يمكنني سماع صوت جوس يقول: «أرجوك يا ميلي، لا تحزني عليّ، احتفي بي. قولي ظلّ متواضعًا حتى النهاية. أقيمي حفلة مثيرة». حفلة مثيرة! يا لهذه الكلمة التي اعتدنا استخدامها لتسمية كلّ حفلة منذ أن أطلق عليها أنغوس هذا الاسم في يوم مّا. حفلة مثيرة، قد يكون هذا ما ينبغي لي فعله. عليَّ العودة إلى لندن ومواجهتهم جميعًا وإقامة حفلة لإحياء ذكرى جوس، ودعوة جميع أصدقائه للعزف،

ودعوة كولمان لحضور الحفلة، ودعوة فرقة سلتية أيضًا. لم تكن جنازة جوس جيّدة. ربّما أتمكّن هكذا من فعل شيء مّا، ولكن ليس الآن. لا يمكنني مواجهة النّاس الآن. لا يمكنني مواجهة تلك النظرات على وجوههم.

أخذت في قراءة رواية «آنا كارنينا»، حتى شعرت بسقوط الكتاب من يديّ. استخدمت البطاقة البريديّة كإشارة في الكتاب، ثمّ ذهبت إلى مكان أعلم أنّني سأجد فيه جوس. عندما فتحت باب بيتي عرفت أنّنا قد تعرّضنا للسطو. يمكنني أن أشعر بوجود خطر، هناك شيء مريب. نافذة المطبخ مفتوحة تمامًا، وهناك أصص ورد ملقاة على الأرض. جوس ليس هناك. بحثت عن ورقة أو ملاحظة، لا شيء. كانت جميع أدراجنا فاغرة فاها تتقيّأ الملابس. سحبت الملاءات عن سريرنا. شخص مّا كتب شيئًا مريعًا على المرآة، لكنّني لم أتمكّن من قراءته لأنّه مكتوب بحروف معكوسة. لم يكن ترومبيته موجودًا. بحثت هائجة في كلّ مكان، لكنّني لم أجد له أثرًا. كان هذا كلّ ما يهمّني. اختفى المبلغ الصغير الذي وفّرناه لزواجنا من تحت السرير. أين جوس؟ هل اختطف؟

جاءتني فتاة سمراء من النافذة. أخذتني من يدي، ونزلنا السلالم عبر شارع روز ستريت حتّى وصلنا إلى شارع رينفيلد ستريت وعبرنا الناصية وصولا إلى المنزل رقم 14 في شارع إبيركرومبلي بليس. توقفتْ الفتاة، ثمّ لوّحَتْ لي مودّعة. دخلتُ إلى بيت غرباء، وكان جوس جالسًا هناك أمام المرآة يعزف على الترومبيت في غرفة نوم شخص لا

أعرفه. كان الضوء في الغرفة جميلًا وقدسيًّا. اقتحم آخر شعاع ضوء الغرفة فجأة. بدا جوس بمثابة إله يعزف على الترومبيت. توهّج وجهه، وجعلته الموسيقى يتورّد. كان يعزف أغنية ميلي، وترومبيته يغرغر ويئنّ. اشتعلت الموسيقى واشتعل جوس وتوهّج. تصبّب وجهه عرقًا. أصبحنا فجأة في بلد آخر. تُغطّي النافذة شبكة تحمي من البعوض، وهناك طاولة عليها عصير بارد. كانت ضجّة الحيوانات والحشرات تصدر عن الأجمة في الخارج. استدار جوس صوبي ليظهر لي نصف وجهه.

اندفعت مذعورة واقفة على سريري. تجرّعت كوب ماء كان بجانب السرير. اختفى الآن، لقد فقدته. فقدته مرّتين. سأخرج الليلة مجدّدًا لشراء المزيد من الأغراض. عليَّ إيجاد القوّة في نفسي للاستمرار بطريقة أو بأخرى، للاستمرار فقط. هذا كلّ ما يلزمني القيام به. أنظّف الأطباق وأتناول الطعام وأنام. ذهبت إلى الطابق السفلي وشغّلت «أغنية ميلي»، ثمّ أغنية «فانتازي أفريكا». كانت هذه الأغنية إحدى أوائل أغاني جوس الناجحة. في حقيقة الأمر لم نفكّر أبدًا في الذهاب إلى إفريقيا. بنى جوس مثل هذه الصورة المتخليّة للمشاهد الطبيعيّة بداخله، إلى درجة قوله إنّها ستؤثّر في موسيقاه لتصل إلى إفريقيا الحقيقيّة. كان يقول إنّ لكلّ شخص أسود إفريقيا مُتَخَيَّلَة في ذهنه. البريطانيّون السود والأمريكيّون السود والسود في جزر الكاريبي، جميع هؤلاء يمتلكون إفريقيا خياليّة. تمكث في رؤوسهم إفريقيا خياليّة.

سافرنا في الحقيقة إلى الكثير من المناطق الأخرى: روسيا والبلدان الإسكندنافية وأستراليا ونيوزلندا وهونغ كونغ واليابان وجزر الكاريبي والولايات المتّحدة وتشيلي والبيرو وكوبا والأرجنتين وباريس وألمانيا وإيطاليا وهولندا. كان ترومبيت جوس أشبه بقبّعة الساحر. فبمجرّد أن نعود أدراجنا من أحد هذه الأماكن يبدأ جوس بالتقاط الجوّ العام لذلك المكان ويدمجه في موسيقاه. لم يبزغ الفجر بعد. يمكنني رؤية تباشير الفجر تبدّد الظلام، ولكنّ الشمس لا تزال غائبة. حضّرت بعض الخبز المحمّص وعدتُ إلى السرير. دلفتُ إلى السرير وأردت تناول الخبز. كان في يدي طبق من الزبدة. عدت إلى الطابق السفلي مجدّدًا وبحثت عن الخبز. وجدته أخيرًا فوق الثلاجة. لا بدّ من أنني قد نسيته، لا شك في ذلك. لقد فقدت الانتباه والتركيز. وفي طريق العودة إلى الطابق العلوي أحمل الخبز المدهون بالزبدة شعرت بأنّ السلالم تبتعد خطوة إلى الوراء عن قدميّ. تحرّكت السجادة من تحت قدميّ. شعرت بأنّني كنت أتداعى للسقوط، ثم أعود لأتداعى مرّة أخرى وأعود مجدّدًا. فقدت إحساسي بالجاذبيّة منذ وفاة جوس. عدت إلى سريري واستلقيت على ظهري. استلقيت على ظهري لعدّة لحظات أحدّق في السقف الأبيض المتفسّخ. هناك بعض النتوءات الغريبة التي لم ألاحظها سابقًا. حاولت التركيز على واحدة منها. بدت لي أكثر ثقلًا، وكأنّ السقف سيتداعى اليوم للسقوط في أيّ لحظة. قلت لنفسي إنّني صرت أكثر سخافة، ومع ذلك نهضت مجدّدًا ونزلت إلى الطابق السفلي سائرة بالقرب من الجدار.

السماء تمطر في الخارج. مطر أفقي ينحرف عبر السماء ليضرب

الملاءات. لا يمكنني الخروج في هذا الطقس بالفعل. أمسكت أسطوانة «فانتازي أفريكا» ونظرت إلى صورة جوس على الجانب الخلفي. نقلت بعض الصحف عن بيغ ريد ماكول، عازف الدرامز مع جوس لمدة عشرة أعوام، قوله إنّ بعض المستمعين سيطلقون النكات حول وجه مودي الطفولي وصوته العالي في الغناء. أنكر بيغ ريد كلّ ذلك إنكارًا تامًا. وقال محذّرا: «أنا على استعداد لضرب أيّ شخص يقول ذلك. لم أشتبه بوجود شيء كهذا». نظرتُ إلى الصورة على غلاف الألبوم، ولكنّني رغم ما بذلت من جهد لن أتمكّن من رؤيته كأيّ شخص آخر غير جوس، حبيبي وزوجي. لطالما اعتقدت ذلك منذ أن أخبرني لأوّل مرّة. لا يمكنني أن أتذكر ما الذي فكّرت فيه عندما أخبرني للمرّة الأولى. شعرت بأنّني غبيّة، ثم انتابني بعدها شعور بالغضب. أتذكّر تمامًا تلك الصدمة المريعة، وكيف كنت عاجزة عن التصديق. أتذكّر جيّدا ملامح وجهه آنذاك، ذلك الخوف الرهيب من أنّني سأتوقّف فجأة عن حبّه. لا أزال أذكر كيف غطّيت فمه بيدي، ثمّ قبّلته. لكنّني لم أظن أبدًا أنّه كان مخطئًا. لا أعتقد ذلك أبدًا.

قبّلت صورته على الغلاف. يبدو راقيًا دمثًا وأنيقًا. «ما رأيك بالغلاف يا ميلي؟ هل يبدو برأيك جيّدًا. هل أبدو جيّدًا؟» لم يكن يصدّق مدى الحظ الذي واتاه. لديه زوجة وألبوم. لم يتمكّن من أن يتمالك نفسه من الحماس أمام هذا النجاح. لم يكن قد وصل بعد إلى ذلك الرقيّ المضجر الذي سيغدو عليه في السنوات اللاحقة. قال لي إنّ نجاحه بأكمله يعود إليّ، وإنّ لي اليد العليا في تشكيله، وإنّني مسؤولة عن نجاحه.

غنّى في أذني أغنية بيرل بيلي، وغيّر الاسم الوارد في الأغنية إلى اسمي. كان على ميلي أن تذهب وتضيع في الآستور، ولا ينبغي لها الاستماع لنصيحة أمّها. رقصنا في جميع أرجاء الغرفة، قبّلني جوس وهو يغنّي في الآن ذاته. عليها أن تذهب وتضيع في الآستور. في الليلة الماضية في الآستور، مارسنا الحبّ على أرضيّة الغرفة. أمسكني من شعري وقبّل وجهي بنهمٍ. التصق بي وهمس بأشياء في أذني. كنت مأخوذة للغاية.

عندما يموت حبيبك تنتهي حياتك. لا تقتصر المشكلة على أن يموت جزء منك فقط، وهذا ما يحصل بالفعل، بل تمتدّ إلى الجزء الباقي منك على قيد الحياة. أجلس هنا في غرفة نومنا الصغيرة في «تور» قبالة أريكته، وفي الحقيقة كلّ ما يؤلمني أنّني لا أزال على قيد الحياة. لولا كولمان لما كنت جالسة هنا، متألّمة بشدّة من أنّني على قيد الحياة. كلّ حركة وكلّ فعل أقوم به مهما كان صغيرًا يمنحني شعورًا غريبًا. تحريك كوب الشاي، فتح الستائر، توضيب السرير... لا يمكنني الجلوس بسلام وحسب. أصعد السلالم وأنزلها كاليويو. لم أعد قادرة على أن أعيش كما كنت سابقًا. لا أعرف حتّى ما إذا كنت حقيقيّة. أنظر إلى أفعالي كما لو أنّني أنظر إلى أفعالِ ممثّلةٍ وحركاتها. أما الجزء الأصيل الحقيقي الوحيد الذي أشعر به فهو الماضي وحسب.

في أحد الأيّام، مع بدايات زواجي، خرجت أتمشّى، ورأيت طفلا رائعا. ابتسم لي، فسألت والدته عن سنّه. بقيت صورة ابتسامة هذا الطفل في ذهني طيلة طريق عودتي إلى المنزل عبر شارع روز ستريت.

حلمت في تلك الليلة بأنّني حامل وبأنّني أنظر إلى نفسي في المرآة، أدور من جانب إلى آخر، معجبة ببطني المنتفخ، وصدري المتثاقل، وحلمتيّ الداكنتين كالفاكهة الناضجة. كان جوس مستلقيًا بجانبي يغطّ في النوم ويده تلفّني. أبعدت يده عنّي، وانتابني شعور بالغضب منه. لماذا لا يستطيع منحني طفلًا؟! يمكنه القيام بكلّ شيء سوى ذلك. يمكنه السير كرجل. يمكنه النفخ في ترومبيته كرجل، يمكنه التكلّم كرجل وأن يرتدي ملابسه كرجل، لماذا لا يستطيع أن يجعل منّي امرأة حاملًا. طاردني دفتر المذكّرات القديم منذ أيّام المدرسة. كتبت صديقتي مارجريت باكستر شذرة طريفة: «يأتي الحبّ أولًا، ثمّ الزواج، ويليه مشهد ميلي وهي تدفع عربة الأطفال». يا للكآبة، أعلم ذلك، ولكنّني هنا أقولها في ذهني وأغصّ بالبكاء. هل سيأتي عليَّ يوم وأدفع فيه عربة أطفال؟

مضت أسابيع وأنا غارقة بهوسي في الأطفال. تدفعني أيّ نظرة منهم إلى البكاء. أشعر بالغيرة من الأمّهات، بل بالحقد. سحب جوس الملاءة عن عيني. سألني بإلحاح لماذا لم أعد أهتم بممارسة الحبّ. أريد ممارسة الحبّ إذا كان قادرًا على جعلي حاملًا فقط. كنّا في السرير ليلتها وقد كان جوس ثملًا بعد إحدى الحفلات. بدأ بالاقتراب منّي، لكنّني دفعته. لم يتوقّف، لذلك دفعته مرّة أخرى. ثمّ قلت له: «أريد طفلًا». ساد الصمت في الغرفة. أصبح بإمكاني سماع الهواء في الخارج يُنصتُ إلى حديثنا. لم ينبس جوس بكلمة. بدوتُ كما لو أنّني صفعته، كأنّني ضربته تحت الحزام. قلت له إنّه قد خدعني وجعلني أقع في هواه، حتّى إنّه لم يكن أمامي خيار آخر سوى الزواج منه. كرّر مرارًا: «هذا ليس

عدلًا، لا تكوني هكذا ميلي». لو استطاع لقال لي إنّه يريد أن يهبني طفلًا. لو كان بإمكانه لأحبّ أن يراقب الطفل ينمو في أحشائي. لو كان بإمكانه لأحبّ أن يخلد إلى السرير في الليل وأن يمسّد بطني المنتفخ وأن يستمع إلى خفقات قلب الطفل. لو كان بإمكانه لأصبح والدًا جيّدًا. لا بدّ من أن يكون الطفل الذي قد نحظى به جميلًا. بكيت وبكى هو أيضًا. وتحطّم كلّ شيء. فالمعجزات مستحيلة. قال لي: «ألم تقولي يومًا إنّني قادر على اجتراح معجزة لعينة؟ أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ أليس كذلك؟». استطعت لحظتها الشعور بغضبه ينفجر فجأة من دموعه. تقلّص حبّه لي إلى ضفائر من الخشب على الأرضيّة، إلى نشارة خشب. كان قلبه مصنوعًا من الخشب. قال لي ببرود: «إذا كنت مصرّة إلى هذه الدرجة على الطفل، فمن الأفضل أن تتركيني وشأني مادمت صغيرة في السنّ». جاء دوري؛ سحبتُ رأسه باتجاهي، قبّلتُ وجهه، وضعت رأسه على صدري، ومسّدت ظهره بيدي. ارتجف كحيوان جريح. أصغينا إلى أصوات الليل معًا، إلى هدير سيّارة مبتعدة، إلى شخص مّا يصفّر في الظلام. ثمّ خلدنا إلى النوم متعانقين بقوّة.

عندما استيقظنا، بدونا كأنّنا قد استيقظنا في زمن آخر. كان كلّ شيء مختلفًا في ما بيننا. تمنّيت لو لم أقل شيئًا. فذلك الطفل الخيالي عالق برأسينا الآن، يثير المشاكل ونوبات الغضب. نظر جوس إليَّ نظرة باردة اخترقتني. قمّة الألم أن ترى نظرات باردة على وجه من تحبّ. شعرت كما لو أنّني في كابوس. لم يسبق أن تخاصمنا. ظننتُ أننا قد تخطّينا ذلك البارحة، لكنّه استيقظ اليوم غاضبًا. قلت له بهدوء: «جوس، جوس». ردّ بفظاظة: «ماذا تريدين؟» أمكنني حينها رؤية غضبه المستعر وراء

كلّ هذا البرود، فقد غالبه السخط. استجمعت شجاعتي لأسأله: «أمازلت غاضبًا منّي؟». «ما رأيك؟»، أجابني وهو يرتدي ملابسه بعنف ويرفع بنطلونه ويضع حزامه ويشدّه بقوّة. «إلى أين أنت ذاهب يا جوس؟». ردّ: «أنا خارج». حاولت إيقافه، قلت له إنّني آسفة، لكنّه لم يقتنع. جرحت كبرياءه، أعتقد أنّني قد جرحت رجولته.

عليَّ أن أتخلّص من صورتي عن الطفل الصغير في عربة الأطفال سيلفر كروس الذي يرتدي سترة فرو، وينام بسكينة تحت الملاءة البيضاء، ناسيًا العالم بأكمله، كأنّه في حلم. وعليَّ التخلّص من صورة الطفلة الخياليّة. أشعر بأنّ طريق المستقبل مسدود في وجهي. إذا لم أستطع أن أحظى بطفل، فلن أحظى بأيّ مستقبل. سأعلق في حاضري ولن أرى المستقبل. جوس غير قادر على استيعاب ما أقول. إنّه لا يريد طفلًا، إنّه يريدني. هذا كلّ ما يفكّر فيه.

عاد جوس في المساء متأخرًا، وأعلن ما لم أكن أتوقّعه قائلًا إنّه إذا كان إحساسي بأنّني أريد طفلًا يجعلني أشعر بالحزن إلى هذه الدرجة، فيمكنني أن أحظى بطفل. قالها ببساطة، كأنّ الحصول على طفل أشبه بالذهاب إلى أيّ متجر وشراء طفل، كأنّه يتحدّث عن جرو. سألته: «وكيف يمكنني الحصول على طفل؟». قال: «يمكنك مضاجعة أيّ شخص آخر، لن يكون الأمر بهذه الصعوبة. اذهبي في عطلة ونامي مع أحدهم. ما رأيك ببريت؟ لا شكّ في أنّه معجب بك على أيّ حال. لا داعيَ لإطلاعه بأيّ شيء. يمكن أن توهميه بأنّك تخونينني». قلت مصدومة: «لا يمكنني القيام بشيء كهذا، ما الذي تقترحه عليّ؟ لا

يمكنني النوم مع شخص سواك». ظهرت عندها ابتسامة عريضة على وجه جوس، وقال: «يمكننا إذن أن نتبنّى أيّ طفل».

أجبته: «ولكنّنا لا نعرف ما قد نواجه في هذه الحالة». أجابني: «لا تكوني حمقاء، لن نعرف أيّ شيء عنه في جميع الأحوال». سألته: «ماذا سنقول عن السبب الذي دعانا إلى التبنّي؟» فردّ جوس: «سنقول إنّك أجريت عمليّة لاستئصال الرحم». قلت: «لا، سنقول إنّ عدد الحيوانات المنويّة عندك منخفض». بدت تلك النظرة على وجهه رائعة. انفجرت بالضحك، حتّى آلمتني معدتي.

قالت إحدى قصاصات الجرائد شيئًا مثل: «لا بدّ أنّ ميلي مودي كانت تشعر بالوحدة والرعب، وبأنّها مهدّدة في مستقبلها». ولكن لم ينتبني هذا الشعور أبدًا. لم أكن أشعر بالوحدة، ونادرًا ما شعرت آنذاك بالرعب. لم أشعر بهذا إلّا اليوم. قالت لي السكرتيرة قبل يوم من قدومي إلى هنا: «ستتخطّين كلّ هذا». وبدا من نظرة عينيها تلك أنّها لا تصدّق ما تقول. اشتقت لجوس، عمّقت كلّ هذه الضجّة مرارة الفقد. صرت الوحيدة التي تتذكّره كما كان يريد لذكراه أن تكون.

عندما نزلت السلالم هذا الصباح، كانت الرسالة هناك بانتظاري. كان وجود رسالة ملقاة بهذه الطريقة في انتظاري أمرًا غير بريء مطلقا. هل الرسالة مذنبة أم أنا بدأت أصاب بالجنون؟ إنّني أثق في غريزتي، ولطالما وثقت في حدسي. انتابني شعور سيّئ بمجرّد أن رأيت تلك الرسالة ملقاة هناك، وكنت على حقّ. كان يجب أن أحرقها، وألا أتكبّد مشقّة فتحها. تحمِلُ عنواني، ولم يتمّ إرسالها بالبريد، وهذا ليس

خطّ كولمان. هناك شخص آخر يعلم أنّني هنا. من يعرف أنّني هنا سوى كولمان؟ وضعتها على رفّ الموقد لأزيد من الإثارة.

كانت هناك بجانب الساعة. حاولت الانتهاء من وجبة الفطور. وشرعت بإشعال النار. أخذت المادّة الحارقة ومزّقت الجريدة. لففتها ثمّ طويتها. سحبت عود ثقاب من علبة الكبريت الكبيرة وأشعلت النار. ثمّ انحنيت وأحرقت الرسالة ممسكة طرفها بيدي. شاهدت أطراف الورقة تتجعّد وتتقلّص وتتفحّم حول الحواف أولًا، حتى تتهاوى كلّ البقايا في الموقد. تحوّلت الآن إلى رماد. إنّها كاذبة، صوفي ستونز كاذبة. لا أشكّ في ذلك أبدًا، وكأنّ كلّ ما ينقصني في هذه اللحظة وجود هذه الكاذبة المقرفة في حياتي. لا يمكن لكولمان أن يتحدّث مع شخص مثلها، ناهيك عن «التعاون» معها. لو تحدّثت مع كولمان حقًّا لعرفت على الأقل كيف تهجّي اسمه. كتبت صوفي: «تحدّثت اليوم مع كوليمان حول جوس مودي. أريد أيضًا أن أتحدّث معك حولها». يا لِلخبث! كيف تحاول أن تقلب ولدي ضدّي؟ بل ولديها الجرأة والوقاحة الكافية لتعرض عليَّ المال «لأتعاون» معها. لا ينبغي أن أفكّر في كلّ هذا. لا بدّ من أن أطرد هذه الرسالة من تفكيري، ولكنّ العبارات الواردة في الرسالة لا تزال تومض في رأسي. «لا أحاول أن أبدو مضحكة ولكن... علينا أن نرى الوجهين في كلّ شيء».

telegram @
yasmeenbook

الآخرون: الطبيبة

وصلت الطبيبة كريشنا مورتي إلى منزل جوس مودي في الساعة الثالثة صباحًا. كان يوم عطلتها. اشتمّت رائحة الموت التي لا يمكن أن تُخطئها بمجرّد دخولها المنزل. يمكنها من خلال هذه الرائحة أن تقدّر أنّ الرجل قد مات منذ فترة طويلة. لا تفضّل الطبيبة حالات الموت في البيت. كانت هذه المرّة الوحيدة التي تمنّت فيها لو أنّها كانت طبيبة في المستشفى، وكان بإمكانها الاختباء في الملابس المعقّمة الخاصّة بحالات الوفاة في المستشفى.

سألت الطبيبة الزوجة إن كانت تعرف التوقيت الدقيق الذي لفظ فيه زوجها آخر أنفاسه. كانت السيّدة مودي على علم بالتوقيت. قالت إنّ المرّة الأولى التي نظرت فيها حقًّا إلى الساعة، في تلك اللحظات التي بدت دهرًا بأكمله، كانت الساعة 1:12 صباحًا. اتّصلت بعد مرور بعض الوقت على جلوسها معه بمفردهما. أدركت حينها أنّ تلك اللحظات هي لحظات السلام الأخيرة التي يمكن أن تحظى بها معه. حاولت السيّدة مودي أن تتكيّف منذ فترة طويلة مع

ما حصل، وهكذا لم تتمكّن من التوقّف عن المحاولة. كانت أشبه بشخص غير قادر على البكاء لبعض الوقت، شخص قادر على تجهيز الجنازة بكفاءة ليذهب بعدها ويذرف الدموع في ركن مّا لستة أشهر. ربّتت الدكتورة كريشنا مورتي على ذراع السيّدة مودي، وقالت: «لا بدَّ من أنّك منهكة. هل تريدين أن أصف لك حبوبًا منوّمة؟» لم تطلب السيّدة مودي ذلك، بل أرادت فقط أن تتفهّمها الطبيبة وتغادر منزلها. فضّلت أن تبقى بمفردها.

صعدت الدكتورة كريشنا مورتي السلالم وبقيت في الغرفة وحدها مع السيّد مودي. هناك حالة غريبة تتعلّق بغرفة عاديّة تحتضن شخصًا ميتًا. نوع جديد من الصمت، من السكون. لم تكن مجرّد غرفة تحتوي جثّة. يطلق النّاس عليها اسم «جثة»، ولكنّها بالنسبة إلى الدكتورة كريشنا مورتي لم تكن مجرّد جثّة، خاصّة أنّها قد رأتها بعد فترة وجيزة من الموت. إنّها عبارة عن رجل، عن إنسان، بل وعبارة عن روح أصلا. ربّما هذا ما كانت تشعر به داخل الغرفة، شعور عميق بمغادرة الروح حقًّا لهذا الجسد. قد يكون لذلك علاقة بوجودها مع ميت. لا يتعلّق الموضوع بالفراغ أو اللاشيء، لا بدّ من وجود شيء مّا.

أخرجت الدكتورة كريشنا مورتي شهادتها الطبيّة وأخذت تملؤها بالتشخيص الأوّلي، قبل أن تقوم بالفحص. توقيت الوفاة: 1.12 التاريخ: 21 يوليو 1997. الجنس: ذكر. ثمّ فحصت النبض الذي كان متوقّفا تمامًا، واستمعت إلى دقّات القلب الذي كان صامتاً. خلعت عنه لباسه لتفحّص الجثّة. لاحظت ضمّادات كثيرة تغطّي صدر

المتوفّى، فاضطرّت إلى فكّها. كانت الضمّادات لزجة وتفوح منها رائحة العرق. بدا فكّها في غاية الصعوبة. شعرت الطبيبة كريشنا مورتي كما لو أنّها تقشّر جلد الميت، كانت كلّ ضمّادة تفكّها أشبه تماماً بطبقة من الجلد. أدركت الطبيبة شيئًا فشيئًا نوع الإصابة التي قد تخفيها تلك الضمّادات.

عندما رأت الثديين -اللذين فكّرت فيهما لاحقًا وهي تقود سيّارتها عائدة إلى المنزل، واستغربت كم كان منظرهما غريبًا، وكم يبدوان سالمين!- ظنّت في البداية أنّهما لم يكونا ثديين حقيقيّين على الإطلاق. ليسا على الأقلّ ثديي امرأة. ظنّت أنّ السيّد مودي من بين أولئك الرجال الذين يمتلكون الكثير من الشحم والدهون على صدورهم ليبدوا وكأنّ لديهم أثداء ذكوريّة. ولكنّ هذين الثديين كانا حقًّا كبيرين. كان لونهما مختلفًا، حتّى عن بقيّة الجسد. صُدمت الطبيبة أيضًا من أنّ الثديين يبدوان فتيّين مقارنة ببقيّة الجسم. لا يبدو عليهما التقدّم في السنّ. توجّب عليها أن تسحب البيجاما إلى الأسفل أكثر فأكثر لتتأكّد. فكّرت الدكتورة كريشنا مورتي في المرأة التي تنتظرها عند السلالم.

التقطت قلمها الأحمر من حقيبتها الطبيّة، وهو قلم تعتبره قلم الطوارئ. مسحت كلمة «ذكر» وكتبت «أنثى» بخطّ الأطبّاء المعروف. نظرت إلى كلمة «أنثى» وفكّرت في أنّها ربّما لم تكن واضحة بما يكفي. مسحت الكلمة التي كتبتها مستنكرة، واستبدلتها بنفس الكلمة، لكنّها خطّتها هذه المرّة بحروف كبيرة ككتابة الأطفال. ثمّ

وضعت تقريرها الطبيّ في ظرف. ينتابها الشكّ إذا ما كان هذا التقرير سيفيد أمين السجلّ بشيء. أغلقت المظروف تمامًا وأغلقت الباب على المرأة الميتة. وكان آخر ما رأته قبل إغلاق الباب تمامًا تلك الضمّادات اللولبيّة على السرير وكأنّها أفعى.

سلّمت الطبيبة تقريرها الطبيّ الذي يصرّح بموت الرجل في مظروف إلى الزوجة. نظرت مليًّا إلى السيّدة مودي، ولكنّها لم تجد ما يدلّ على أمرٍ مريب. قرّرت ألّا تقول شيئا سوى: «تحتاجين إلى أخذ هذا الظرف معك إلى السلطات عندما تذهبين إلى تسجيل حادثة الوفاة». أومأت السيّدة مودي موافقة، وقالت بأدب جمّ: «شكرًا لك دكتورة». ثمّ غادرت الطبيبة، انطلقت بسيّارتها البيضاء بسرعة كبيرة، فيما بزغت التباشير الباهتة لفجرٍ يفتقد إلى الحيويّة.

قصّة الغلاف

لم يضربني في حياته، لم يرفع يده أو قبضته أو حزامه أو إبزيم الحزام أو حتّى حذاءه في وجهي، رغم ما قلت له لأكثر من مرّة. نادرًا ما رفع صوته، لم يكن أصلا بحاجة إلى رفعه. كان يقوم بإمساك يدي في الشارع. يحبّ ذلك. يمسك بيدي في الشارع أمام النّاس ليروا والدًا وابنه يذرعان الطرقات جيئة وذهابًا. كان النّاس الذين لا يعرفون أنّني ابنه بالتبنّي يقولون أشياء مثل: «إنّك على صورة والدك تمامًا».

كلّ ما أردته عندما كنت طفلاً أن أبدو مثل والدي بالضبط. يمكنك كتابة أشياء كثيرة بعد اسمه. مودي الوسيم، الموهوب، الجذّاب. عندما كنت صغيرًا كان يمكنني الاستلقاء والتشمّس في مجده وعظمته. «ابن جوس مودي»! كان رائعًا أن تكون ابن جوس مودي، ولكن عندما صرتُ كولمان مودي بدأ كلّ شيء بالانحدار. يالها من مهمّة صعبة حين يتوقّع منك الجميع أن تكون شخصًا معيّنًا أسوة بمكانة والدك. لا يُسمح لأبناء المشاهير بعدم امتلاك موهبة مّا أو أن يكونوا مجرّد حمقى عاديّين مثلي. إنّها نظريّة الإرث الجيني.

والواقع أنّني لا أمتلك جيناته التي يمكن أن تنتشلني بموهبة مّا دون أيّ عواقب أو عقوبات، وهو ما لم يحصل. لم أكتشف ذلك أبدًا. أقصد، من أنا؟ كولمان مودي الشابّ الذي حاول أن يكون جليس أطفال في فرنسا وفشل في ذلك. الشابّ الذي درس سنتين فقط في كليّة تمتدّ الدراسة بها إلى أربع سنوات. الفتى الذي كان يمرح في الهند، على امتداد عام كامل، ليأخذ النّاس في جولات على متن قاربه المطاطي. الشابّ الذي فشل من البداية في تحقيق درجات جيّدة. كولمان مودي ابن جوس مودي، عازف الترومبيت الشهير. هل تعرفون من يكون هذا العازف الشهير؟ إنّه ذلك الشخص الذي تظاهر بأنّه رجلٌ ليتبيّن عند موته أنّه امرأة. الرجل الذي خدع ابنه الوحيد. ذلك الولد الذي لا بدّ من أن يكون غبيًّا. كلاهما أحمق، ولكنّ كولمان مودي الشابّ لم يكن بريئًا تمامًا.

لديّ الكثير من القصص، سأخبركم بها دون أدنى مشكلة، سأقول أيّ شيء قد يسلّيكم، ما رأيكم؟ ولكنّ حياتي ليست حافلة بالأحداث. فالفضائح لا تجعل الحياة زاخرة بالأحداث، أليس كذلك؟ أعني أنّ حياتي لم تكن مثيرة إلّا اليوم، بعد موته. تغيّرت اليوم الحياة، تلك الحياة التي اعتقدت أنّني عشتها. في الحقيقة، لم أعد أعرف اليوم ما الذي عشته حقًّا. أصبحت فجأة حياة مختلفة تمامًا. لقد تغيّر الوضع برمّته تغيّرًا جذريًّا. هل تفهمون ما أقصد؟ لم أعد أعيش الحياة نفسها.

عندما أخبر النّاس بأنّني ابن بالتبنّي سيقولون أشياء كثيرة مثل:

ربّما ترعرعت في جانب آخر من العالم، ربّما لوالدين غنيّين، ربّما كانا فقيريْن، مورمونيّين أو شيوعيّين أو فاشيّين أو مصرفيّين أو كاثوليكيّين أو ميثوديّين أو عامليْن في حديقة حيوانات أو قاتليْن مأجوريْن. ربّما ذهبت مباشرة إلى دار أيتام باردة قديمة. نعم يا كول، ربّما كنت أحد الأولاد التابعين لمؤسّسة بارنادو الخيريّة أو واحدًا من أولئك الحمقى المساكين الذين يعتدي عليهم بعض المرضى النفسيّين المسؤولين عنهم. قال أحد أصدقائي: واجه الأمر يا كول، ربّما كان التبنّي خيارًا جيّدًا، إنّك محظوظ لوصولك إلى هنا. أتمنّى أن أقابل واحدًا من أولئك الأشخاص اللعينين، لأسألهم ما رأيهم في كلّ هذا. «أبناء العشّاق أيتام في نهاية الأمر». لا أذكر من قال هذه العبارة، يالها من عبارة، إنّها تختزلني تمامًا.

كنت فتى تقليديًّا في بيت غير تقليدي بالمرّة. دائمًا ما أذهب إلى المنزل مذعورًا ومحرجًا. لم يكن والداي مثل آباء الأطفال الآخرين. كلّما جاءا إلى مدرستي يجذبان جميع الأنظار إليهما. لا أعرف ما الذي كان يحصل. فالحياة المختلفة تجعل النّاس يبدون مختلفين، حتّى بشرتهم تبدو مختلفة. ملابسهم تبدو أكثر لمعانًا. يبدو كأنّهم لا يعملون من الساعة التاسعة حتّى الساعة الخامسة. كان هذا سيئًا للغاية في عالم الجاز بأكمله الذي لا يهتمّ بكلّ هذه الأشياء. لم تكن حياتي تقليديّة البتّة. قضّيت الكثير من طفولتي على الطرقات، في الجولات الفنّية، من مكان لعين إلى آخر.

ربّما كنت أكثر سعادة لو أمضيت حياتي في البيت أشاهد *ستار*

تريك مع طبق من الفوشار، كان هذا كثيرًا عليّ. كان الأطفال الآخرون يحسدونني على كلّ تلك الاحتفالات الضخمة، وكنت أحسدهم بدوري. هذا كلّ ما في الأمر، لطالما نشتهي ما لدى الآخرين. يحظى أبناء العائلات العاديّة بوجبة جماعيّة على مائدة واحدة كلّ ليلة على الساعة الخامسة والنصف. كان صديقي سامي يعلم أنّ يوم الثلاثاء مخصّص لفطيرة السمك، ويوم الأربعاء لشرائح اللحم والكلى. أتمنّى لو كان لديّ هذه الخيارات. عندما أذهب إلى منزل سامي أحبّ كلّ شيء منظم فيه، ولكنّ سامي يكره هذا الروتين. دائمًا ما كنت أقول له يمكننا أن نتبادل الأدوار. بدّلت أمّي التي ولدتني مرّة، إذن لماذا لا أقوم بذلك مجددًا؟ ولكنّ سامي يتردّد بالسؤال. أعتقد أنّني كنت أشعر بمنتهى الملل. لكم تمنّيت لو أنّني خلقت لأحظى كلّ ليلة بحمّام في المنزل نفسه وفي البلدة ذاتها. كانت أمّي في غاية الحزم في ما يتعلّق بواجباتي المدرسيّة. اعتادت أن تأخذ الواجبات معها أينما حللنا. أتذكّر أنّني كنت أتدرّب على القراءة في حانات الجاز القديمة الحقيرة قبل أن يبدأ والدي بالعزف. كان ذلك رائعًا. كنت أجلس إلى طاولة بنيّة وبيدي زجاجة كوكاكولا وكتاب. كانت أمّي ترفض، في أغلب الأحيان، الذهاب مع والدي في الجولات الفنيّة لتدرّسني.

لم يكن والدي عازف جاز عاديًا. كان يريد أن تكون عائلته معه. يا للسخرية! إذا لم نذهب معه فإنّه يعود إلى البيت منهكًا بآثار السكر، تغمر وجهه نظرة مليئة بالذنب. كان يفقد أعصابه أو يغالبه التشاؤم إذا لم نرافقه، ويصير شديد الغضب.

لطالما ظننت أنّه يخون أمّي في تلك المراحل. فجميع الرجال أوغاد، حتّى أنا. وكثيرا ما ظننت أنّه من الرائع أن أكون قادرًا على التفكير بهذه الطريقة، حتّى إنّني سألت أمّي مرّة كيف تشعر حيال ذلك، فقط لأختلق مشكلا وأقلب الأمور رأسًا على عقب. قالت إنّه لا يمكن أن يكون خائنًا، وابتسمت لي ابتسامة تجعل الأجواء رائعة. أتدركون ما أعني؟ عليّ أن أقوم بتمشيط حياتي السابقة بأكملها بمشطٍ ناعم لأبحث عن علامات كهذه. لا بدّ من أن أقوم بذلك. يا إلهي! كم هذا محرج! إنّه أسوأ ما في الأمر. قال لي بريكس: ألم تكن تعلم ذلك حقًّا يا كول؟ أصبح الأوغاد يطرحون عليّ مثل تلك الأسئلة. صرتُ في غاية الإحراج، ويمكنني أن أهاجر في أيّ لحظة. أترك هذا المكان اللعين وأرحل إلى أيّ مكان لعين آخر. هذا ما أردت القيام به عندما وقعت الكارثة، أن أهجر هذا البلد اللعين.

لا يمكنني تفويت جنازته. ومهما حصل، لا بدّ لي من حضورها. فكّرت جيّدًا في ذلك. أبقاني هذا الأمر مستيقظًا تلك الليلة بأكملها حتى صباح يوم الجنازة، ولكنّني كنت في غاية التشاؤم.

لم أحبّ الجاز أبدًا. لم يكن النّاس الذي يأتون إلى منزلنا يتكلّمون سوى عن الجاز. كنت أشعر بالملل الشديد، حتّى يكاد رأسي ينفجر. لو كنت شخصًا مهووسًا بالجاز لمنحني ذلك إحساسًا رائعًا وكأنّني على سطح القمر، ولكنّني لم أكن كذلك. شك في أمري بعض أصدقاء والدي. لا أعلم تحديدا بماذا شكّوا. ربّما اعتبروا أنّني لا أستحقّ أبًا مثله. ربّما ظنّوا أنّني مجرّد طفل نكدٍ، شرسٍ، مشاكسٍ، لا يتمتّع بأيّ شخصيّة.

يعشق هؤلاء الشخصيّات الخاصّة. يحبّون الأشخاص الذين يعبّرون عن أنفسهم بشكل مفرط. لم أكن منفتحًا أبدًا. أحب تلك السمات المظلمة من التّجهّم. لطالما أحببت القفز على سور البيت في حالة من الكآبة المزمنة. أحبُّ أن أعدّ الرؤوس السوداء لحَبّ الشباب في وجهي. لا أهتمّ بها أبدًا. كنت أعيش في عالمي الخاصّ. أتظاهر بأنّني لا أهتمّ أبدًا بما يمكن أن يظنّه والدي بي، ولكنّني أهتمّ في حقيقة الأمر. أعتقد أنّني أردته أن يكون فخورًا بي كرجل، كرجل أسود. كنت أعشقه حقًّا.

دخلت غرفة والديّ، كنت في السادسة من عمري آنذاك. فتحت خزانتهم، وكان والدي يحتفظ بترومبيته هناك. فتحت الصندوق الفضّي، وكان الترومبيت يلتمع بداخله. لمسته، لمسته حقًّا، ثمّ مسّدته كأنّني أرى والدي يمسّده فيصدر صوتًا. أمرّر أصابعي على المفاتيح ثمّ على النسيج، ذلك النسيج البنفسجي في الصندوق. كانت أصابعي تتحرّق شوقًا. أقصّ على الترومبيت قصّة حول ترومبيت سحري مثله. ثمّ وجدتني أمّي. لا يمكنني الكذب، قالت لي: «ما الذي تفعله يا كولمان؟ اترك ترومبيت والدك». أغلقت الغطاء الفضّي، ثم دفعت الصندوق إلى الخزانة. أجبتها: نسي والدي أن يأخذ ترومبيته معه، أتمنّى ألّا يكون هذا نذير شؤم. وتظاهرت بأنّني مهتمّ بكلّ ذلك.

كيف تمكّن والداي من فعل هذا؟ أقصد لا بدّ من الحصول على شهادة زواج وأوراق وغيرها. كيف تمكّنا من ذلك؟ بقيت مستيقظًا لليال طويلة أحاول فهم ما حصل. شيء مّا في داخلي كان يقول لي: استسلم يا كول، دعك من كلّ هذا. ولكن الجزء الآخر كان يثير فيّ

هوسًا شديدًا لفهم كلّ شيء. وكلّما حاولت أن أطرد هذه الهواجس من رأسي كان ينطلق سؤال لعين آخر مثل قنبلة.

كيف حصلا عليّ؟ أقصد أنّه لا يمكن لدار التبنّي أن تقوم بهذا، أليس كذلك؟ أعني أنّ عمليّات التبنّي ذاتها في منتهى الصعوبة. قرأت بعض الثرثرة هنا وهناك حول بعض الأزواج من الرجال الذين أرادوا تبنّي طفل صغير. لِمَ لا؟ هذا حقّهم، أتمنّى لهم حظًا سعيدًا، هذه ليست مشكلتي.

ليس هناك أحد غيري، لا إخوة ولا أخوات. ليس لديهم سواي. حصلا عليّ من الوكالة الإسكتلنديّة للتبنّي في أدنبرة عام 1962. ولدت في عام 1961، ولكن كان عليهم الانتظار لعدّة أشهر.

أخبراني بأنّ الوكالة كانت فرحة للغاية بهما بفضل لوني. وقالا إنّها أطلقت عليهما اسم «لقية»، حسب ما أذكر. لوني يشبه لون والدي إلى درجة تجعلنا نبدو متماثلين، يا لهذه الصدفة! ربّما قمت باستنساخ ابتسامته، حتى بدوت نسخة كربونيّة منه. كان ذلك قبل فترة طويلة من هذه الأشياء العابرة للأعراق. بدت مصادفة على كلّ حال. من المضحك أن يتحوّل الحظّ السيئ إلى حظّ جيّد، ثم يعود ليغدو مجدّدًا حظًّا عاثرًا. هذه هي قصّة حياتي. لطالما كنت وغدًا يشعر بالأسى على نفسه، أصبح لديّ اليوم سبب جيّد لذلك. ربّما تبنّاني ضابط في الجيش أو محاسب مدّعٍ أو رجل أعمال قذر أو أيّ رجل، أيّ رجل عادي كان ليتبنّاني. ظنّت الوكالة، بلا ريب، أنّها أمام خيارات كثيرة سيّئة لو لم يأت جوس وميليسنت مودي.

انتقلنا من جلاسكو إلى لندن عندما كنت في السابعة. تخلّصت من لهجة جلاسكو في كلامي، مع أنّ بعض النّاس ادّعوا أنّهم مازالوا يسمعون في حديثي بقايا هذه اللهجة. تعلّق والدي بلهجته، مصمّمًا على أن يعرف الجميع أنّه إسكتلندي. وعندما عدت إلى جلاسكو بلهجتي الكوكنيّة اللندنيّة كان والدي ينتقدني دائمًا. كان يصرخ عليّ بجديّة «تكلّم جيّدًا». كانت عودتي إلى هنا مع هذه اللهجة أشبه بكابوس مريع. أصبحت أكثر عنادًا ودون توقّف. وبدأت أتحدّث بكلا اللهجتين. كانت لندن مدينة تغلي بالعنصريّة. لا أتذكّر الكثير عن جلاسكو، أتذكّر بيت جدّتي في كيركنتيلوك. لا أزال أذكر جميع الزخارف، ورائحة النعناع في أنفاسها، وسريرها الضخم المرتفع. لديّ جدّة واحدة، والدة أمي. ماتت والدة أبي قبل أن أولد. ذاكرتي سيّئة للغاية. حصلت مرّة على دراجة في عيد ميلادي، كنت بلا شكّ في السادسة من عمري. كانت دراجة خضراء لامعة، ومن ماركة جديدة. ظننت أنّني لن أتعلّم قيادة الدراجة أبدًا، وفي أحد الأيّام تعلّمت القيادة فجأة. هذا كلّ ما في الأمر. لطالما أصرّ والدي على أنّني إسكتلندي. ولدت في إسكتلندا. ولكنني لا أشعر بأنّني إسكتلندي. كما أنّني لا أشعر بأنّني إنجليزي أيضًا. في الحقيقة، لم أكن أشعر بأيّ شيء. كان قلبي مجرّد صخرة لعينة.

دخلت إلى منزلها، وبحثت عن حقيبة الأوراق المهمّة. لم تكن أمّي هناك حينها، بل ذهبت إلى «تور»، ولديّ المفاتيح. لطالما أعطياني مفاتيح منزلها. دخلت إلى المنزل وسطوت على الخزانة. كانت أمّي تُخبّئ الأشياء المهمّة في حقيبة جلديّة قديمة تبدو كحقيبة الطبيب. تحتفظ فيها بكلّ الأشياء اللعينة. هل يحصل الناس على شهادة زواج؟

لا أعرف حقًّا. لا بدّ أيضًا من أن تكون هناك شهادة ميلاد. ليس لديّ أدنى فكرة حول ما قيل في شهادة وفاة والدي. أعتقد أنّ اسمه عليها سيكون جوس مودي. لا بدّ من أن أكتشف هذا أيضاً.

لم أكن وغدًا فضوليًّا في حياتي. لم أكن شخصًا يتلصّص على الأبواب أو يقف عند أعلى السلالم لالتقاط الأسرار. لو اضطررت إلى الاستماع إلى أيّ شيء، فلن أمانع. أمّا اليوم فقد اختلف الوضع. لديّ حقّ للقيام بذلك اليوم، إنّها حياتي. يمكنني الذهاب اليوم والتجسّس والتسلّل والبحث في أرجاء المكان. يمكنني اليوم البحث في كلّ شيء دون أن أعيد أيّ غرض إلى مكانه، سأقوم بذلك. سأقوم بأيّ شيء. لا يهمّني على الإطلاق أن ينزعج أيّ كان من ذلك.

كان والدي، رغم شهرته، لطيفًا مع الجميع. كان في غاية اللطف مع النّاس، يبتسم ويتحدّث مع المعجبين. وكان يكتب الكثير من الرسائل للنّاس. أترون، ربّما سيندهش جميع هؤلاء النّاس مثلي. لا بدّ من أن ينتهي نادي محبّي جوس مودي نهائيًّا.

بقينا فقراء حتّى سنّ العاشرة. لم أحصل أبدًا على أيّ شيء جديد، ما عدا تلك الدراجة الجديدة. كانت كلّ الأغراض الأخرى من قبل، مستعملة. كنت أرتدي ملابس أطفال آخرين تحصل عليها أمّي من مؤسّسة أوكسفام. اعتدت أن أتخيّل الأطفال الذين ارتدوا المعاطف الصوفيّة قبل أن أرتديها. كيف كانت حياتهم؟ اعتدت تخيّلهم كأنّني أدقّ المسامير. كان والدي يقضّي أوقاته في حانات الجاز الحقيرة. لا أزال أرى نفسي جالسًا هناك، ألفّ تلك العلبة المجعّدة الفارغة كسيجارة

مزيّفة، وبدأت بنفث الدخان. كانت هذه الأشياء رائعة عندما كنت صغيرًا. دائمًا ما كان يتدرّب في الغرفة العليا لأيّ حانة سواء لفرقة ويي جاز باند أو ديلتا دوج سوينجرز أو جوغ ووجي بوجي مين أو أيّ فرقة أخرى. نسيت جميع تلك الأسماء الغريبة التي أطلقها والدي على نفسه. لم يكن بإمكانه تحمّل تكلفة مكان محترم ليتدرّب فيه. كان في تلك الأيام منكمشًا، على ما يبدو، فقد طردته بعض الحانات لأنّها تحتاج إلى استخدام الغرفة. بدا آنذاك أنّ طريقة الحياة هذه ستستمر إلى الأبد. كنا نذهب إلى «تور» كلّما حلّ فصل الصيف لأنّها كانت أرخص. كان والدي يعدّ دائمًا النقود التي يحصل عليها. يجلسني على الأرض ويفرد الجرائد ويبني أبراجًا من الجنيهات وأنصاف الشلنات وقطع النقد من فئة الثلاث بنسات والكرونات. كنت أعشق مشاركته في العدّ، كان ذلك يمنحني شعورًا بأنني غنيّ. وكنت أنزعج للغاية عندما يأخذ والدي كلّ تلك النقود ليضعها في علبة بلاستيكية ليأخذها إلى البنك. لم أفهم لماذا يستحقّ البنك أن يأخذ أموالنا؟!

حصلت على شلن لشراء «بوكي هات» من عربة البائع الجوّال. واصلت تسمية الآيس-كريم «بوكي هات»، حتّى عندما انتقلنا إلى لندن، لكنّني حين أكون مع والدي ومع أصدقائي أقول آيس-كريم. كنت أستخدم الكثير من الكلمات لأنّها تفرحهما. أعيش فصامًا حقيقيًّا. أمّا اليوم فقد بدأت بالتفكير حيال كلّ ذلك. لم تكن حالتي الفصاميّة تشبه، ولو قيد أنملة، الفصام الذي كان يعيشه. ما فعله كان في منتهى الاختلاف عن مجرّد قول كلمات سيّئة لأحدهم وأخرى بذيئة لغيره.

يمكنك أن تعرف حين يكون غاضبًا منك، كان ذلك أسوأ من لطمة أو تبادل الشتائم. تكسوه نظرة باردة وهادئة تجعل الدم يتجمّد في عروقك. يقول أشياء مثل: «كولمان لقد خيّبت أملي». رأيته غاضبًا بشدّة من والدتي، وكانت بدورها شديدة الانزعاج. وضعت فوطة على وجهها وبكت تحتها. جرّبتُ هذا، كنت أضع فوطة على وجهي وأبكي تحتها عندما يكون غاضبًا منّي. أتنهّد بحسرة تحت الفوطة كأنّني أرى أمّي تتنهّد التنهيدات نفسها، تنهيدات عميقة تجعل القطن يتنفّس معي. ولكنّ والدي لم يكن يشعر بالذنب الذي كنّا نريد أن يستشعره. يبدو معذورًا عندما يغضب، لم تكن الفوطة لتهدّئ من روعه، فكان يرميها. يغضب بشدّة فيغدو وجهه قاتمًا أكثر فأكثر، مثل السماء التي توشك أن تمطر. ويغدو وجهه مكفهرّا مدلهمًّا.

نادرًا ما استطعت التحدّث عن كلّ هذا. كانت الأمور تختلط وتتداخل بطريقة مؤسفة. عندما كنت في التاسعة من عمري لم أتمكّن من فهم أي شيء من حولي. وفي الحقيقة لا أتذكّر أصلا عيد ميلادي التاسع. لم أنس كلّ شيء بالطبع، بل أتذكّر أشياء معيّنة. ذات يوم كنت في الحافلة مع أمّي، ثمّ ركب شخص أسود. كنّا في جلاسكو. كنت تقريبًا في السادسة من عمري. وإذ بأحدهم يتفوّه بكلام بذيء، فقد دعاه بقرد لعين أو بشيء شبيه بذلك الهراء. حينها، نهضت أمّي واقتربت منه بخطوات قصيرة، قائلة بأنّها شعرت بالعار لأنّه مواطن من بلدها نفسه وأنّه مجرّد خنزير جاهل. خنزير جاهل، أتذكّر هذه العبارة جيّدًا لأنّها جعلتني أقهقه حينها. أذكر أن ذلك الرجل المقرف قد حدّق فيّ قائلاً لأمّي: «آه فهمت» أو شيء من هذا القبيل. لم أستطع

أن أزيح عينيّ عن ذلك الرجل الأسود الذي وصفه بالقرد، كان جالسًا مسمرًا عينيه بأرضيّة الحافلة، غارقًا في الحرج والخجل كما توقّعت تمامًا. ثمّ أمسكتني أمّي من يدي ونزلنا من الحافلة للعودة إلى البيت. توقّفنا مرّات عدّة في بداية الطريق، وكان عليّ أن أهرول لمجاراتها في مشيتها. لا أعتقد أنّها أخبرت والدي بتلك الحادثة، بل كأنّها لم تحدث. مرّت أيّام كنت أتمنّى لو تستطيع أمّي أن تحفظ أيّ سرّ. لاحظت أنّ النّاس حين كانوا يحدّقون فيّ يشعرون بالخوف. جعلني ذلك أدرك اللون الحقيقي لبشرتي إدراكًا مختلفًا عندما عدت يومها إلى المنزل. ربّما كانت المرّة الأولى التي أنتبه فيها حقًّا للون بشرتي، تفاجأت حينها نوعًا مّا. هذه أطول ذكريات أحتفظ بها عن تلك الفترة. وكما تلاحظون لا تتضمّن، لسوء الحظّ، الكثير عن والدي.

ما يغضبني حقًّا هو كيف لم يخبرني! أتفهّم أن يخفي ذلك ربّما عن بقيّة العالم إذا كان يظنّ أنّه يحافظ بذلك على نجاحه، ولكن لماذا يخفي ذلك عن ولده؟ لقد بلغتُ الثلاثين من عمري. لم أعد مجرّد مراهق يافع أو مجرّد «طفل صغير». مرّت علينا الكثير من الأوقات التي كان يستطيع فيها أن يخبرني. لم أذهب إلى الحمّام معه ولم أرَ أيًّا منهما عاريًا. ولكنّ الكثير من الأطفال لم يروا والديْهم عاريَيْن. لم يكن ذلك أمرًا غريباً على الإطلاق. أقصد أنّه قد يكون بعض الآباء متحفّظين، يحافظون على خصوصيّتهم لأنفسهم. شاهد سامي عضو والده، كانت عائلته تتعامل مع هذه الأشياء بشكل طبيعي للغاية. شاهدت مرّة حمّالة صدر والدة سامي معلّقة على الكنبة في غرفة المعيشة. حدّقت فيها لفترة طويلة. قال سامي إنّ عضو والده كبير لدرجة مخيفة. لم يكن

يريد أن يحظى بعضو ضخم مثله، لم يكن يرى منظره جميلاً. تحدّث عنه بطريقة سيئة للغاية. قال إنّه أشبه بجزرة كبيرة يُحيطها شعر داكن كثيف. رائع، أفزعني كلامه بل أرعبني. فحاولت لعدّة أسابيع بعد أن رأى سامي عضو والده أن أرى عضو والدي أيضًا، ولكنّ ذلك لم يحصل أبدًا. كان باب غرفة نومهما مغلقًا بإحكام دائمًا. أشعرني ذلك بالراحة قليلاً، لم أحاول اقتحام غرفتهما أبدًا. هذا أفضل. ماذا لو اقتحمت عليها الغرفة لأفاجأ بمعركة جنسيّة حامية الوطيس.

أحبّ والداي سامي. كان الشخص الوحيد الذي يأتي معنا إلى «تور». لطالما اقتنعت أنّ والدي يحبّ سامي أكثر منّي، كنت أشعر بالغيرة. تبادل والدي وسامي الكثير من الأحاديث والضحك، حتّى إنّه سمح له مرّة بأن يجرّب ترومبيته، وهو ما أثار جنوني. قال له إنّه قادر على تعلّم العزف بسرعة.

كان كلّ شيء يتداعى أمامي. لم يعلّمني السباحة، لم أستغرب ذلك. هذا هو والدي حقًّا، لِمَ سيتغيّر؟ قال إنّه لا يُجيدُ السباحة. لم يكن يذهب إلى الأطبّاء. قال إنّه يرتعب منهم. حتى المبولة، لم يستخدمها في حياته. قال إنّها في الحمامات العامّة، ويمكن أن يلتقط الإنسان شيئًا مّا منها، كما يرتادها أشخاص قذرون يمكن أن يكونوا خطيرين.

عندما أردت أن أفكّر في كلّ هذه التفاصيل وفي كلّ ما فعلته، أوقفت حياتي بأكملها لأفكّر مليًّا في هذا فقط. ولأتحدّث عن كلّ هذا، توقّفت عن رؤية أصدقائي، وتركت عملي، وأمضيت ليالي طويلة ساهرًا. عندما توقّفت لأفكّر في كلّ ذلك انهمرت في ذهني

كلّ هذه الذكريات والأفكار من كلّ حدب وصوب. أطلّت هذه الذكريات برأسها في كلّ مكان ذهبت إليه. لوّحت لي مهدّدة لتقول لي: مرحبًا أنا هنا أمامك. صرت أحمق تمامًا. إنّني أحححمققق تمامًا، مثلما كان والدي يطلق عليّ، أحححمققق.

كان اسمي ويليام دانسمور، لو بقيت ويليام دانسمور لتغيّرت حياتي ولأصبحت بكلّ تأكيد رجلاً مختلفًا تمامًا. أقصد أنّ ابتسامة ويليام دانسمور ستكون ابتسامة مختلفة عن ابتسامة كولمان مودي. ستتغيّر كلّ ملامح وجهي وتعابيره. أراهن على أنّه حتّى مشيتي ستتغيّر لتصبح أثقل لو كنت ويليام دانسمور. ربّما كانت أبطأ، وربّما أصبحت أكثر ميلانا. وأنا طفل كان من أكثر الأشياء متعةً في حياتي أن أتخيّل كيف سأبدو لو احتفظت بهذا الاسم. أتذكّر أوّل مرّة تلفّظت فيها بهذا الاسم. كان مدهشًا أن أكون يومًا ويليام دانسمور، ضحكت وردّدت الاسم مرّة تلو الأخرى. سألتها: ويليام دانسمور، هل أنت متأكّدة؟ لم أحبّ اسم ويليام أو ويلي أو بيل. كنت مسرورًا باسمي كولمان. لم أحبّ اسم ويليام، ولكنّني لست مسرورًا اليوم كذلك. لست مسرورًا مطلقًا. ليس هناك الكثير من عائلة مودي حولنا. يمكنك أن تقول مودي فقط، وسيفكّر النّاس فورًا في عازف الترومبيت الذي تبيّن أنّه امرأة.

أعتقد أنّ والدي لو كان يخطّط ليغدو متهتّكًا لما استطاع أن يجد طريقة فذّة أفضل من تلك. كانت الخاتمة الكبرى. لو كان عالم الجاز يقبل أيّ شيء كما كان والدي يدّعي، لماذا لم يعلن ذلك إذن؟ من

المفترض أنّ فترة الستينيات كانت فترة رائعة. كانت تضمّ الهيبيين، وسجائر الحشيش، والأفغان، والشعور الطويلة، والسلام. لماذا لا تتمكّن امرأة من العزف على ترومبيت لعين، ما الخطأ في ذلك؟

لم أحظَ يومًا بخيالات جنسيّة حول الأولاد، لطالما أحببت الفتيات مائة في المائة، ما عدا تلك الأيّام عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، فقد كنت وأصدقائي نحظى بسيجارة حشيش، وجلسات العادة السريّة الجماعيّة، ونستمع إلى «تود» أو «جينيسس» أو «بينك فلويد» الرائعين أو كنا نشاهد برنامج «ذا أولد جراي ويسل تيست» في التلفاز. لم أعد اليوم أحبّ هذا النوع من الموسيقى الهيبّية. كان كلّ ذلك مجرّد مرحلة مضت إلى غير رجعة.

لم نكن نتحدّث كثيرًا عن كوني طفلا بالتبني. في حقيقة الأمر لم أكن مهتمًّا أصلاً بمعرفة والديَّ الحقيقيّين. كنت أفكر حينها ببساطة على هذا النحو: بما أنّهما غير مهتمَّين بي فلماذا سأهتمّ بهما. هكذا كان الأمر بالنسبة إليّ بكلّ بساطة. أخبرتني أمّي بأنّ تلك المرأة كانت تحبّني بكلّ تأكيد، ولا بدَّ من أنّها عانت صعوبة بالغة في التخلّي عنّي. وكنت أردّ باستخفاف: نعم، نعم. بينما كنت أقول في نفسي «ما هذا الكلام الفارغ». أقصد أنّ الموضوع ببساطة: إذا أحببت الطفل ستحتفظين به، أمّا إذا لم تحبّيه فستتخلّين عنه. هكذا ببساطة، فالمال هنا ليس مشكلة، ولا يهمّ أيضًا ما يفكّر فيه النّاس في دواخلهم. إذا كنت ترغبين في طفل وحملت به، فلا بدّ من أن تعتزّي بذلك الطفل المشاكس الذي يتلوّى باكيًا، أليس كذلك؟ أعني أنّه لا يمكنك التخلّص من طفلك

عند ولادته، ثمّ تسمّين ذلك حبًّا، أليس كذلك؟ ما هي طبيعة تلك الأمّ الحنون التي تتخلّى عن طفلها بتلك الطريقة القاسية، وتسمّي ذلك حبًّا؟

لو أنّني حصلت على فرصة مّا، ربّما وددت أن أرى صورة لأمّي وأخرى لوالدي. لا أعلم حقًّا من منهما كان أسود؟ أو من منهما أورثني هذا السواد؟ لم أعرف ذلك يومًا. يسألني الناس دومًا إذا ما كنت قد أتيت من المغرب أو من ترينيداد أو توباغو أو غانا أو نيجيريا أو سيراليون أو جامايكا.

في أحد الأيام التقيت بأحمق آخر كان مقتنعًا تمامًا بأنّني جئت من هاواي. وأكّد لي أنّني أشبه الناس هناك تمامًا. كما ظهر أحدهم أمامي فجأة في الشارع ذات يوم قائلاً: مهلاً، هل أنت من هاواي؟ قلت له لا أدري. ثمّ قلت لنفسي حسنًا، كلّما سألني شخص عن موطني الأصلي سأقول له، نعم، أنا من هاواي أو المغرب أو ترينيداد أو أي مكان يريدونه. هل هذا مهمّ حقًّا؟

لطالما قال لي والدي إنّنا متشابهان. ينتابه الشعور ذاته وسط الفرق التي كان عضوًا فيها، ولطالما كانوا جميعًا جزءًا من عائلة كبيرة. كان البعض منهم بيضًا والبعض الآخر سودًا. ذكر أنّهم لا ينتمون إلى أيّ مكان سوى إلى بعضهم البعض. قال لي مرارًا: ستصنع سلالتك الخاصة بك يا كولمان. اصنع سلالتك الخاصة وتتبّعها دائمًا. صَمِّمْ شجرة عائلتك، ما بالك؟ ألا تمتلك خيالاً خصبًا؟ كنتُ في المقابل ألحّ في السؤال: من أين أتى والدك حقًّا؟ قال لي: انظر يا كولمان، أنا لا

أعرف أيّ شيء عن والدي. انتبه يا كولمان، ربّما يمكنني أن أقول إنّه جاء في قارب مّا في يوم من أيّام القرن التاسع عشر، في يوم شتوي بعد أن قطع ذلك الطريق الطويل من القارّة السوداء في يوم بارد على قارب رسا في غرينوك. كانت غرينوك تقع بالقرب من ميناء جلاسكو عندما كانت جلاسكو مكاناً تقصده جميع السفن. جاء أبي في تلك السفينة، وعلى الرغم من أنّ الطقس كان باردًا ورماديًّا فقد أحبَّها. أحبّ غرينوك، حتّى قرّر أن يستقرّ بها. وربّما يمكنني أن أقول لك إنّ والدي كان أمريكيّا أسود غادر أمريكا بسبب التمييز العنصري، وتمكّن من شقّ طريقه إلى إسكتلندا حيث التقى بوالدتي. كما يمكنني القول إنّ والدي كان جنديًّا أو بحارًا أرسله جيشه أو قوّاته البحريّة. وربّما أستطيع القول إنّ والدي جاء من جزيرة في البحر الكاريبي، ولكنني لا أعرف اسمه لأنّ والدتي لم تتمكّن من تذكّره. أو لم تكلّف نفسها بأن تسأله عن اسمه. وربّما تكون إحدى هذه القصص صحيحة، يا كولمان.

دفعني كلّ ذلك إلى الجنون. سألته: وما هي القصّة الحقيقيّة؟ ما هي القصّة الواقعيّة؟ قال لي: اللعنة، لا يهمّ أبدًا. يمكن أن تختار القصّة التي تريدها. اختر القصّة التي تفضّلها وستكون هي الصحيحة. وبكلّ تأكيد، لن تغيّر هويّة والدي والمكان الذي أتى منه أيّ شيء في داخلي. لكنّه كان مخطئًا في ذلك. بالطبع كان مخطئاً. كان ذلك الوغد الغبيّ مخطئا، بل أنا متأكّد أنّه لطالما كان محقًّا. لطالما اعتقدت عندما كنت صبيًّا أنّه محقّ في كلّ شيء: كان شعره يقول إنّه محقّ، وبشرته السوداء المتوهّجة، وحتّى أذناه كانتا تبدوان ذكيّتين.

كان محقًّا للغاية، وبدأت أحاول جاهدًا تذكّر كلّ الأشياء التي قالها لي وطريقته في قولها. يمكنني استعارة بعض كلماته العظيمة. كانت كلمة علم الطفولة Kidology، إحدى تلك الكلمات، أو كلمة عظيم، أو كلمة ظريف. كان يقول لي: «لا تكن ظريفًا». فأقول له مازحًا: «ماذا تعني هذه الكلمة؟» فيردّ: «متذاكٍ، لا تتذاك».

لم يرغب والدي يوماً في الحديث عن عائلته. ولم تكن لديه صور قديمة عندما كان طفلاً، ولو صورة واحدة. أعتقد أنّني لو بحثت في المنزل لوجدت بعض الصور لجوزفين مور مخبأة في مكان مّا، ما لم يكن قد قصّ صوره أو أحرقها لإخفاء الأدلة.

آمل ألا يكون قد فعل ذلك. آمل أن أتمكّن من العثور على بعضها. إذا رأيت صورة مّا لها، يمكنني عندها أن أقنع نفسي بأنّني لا أعيش حلمًا فرويديًّا غريبًا أو كابوسًا مرعبًا لا أستطيع فيه التعرّف على والدي أو والدتي أو حتى على نفسي. لم أعد أعرف أيّ واحد منا بعد اليوم. لقد جعل منّا جميعا أشخاصًا غير حقيقيّين. قال لي: «لا يهمّ المكان الذي انحدر منه والدك يا كولمان». كأنّه فعلاً لا يهمّ. لقد كان مخطئاً. كان مخطئاً في كلّ شيء.

لست مهتمًا أبدًا بمعرفة والديّ الحقيقيين. أخبرتني والدتي بعض الأشياء حول ما فعلاه. كلّ ما يفعله الآباء الذين يسبّبون الألم، الآباء الدمويّون، أو الآباء الميكي ماوس، كلّ ما يفعلونه لا يعدو العبث برأسك. إنّهما والدان لا يمكن الوثوق فيهما، يا صديقي. اللعنة، لن أنجب أطفالاً أبدًا. لا يمكن أن أفعل هذا.

جئت إلى هذا العالم بوزن 6 أرطال فقط تقريبًا، كما قالت أمّي. لطالما تذكّرتُ هذه الأرقام، كنت خفيف الوزن، ولكنّ والدتي قالت لي إنّه كان هناك إعصار جارف عند ولادتي. ضرب الإعصار الأشجار في الشوارع وطيّرَ عدّة ألواح من السطح. أثار الإعصار جلبة كبيرة. كانت الرياح تعوي بجنون عندما وصلَتْ إلى مستشفى «إلسي إنجلز» في أدنبره. قالت والدتي إنّها حين وصلت إلى المستشفى لرؤيتي لأوّل مرّة، كانت الممرّضات في حالة فوضى عارمة. كيف ستتمكنّ من التمييز بين صرخات الرضّع العالية وصرخات الرياح؟

مازلت نحيلاً. لا يحتوي جسدي على الكثير من اللحم. لا أزال طويلاً ونحيلاً للغاية. عندما ذهبتُ إلى الهند كنت أبدو كرجل ميّت يمشي. أصبتُ بالجفاف وخسرتُ عشرة كيلوغرامات. قال والدي عندما عدت، كولي، لا بدَّ من أن تكسب بعض الوزن. كان يدعوني كولي عندما يلاطفني. أما والدتي فكانت تناديني كولمان دائمًا. لم أطلب من أحد أن يتبنّاني. لماذا ينبغي أن أشعر بالامتنان لأيّ شخص؟

ولدتُ بحظّ عاثر. لم يعرني أحد أيَّ اهتمام. هناك أناس محظوظون للغاية. كان من بينهم أشخاص في مدرستي، يختارونهم للفرق الرياضيّة، ويحصلون على الفتيات الأجمل، ولا يحتاجون إلى النظّارات، وخصوصاً تلك النظارات السميكة أو السراويل المبقعة أو الأحذية البشعة. يبدو هؤلاء الأشخاص رائعين حقًّا. أمّا أنا فوضعت نظّارات. لم أعد أضعها اليوم كما ترون. أبدو تافهاً كفاية اليوم. المجد لمن اخترع العدسات اللاصقة أيًّا كان.

والدي يمتلك ثديين. والدي ليس لديه عضو ذكري. والدي لديه ثديان. والدي لديه عضو أنثوي. والدي ليس لديه خصيتان. كم من الناس يتمتّعون بآباء مثل والدي؟ ما هو الخطّ الساخن الذي يجب الاتصال به لأتحدّث عن مشكلتي؟ تخيّل معي هذه العبارة تومض على الشاشة بعد برنامج عن الآباء والأمهات، عن الوالدين المخنّثين أو أيّ عنوان لعين آخر: *إذا كان هذا البرنامج يهمك وتحتاج إلى شخص للتحدث معه، يرجى الاتصال على الرقم كذا وكذا وكذا. سيكون الخطّ مفتوحاً طوال الأربع والعشرين ساعة القادمة*. يمكنني الاتصال بالبلد بأكمله ولن أجد أيّ شخص مرَّ بما مررت به. أراهنك على ذلك.

سأعرف عنه كل شيء. سأقتفي ماضيه وأتتبع آثاره عندما كان طفلة في غرينوك، سأعود إلى ذلك الزمن عندما كان اسمه جوزفين مور، جوسي، جوزي، جوس. ولكن من أين أتى باسم مودي؟ هل كان لهذا الاسم علاقة بعالم موسيقى البلوز؟ سأكتب سيرة حياته السخيفة. سأحكي قصّته كلّها. سأكون بالنسبة إليه بمثابة يهوذا. أليس هذا ما قاله أوسكار وايلد. لطالما اقتبس والدي هذه العبارة منه ضاحكًا. *«كلّ رجل يحتاج إلى تلاميذ، ولكنّ يهوذا فقط هو الذي يكتب سيرته الذاتيّة»*.

لطالما شغله موضوع كتّاب سيرته الذاتيّة المحتمَلين: ستقول كتاباتهم إنّ الأثر الذي شكّله في موسيقى الجاز في القرن العشرين يتطلّب كتابة السيرة الذاتيّة سيتحرّقون اليوم لكتابتها، إنّه صيد سهل، ولن يكلّفوا أنفسهم أصلاً عناء الالتفات إلى الموسيقى.

اعتدت أن أكون تلميذاً لوالدي. وليس أكثر من مرافق لعين. لقد ذهبت إلى الجانب الآخر. ذهبت إلى صالة الجنازات وأخذني ذلك الرجل المسؤول عن إجراءات الجنازة جانبًا. كان على وجهه تلك النظرة التي لن أنساها ما حييت. نظرة نصفها إحراج والنصف الآخر نوع من الغبطة المحضة.

أعجبه ما اكتشفه فجأة، ناداني بالسيّد مودي. أعتقد أنّه لا يحظى دائمًا بجثث المشاهير، وأنّه كان في ذروة السعادة اليوم. قال لي: سيّد مودي لست متأكدًا تمامًا كيف سأقول لك هذا، ولكن من الأفضل أن أخبرك أنا بذلك بدلا من أن تعرفه من شهادة الوفاة. أفترض أنك لا تعلم بالطبع؟ ينتظر قليلاً. أراه يحاول قراءة تعابير وجهي. قلت له: «لا أعلم ماذا؟» وأنا أفكّر في سرّي «يا له من أبله». عندما جرّدْتُ والدك من ملابسه لأداء واجباتي الروتينيّة، اكتشفت...

انتظرته ليكمل كلامه. اعتقدت أنّه سيقول إنّ والدي قد توفّي بسبب بعض الأمراض الأخرى أو أنّه اكتشف بعض العلامات الغريبة على جسده أو أنّه اكتشف أنّ والدي قد انتحر. بقيت منتظرًا. امتدّت فترة صمته. اللعنة ما الذي اكتشفه، هل وجد أنّ والدي لا يزال على قيد الحياة؟

عندما جرّدْتُ والدك، السيد مودي، من ملابسه اكتشفت أنّه امرأة. لم يخبرني أحد بذلك. كانت والدتك تشير إلى الميت دائمًا قائلة «زوجي». اعتقدتُ أنّ هناك من دفع له مالا ليوقعني في هذا المقلب السمج. ربّما هناك شركات تقوم بدلاً من إرسال شخص يلبس

زيًّا تنكريًّا فكاهيًّا kissogram مباشرة إلى حفلة عيد ميلاد، ترسل شخصًا غريبًا يرتدي لباس الميت التنكّري deathogram إلى صالة الجنازات. لا يمكن أن يكون هذا الرجل رجلاً حقيقيًّا. قلت له أريد رؤية المتعّهد الحقيقي، متعهّد دفن الموتى، الحانوتي أو مهما كان اللقب اللعين الذي تطلقونه عليه، أريد رؤية رئيسك في العمل. قلت له هل هذه هي فكرتك عن المقالب أيها الوغد القذر؟ من طلب منك القيام بذلك؟ هززته بعنف. أمسكت بتلابيبه وأخذت أهزّه بقوّة. قال لي: إنّني أتفهّمك تمامًا. قلت له لا تحاول العبث معي. أخذني إلى مكان الجثّة. مشى بي إلى تلك الصالة الباردة وأراني والدي. رأيته عاريًا، وفي هذه اللحظة بالذات أدركت أنّها المرّة الأولى في حياتي التي أراه فيها عاريًا. عرض عليَّ الحانوتي بعض الضمّادات الجراحيّة التي قال إنّها كانت ملفوفة بإحكام حول صدر والدي لتغطّي «ثدييه». ألقيت نظرة سريعة. ولكن تلك النظرة لا تزال محفورة في رأسي حتى الآن. بقيت الصورة في رأسي، صورة والدي في جسد امرأة. أشبه بالمنحرفين، أشبه ببعض المرضى النفسيين. أتصوّره الآن يضع أحمر الشفاه أمام المرآة قبل موته.

خرجت من ذلك المكان بأسرع ما يمكن. قلت للحانوتي شكرًا لأنّك أخبرتني. كانت السماء زرقاء مشرقة في ذلك اليوم، وكانت الشمس ساطعة، والجوّ حارًا. وكنت أتعرّق. كان الجميع يشتكون من الطقس. أتذكّر أنّني كنت أتساءل إذا ما كنت سأتمكّن من الحديث الطبيعي عن أي شيء مجدّدًا: كم كان يبدو ترفاً لعيناً في تلك اللحظة أن أقف وأقول للناس أليس الجو حارًّا قليلاً؟

قالت امرأة بشعر أبيض لعجوز أخرى ترتدي ملابس شتوية: «الجوّ لا يطاق. الطقس حارّ وغريب». غريب هي الكلمة المناسبة. صرت أذرع المكان مردّدًا في داخلي عبارة «غريب هي الكلمة المناسبة». توقّفت وانحنيت لألمس أصابع قدمي وأخذت نفسًا عميقًا. زادت دقّات قلبي، انتصبت مجدّدًا. كان جسمي مبللاً، وشعري ملتصقاً برأسي وبنطلوني رطبًا، وكانت الشوارع محترقة. ربّما يمكنني أن أذوب ببساطة، أتذكّر أنّني كنت أفكّر فقط في أن أتوارى عن الأنظار.

هذا أبي، ذلك الذي يرتدي ربطة العنق البرتقاليّة. انظر، انظر، إنّه يقف بجانب الرجل مع الطبل الكبير. إنّه والدي، انظر إلى ترومبيته، إنّه ملكه، إنّه ترومبيته الثالث. أعطاه إيّاه صديقه سليم فينغرز. إنّه ترومبيته المفضّل، ألا يبدو ذكيًّا؟

آلة الترومبيت خُلقت له، على ما يبدو. حين يعزف تبدو عيناه مغلقتين، كأنّه نائم. أنهى والدي العزف، فأطلق الحضور وابلا من التصفيق. صفّقوا كثيرًا، ووقفت على الكرسي وصفّقت بدوري. كنت أرتدي لباس البحّارة، حصلت عليه من أحد الأماكن.

قالت لي والدتي: اجلس كولمان. ولكنّ أبي جاء ورفعني عاليًا في الهواء بين جميع تلك الوجوه المبتسمة. ثمّ أجلسني على كتفيه الضخمين. قال: ما رأيك أيّها الرجل الصغير. احتشد الجميع حولنا، وأخذوا يربّتون على ظهر والدي. كنت على وشك السقوط. ربّما أسقط بالفعل، حقّا سأسقط إذا واصلوا ذلك. ما رأيك أيّها الرجل الصغير!

شربت البارحة كثيرًا حتى ثملت. استيقظت هذا الصباح وشعرت بطعم مريع في فمي، مثل نكتة «بيلي كونولي» تلك: «فمك مثل مؤخّرة الغرير». دخّنت الكثير من السجائر وشربت كؤوسًا كثيرة من البيرة، ولكنّ الويسكي هو الذي قضى عليّ. لم أكن أتحمّل شرب الويسكي. ذهبت إلى حانة لم أزرها من قبل حيث لا أعرف أحدًا ولا أحد يعرفني. جلست على كرسيّ أمام البار مثلما يفعل الرجال اليائسون في الأفلام. لا أعرف كيف وصلت إلى المنزل، واستيقظت وبي صداع لعين مدمّر، قاتل، وكأنّ مسامير تدقّ رأسي، وتنغرزُ عميقًا في صدغي. تناولت حبّتَيْ بنادول، وشعرت بمعدتي وكأنّها بيضة مخفوقة. ليس لديّ شيء لأتناوله. ذهبت إلى ناصية الشارع واشتريت بعض الخبز، لكنّني نسيت شراء الزبدة، والخبز المحمّص الجافّ. الخبز الجافّ والشاي، لا يشبه الإفطار اللعين في فندق سافوي، ولكن لا بأس به.

«مجرّد ولد متأوّه»، لطالما كنت هكذا كما كان يقول عنّي. فقد أعطاني اليوم شيئًا أنتحب بسببه.

وصلتُ إلى بيتهما البارحة، وكان البيت غريبًا. بدا كأنّه قد مات بأكمله، لا والدي فقط. ظهرت لي الأشباح، وكان الصالون هادئًا وشبحيًّا، في حين كان في الماضي يهتزّ دائمًا بالموسيقى. بدا البريد مكدّسًا على الأرض. اضطررتُ إلى تحريك جبل من الأشياء قبل التمكّن من الدخول. اتّجهتُ مباشرة إلى المكتب الموجود في القاعة، وأخرجت الحقيبة الجلديّة القديمة. أخذتُ مغلّفًا كُتب عليه «الشهادات»،

وأخذت أيضا كلّ الأوراق المتعلّقة بقضيّة التبنّي. فتحتُ ظرفا كُتب عليه «كولمان»، بعد أن وقع من مظروف أبيض جديد. كان اسمي على المغلّف بخطّ والدي. لا يمكنني أن أخطئ خطّه الرقيق اللولبي. كتب تحت اسمي هذه الكلمات: «يُفتح بعد موتي». كان ذلك مخيفًا حقًّا، ولكنّني لم أتمكّن من فتحه. لا ريب في أنّه لا يحتوي سوى على قائمة من الأعذار والأسباب. لا يهمّني ذلك أبدًا، لا يهمّني حقًّا.

لا أستطيع تذكّر الكثير ممّا كنت أقوله أمس. سامي. أتذكّر أنّني كنت أتلفّظ ببعض الحماقات حول سامي. يمكنك أن تهرب، ولكن لا يمكنك حقًّا الاختباء. ينبغي أن أعتبر الكثير ممّا قلته مجرّد كلام فارغ. أعتقد أنّه من الأفضل أن أبدأ من جديد، من البداية. عندما ذهبت إلى المحلّ صباحًا رأيت امرأة من الخلف تشبه أمّي، فشعرت بقرفٍ شديد إزاءها. كانت تضع وشاحًا على رأسها وتمشي بسرعة لأنّ السماء بدأت تمطر. لا أعرف إلى أين كانت تسير، فلا يمكنك أن تتخيّل إلى أين يذهب الآخرون، أليس كذلك؟ كلّ هؤلاء النّاس المسرعين لا شكّ في أنّهم كانوا يتّجهون إلى مكان مّا. لندن مليئة بالأشخاص اللعينين الذين يملؤون الشوارع، ولا يمكنك تجنّبهم حتى في بدايات الصباح الباكر. لا يمكنني حتّى أن أنظر حولي. انهمر المطر فجأة بغزارة، وفقدت أثر تلك المرأة التي تشبه أمّي.

كثيرا ما تبادلا القُبل في أوقات وأماكن عديدة. كنت أراهما في المطبخ أو على السلالم يتبادلان القُبل. كانا يتمتّعان بذلك الجوّ الخاص الذي يشي بوجود شيء مّا بينهما. كنت أظنّ أنّ جميع الآباء هكذا،

يتبادلان النظرات ثمّ يقولان: «دقيقة فقط». كان عليَّ دائمًا أن أطرق بابَ غرفة النوم، علّماني ذلك مذ كنت صغيرًا. كانت أمّي تنام في ذلك السرير المزدوج كلّ ليلة طيلة ثلاثين سنة لعينة مع والدي الذي كان امرأة. لا شيء مضحك على الإطلاق، أليس كذلك؟ ولكنّني أعتقد فقط أنّ ذلك غير طبيعي. ليس لأنّني أكره المثليّين جنسيًّا أو أيّ شيء من هذا القبيل، فلا أعتقد أنّني سأغضب لو كانت والدتي مثليّة أو والدي مثليًّا.

ما هو الشيء الذي يملؤني بالقرف والغضب إذن؟ لست شخصًا صعب المراس. لا تفهموني خطأً من فضلكم. ربّما كان أبي لا يمتلك عضوًا. ربّما كان الموضوع بكلّ بساطة أنّ والدي لم يكن لديه عضو لعين. لا أحد يرغب في أن يحظى بوالد سحاقي لعين. قد يقبل بوالدة سحاقيّة، أمّا الوالد فلا! لم يكن والدي رجلاً مثلي. علّمني أشياء كثيرة وساعدني خلال سنّ البلوغ عندما كان كلّ شيء مليئاً بالجنون والتغيّرات في الوقت نفسه. يصبح الصوت فجأة شبيهًا بشيء يسقط على الأرض. ويصير الوجه خشنًا مع شعور بالحَكّة.

عندما تستيقظ في الصباح، تفرك خدودك وتُصدم من ظهور بقايا شعر حلقته في اليوم السابق. إنّه شيء مخيف! لا تقلق إذن فهذه التغيّرات طبيعيّة، ستصبح رجلاً قريبًا. يمرّ الجميع بهذه المرحلة. لا بدَّ من أن يكون والدي قد مرّ بذلك مثل والده من قبله. تبدأ صدمة شعر العانة دون أن تعلن عن نفسها، تأتي فجأة، ثم تتحوّل بعدها إلى أجمة مورقة كالسَّلَطَة. وهكذا تودّع الطفل الذي كنته. قال لي والدي

مرّة: أعلم يا بنيّ مدى صعوبة الأمر، عندما كنت أمرّ بعذابات سنّ المراهقة السخيفة. لا أزال أتذكّرها جيّدًا. لكنّه لم يمرّ بكلّ هذا، أليس كذلك؟ يا لتلك الكذبة الكبيرة.

كيف كان في سنّ البلوغ؟ أعني لا شكّ في أنّه قد عانى من العادة الشهريّة، أليس كذلك؟ أليس هذا مثيرًا للاشمئزاز؟ لا يمكنني استيعاب ذلك حقًّا. تدفعني فكرة مرور والدي بالعادة الشهريّة إلى الشعور بالغثيان. كثيرًا ما قالت والدتي إنّني قد أكون مشاكسًا أحيانًا، أما الكذب فلا. الكذب آفة الحياة، وأسوأ ما يمكن أن يقوم به أيّ طفل. اعترف يا كولمان، لقد دُمّرتَ حقًّا.

منذ وفاة والدي أمشي في الشوارع وكأنّني نصف حيّ، أمشي وكأنّني نائم. أحمل ذلك الألم الذي نُقش في صدري. نقش محفور مسنّن، نقش لا يمكن لأيّ شيء أن يخلّصني منه. لا أكسيد المغنيسيوم اللعين، ولا حتى مسحوق رينيز للتنظيف.

أُجبرتْ والدة أحد زملائي على الإقامة في مصحّة نفسيّة عندما كان في الحادية عشرة من عمره. لم يخبره أحد بشيء. قالوا له إنّها ذهبت في عطلة قصيرة. ثمّ أدرك من النظرة المرعبة في عينيها أنّها لم تكن مجرّد رحلة سخيفة.

هل عليَّ أن أغفر لهما؟ بالطبع لا.

جلس والدي على حافّة سريري، وسحب عنّي الملاءة الصفراء. كانت حرارتي مرتفعة جدًّا. ارتفعت حرارتي كثيرًا ولم أرغب في الخلود إلى النوم مبكرًا. أعطاني ملعقة من الدواء. فتحت فمي منتظرًا

أن يضع الملعقة ويقول لي: صبيّ شجاع. فقد كان طعم الدواء في غاية المرارة. كانت تفوح من والدي رائحة نادي الترومبيت. أخذ بيدي وراح يغنّي: أحلام للبيع، أحلام جميلة للبيع، أنغوس هنا، يحمل أحلامًا للبيع. ثم غطّ والدي في النوم، وأخذ بالشخير بصوت مرتفع.

التقط أنفاسه واستيقظ فجأة. ربَّت على يدي، مسّد رأسي، وقال لي: شعرك مثل شعري تمامًا. ثمّ سحب غطائي حتّى وصل إلى ذقني، وأضاف: اخلد إلى النوم يا بني، اخلد إلى النوم. بقيت مستيقظًا، سمعت أصواتاً في الطابق الأوّل. كان والدي يغنّي أغنية أخرى لوالدتي. سمعت كلبًا في الخارج ينبح بغضب، سمعت الأطفال يلعبون في الشارع، سمعت صراخ سامي. ثمّ انخفضت أصوات الأطفال، وبدأت أنصت لأنفاس المنزل وحسب.

عانى والدي من الرعب المزمن من المستشفيات أو من رهاب المستشفيات أو سَمِّهِ ما شئت من ضروب الخوف إزاء المستشفيات. يمكنني اليوم تفهّم الكثير من هذا الرعب. كان يخاف أيضًا من الأطبّاء، وقد نقل ذلك الشعور إليّ أيضًا. لهذا وُجِد الآباء أصلاً: لتمرير الرهاب من جيل إلى جيل. اللعنة، لو رأيت رجلاً بمعطف أبيض، سأتعرّق وسأعاني من لعنة ماركس آند سبنسر. هكذا كنّا نطلق في العائلة على نوبة الغضب. فقد تعرّضت لأوّل نوبة غضب في ماركس آند سبنسر بقسم الأطعمة، على ما يبدو. انتابتني حينها نوبة من الجنون لأنّ والدتي رفضت أن تشتري لي لوحًا من الشكولاتة اللذيذة. قالت والدتي إنّها ذابت آنذاك من الخجل. كنت أصرخ بصوتٍ عالٍ وأقفز

على قدميها في الوقت نفسه. وهكذا كلّما كنت أوشك على الدخول في هذه النوبة إلّا وقالت لي والدتي: لا تمارس عليَّ نوبة ماركس آند سبنسر. يعتقد والدي أنّ الأطباء سلالة على حدة، وكان يمتلك مليون وصف سيئ لهم وملايين النكات عنهم. «ما هو الفرق بين الله والطبيب؟ الله يعلم أنّه ليس طبيبًا»، ونكات أخرى كهذه. إذا أراد إهانة شخص مّا كان يقول إنّ خطّه كخطّ الطبيب أو إنّه يتحدّث مثل الطبيب أو يبتسم كالطبيب. ولا داعي للإشارة إلى أنّه عندما يمرض يرفض رؤية الطبيب رفضًا مطلقًا.

ها نحن في عام 1997، ولا أزال حتى اليوم أجهل ما الذي حدث له. كان يعاني من شيء مّا في كبده. قال والدي: آخر مرّة رأيت الطبيب كنت على وشك الموت يا كول. كأنّ الحياة مجرّد لعبة بوكر سخيفة، كنت مدمّرًا للغاية. حاولت إقناعه برؤية الطبيب، ولكنّه لم يقتنع مطلقًا. قرأت في مكان مّا أنّ المرأة المحتضرة أكثر شجاعة من الرجل حين يُحتضر. كان شجاعًا بكلّ تأكيد، ولكنّه لم يكن شجاعًا بما فيه الكفاية ليخبرني بالحقيقة. لم تكن والدتي تريدني أن أقضّي الليلة معه، أرادت أن تكون بمفردها مع والدي.

وهكذا خرجت مع زميلي برادي الذي ترك لي تسع رسائل على المجيب الآلي. قال في الرسالة الأولى، اللعنة يا كول. اتّصل بي. كنت لا أزال أعاني من آثار الكحول في ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى قاعة الجنازات. تقيّأت في مرحاض ذلك المكان المقزّز قبل أن أغادر. تقيّأت كلّ شيء في معدتي، حتّى لم يبق في حلقي سوى مرارة صفراء.

كان سائلاً أصفر لامعًا بطعم الحنظل. لم أشاهد في حياتي من قبل أيّ شخص ميت. لم أرَ في حياتي شخصًا في قاعة الجنازات ولم أرَ أي شخص في هذه الحالة في ذلك المكان. كانت الرائحة جامدة وقاسية وغير حقيقيّة. رائحة مواد التعقيم، لا رائحة النّاس. وكان الهواء البارد يتحرّك في أجواء الغرفة، وضوضاء لعينة تصدر عن مروحة كبيرة يدور ذراعها كموصل سيّئ للهواء.

بدا والدي كأنّه جسد مزيّف، كان كلّ شيء فيه مزيّفا. بدا جلده كأنّه مصنوع من السيليكون. وكانت عيناه مغلقتين، ولكنّني شعرت لو أنّ أحدًا فتحهما، لقفزت في وجهي عينان برتقاليتان لامعتان. بدت يداه كقفّازين بلاستيكيّين، كما لو أنّه لم يحمل ترومبيتاً في حياته، كما لو أنّ الترومبيت مجرّد حلم راود تلك الجثة الهامدة. أردتُ أن ألمسه لأتأكّد من أنّه حقيقي وليس مجرّد تمثال من الشمع، ولكنّني لم أتمكّن من ذلك. فقد تملّكني منتهى الرعب، وتجمّد الدم في عروقي. لم أشعر في حياتي بمثل ذلك الخوف. وضع أحدهم مسحوقًا مّا على خدّي والدي. لا أعلم هل كان الحانوتي أو أيّ شخص آخر.

قال لي الحانوتي إنّه كان في انتظار والدتي لتحضر البذلة مساء، أفضل بذلاته. وأضاف إنّ هذا ما أرادت أن يرتديه، كأنّ الأمر ليس من شأنه. كنت قد نسيت أمّي. نسيت كلّ ما يتعلّق بها. يعني ذلك أنّها كانت تعرف. بالطبع كانت تعرف. ذهبتُ إلى المرحاض، ثمّ هربتُ وتابعتُ المشي في الشوارع التي لم أعرفها يومًا في ذلك الجوّ الحارّ الخانق.

اتّصلت بوالدتي، وقلت لها الكثير من الأشياء التي نسيتها الآن. توسَّلَتْ إليَّ أن أقابلها. قلت لها إنّه سيكون من حظّها إنْ ذهبت حتّى إلى الجنازة. كان يمكنني الشعور بصمتها الأجوف، وكأنّني جعلت صوتها أجوف أكثر فأكثر. لم أستطع التوقّف أبدًا، كنت أصرخ صراخًا مرًّا، صراخاً لعيناً، صراخاً يبعث على التوتر. قالت بعض الأشياء مثل: كولمان حاول أن تتفّهم، وقالت إنّها آسفة مرارًا وتكرارًا، ما جعلني أصاب بالقرف أيضًا. كولمان أنا آسفة، سامحني كولمان، كولمان، كولمان، كولمان. بدأت أشعر بالدوار من تكرار اسمي.

ذهبت إلى الجنازة كما تعلمون، وكذلك فعل عشّاق عالم الجاز، كل أولئك المحاربين القدامى العائدين من الماضي. رجال لا أكاد أتذكّرهم. رجال من ملايين الفرق التي شكّلها والدي قبل أن يتعلّق بشخصيّة جوس مودي. ذا بيغ هيدز، إكسبريسوس، جاز كيدين، ذا إيرل أوف هيلز ويستكوت، جاز ات أب. على أيّ حال نسيت الأسماء الأخرى بالفعل.

لم أرَ في حياتي ذلك العدد الكبير من الرجال يبكون كما كان النّاس يبكون في جنازة والدي، اللعنة. حمل جميعهم مناديل قماشيّة كبيرة مناسبة. لم أكن أبكي، جلست فقط أستمع إليهم يعزفون أغنية أمّي. استرقت نظرة إلى وجهها، إذ لم أكن جالسًا إلى جوارها، ولكن بإمكاني رؤيتها من الخلف على بعد أربعة صفوف. كنت أعرف أنّها تريدني إلى جانبها، ولكنّني لم أتمكّن من ذلك بالفعل، كنت في ذروة الغضب.

استرقت نظرة إلى وجهها عندما كان توبياس يعزف أغنيتها وكانت تبكي. لم تكن تبكي بتلك الحرقة المتوقّعة، بل كان بكاء سلبيًا والدموع دخيلة عليها. لم تكن تتنهّد بعمق. مجرّد دموع مهدورة تنهمر على وجهها ببطء. ربّما فكّرتُ عندما رأيتها على هذه الحالة في الذهاب والوقوف بجانبها. قد يكون كافيًا بالنسبة إليها أن أقف بجانبها فقط، ولكنّني تذكّرت عندها والدي عاريًا في صالة الجنازات، فقلت في نفسي: لا أبدًا، لماذا يتوجب عليَّ فعل ذلك؟

غادرت والدتي أيضًا عندما غادر الآخرون. لم تقف لتصافح النّاس عند خروجهم كما فعلت في جنازة جدّتي. ثمّ رأيتها تغادر في سيّارتها الليموزين الكبيرة بمفردها. استدارت ونظرت إليّ، وحاولت أن تبتسم. أشحت بوجهي بعيدًا. كانت تلك أكثر اللحظات التي كنت فيها على وشك البكاء. لم أتمكّن من النظر إلى والدتي. كنت في حقيقة الأمر مذهولاً لعدد النّاس الذين أتوْا. كلّ واحد منهم في حالة صدمة مزدوجة لعينة. ظهرت المعاطف ذوات الياقات، ونحن في فصل الصيف. ولكن كلّ شيء بدا كأنّنا في فصل الشتاء.

لم أكن في حاجة لأزعج نفسي بإلقاء النظرة الأخيرة. ولكنّني قلت لنفسي إنني في حاجة إليها، كي أتمكّن فقط من حفظها في رأسي لأدرك أنّ هذا الأمر برمّته لم يكن مجرّد حلم. الغريب في الأمر أنّ هذه الصورة لم تكن مفيدة، لأنّ من كان في الكفن وعاد ليرتدي بذلته هو والدي. بدا طبيعيًّا مجدّدًا، كما كان دائمًا باستثناء حقيقة أنّه مات، وبدا جلده غريبًا ولونه مختلفًا، لكن بغض النظر عن ذلك، كان يشبه والدي.

كنت أرى الناس الآخرين يحدّقون في وجهه لفترة قد تطول أكثر من الحاجة، يفكّرون في الأشياء نفسها التي أفكّر فيها. كان يرتدي بذلة زرقاء كتانيّة وقميصًا أبيض وربطة عنق مخطّطة وحذاء أسود لامعًا. لم أكن أعلم أنّ بإمكانك الاحتفاظ بحذائك في التابوت. كان هذا من أغرب الأشياء حقًّا، ولكنّ الرجل الذي كان في التابوت وتلك المرأة التي رأيتها في صالة الجنازات لم يبدوا حقًّا شخصين مختلفين. كان ذهني مشغولاً بكلّ هذا، بدا رائعًا في تلك البذلة الزرقاء. بدا طبيعيًّا مجدّدًا، وميّتًا بالطبع، لكنّه كان طبيعيًّا. وكان هذا أفضل.

الآخرون: أمين السجلّ

شَهِد أمين السجلّ كلّ شيء في هذه الحياة؛ مشاهد وحشيّة من الحزن، وأناسًا غير قادرين على كتابة أسمائهم بيديْن مرتجفتيْن لائمتيْن، أناسًا كأنّهم يحمّلونه مسؤوليّة الموت، وكأنّه حضر بطريقة مّا موت ذلك الشخص المجهول، بل هو من قام شخصيًّا بإيقاف تشغيل الأجهزة الطبيّة وسحب القسطرات، ورفض إعطاءه المورفين. كان يتحكّم بالألم!

لم يكن بوسع محمد نصّار شريف القيام بأيّ شيء ليمنع تلك النهاية الرهيبة لشهادة الوفاة. لو كان بإمكانه حمل الورقة بين أصابعه وهزّها حتى يعيد الميّت إلى الحياة لفعل. لم تكن شهادات الوفاة ببساطة مجرّد قطع من الورق تحمل أسماء وأرقامًا، بل تحمل الأوراق أناسًا حقيقيّين. لا يسمح محمد لنفسه بألّا يتخيّل الشخص الميّت. لم يكن شخصًا ساحرًا، ولكن من السهل تخيّل الرجل الميّت أكثر من الرجل الحيّ. يحتاج نصّار شريف إلى مجرّد جملة واحدة ليتمكّن من رؤيته أمامه مباشرة.

«كان رجلاً يحتفظ بأفكاره لنفسه».

عندما يدخل أيّ شخص إلى مكتب السيّد شريف يمكنه أن يحزر على الفور إذا ما جاء لاستخراج شهادة وفاة أو زواج أو شهادة ميلاد. يمكنه في أحيان أخرى أن يكون أيضًا أكثر تحديدًا من ذلك؛ يمكنه بسرعة تقييم نوعيّة الوفاة: شخص طاعن في السنّ، شاب، موت مفاجئ، أو موت بطيء. يكفي حقًّا أن يُلقي نظرة واحدة سريعة على الشخص الذي يدخل مكتبه. يمكنه التنبؤ أيضًا بنوع الزواج: زيجة أولى أو ثانية أو ثالثة أو رابعة. الزيجة الأولى للزوجة أو الثالثة للزوج، وكان ينجح في ذلك دائمًا.

أشرَفَ السيّد شريف لأربع مرّات في حياته المهنيّة على إصدار وثيقة الزواج السادسة لشخص مزواج. كان في جميع الحالات رجلاً أحمر الخدّين بشعر أشيب، وطويل القامة يرتدي بنطلونًا كريميًّا وسترة رياضيّة حديثة نوعًا مّا. وغالبا ما كانت الزوجة نحيلة وفتيّة بشكل لا يطاق. لم يعد محمد نصّار شريف يقرأ الكتب إلا نادرًا. يُفضّل أن يتذكّر الكتب العظيمة التي قرأها في طفولته، وأن يتخيّل نفسه بصدد إعادة قراءتها في فترة تصوّر أنّ العالم كان أكبر حجمًا بكثير ممّا صار عليه لاحقا.

يقرأ محمد اليوم الوجوه؛ وجه المتقاعدة الفرحة التي جاءت لتسجّل وفاة أحد والديها البالغ من العمر تسعين عامًا. ربّما تحاول أن تُخفي فرحتها، ولكنّها في اللحظة التي تُمسك فيها قلم الحبر الرخامي الجميل لتوقّع في المكان المخصّص، ينساب توقيعها على السجلّ بسرور

واضح. وفي النهاية يبدو أنّ القلم يقول: وأخيرًا جاءت فرصتي للاستمتاع بالتقاعد. كان الكابوس الأسوأ بالنسبة إلى المسجّل هو وفاة الأطفال، لأنّ لديه أطفالا يعشقهم حقًّا.

كانت رؤية وجوه هؤلاء النساء أكثر مشاهد العالم حزنًا. بعض هؤلاء الأمّهات كُنّ يُجبرن أنفسهنّ على المجيء ليتمكّنّ من محاولة تصديق ما لا يمكن تصديقه. يُعطي قلمه لهؤلاء النسوة بلطف شديد، محاولاً صبّ ما يمكنه من الحبّ في هذه الحركة. يتمتّع شريف بعينين لطيفتين. وكانت نظراته اللطيفة ويداه الأنيقتان منتهى ما يمكن أن يقدّمه إلى الموجوعين. يحافظ شريف دائمًا على أناقة مكتبه. كلّ شخص يمثّل حالة خاصّة بالنسبة إليه. وكانت اللحظات الحاسمة أكثر من امتياز في رأيه. هناك بالتأكيد بعض اللحظات القليلة التي تنافس اللحظات الرهيبة النهائيّة لشهادات الميلاد والوفاة والزواج التي يصدرها محمد نصّار شريف.

بلغه من أمناء السجلّات في أماكن أخرى من المدينة أنّ مكاتبهم تتحوّل في أحيان كثيرة إلى ما يشبه ضجيج المصانع. يخرج النّاس ويدخلون وكأنّهم يتحرّكون بشراسة حزام آلة في مصنع، شهادات السرطان أو شهادات الطلاق أو شهادة الوفاة لجنين ولد ميتًا. كلّ هذه الشهادات تتحرّك بسرعة عنيفة متبلّدة الشعور، مغلّفة بالحزن. يعتقد محمد أنّ لكلّ شخص في مكتبه الحقّ في الشعور بلحظة من الهدوء. يجلس معهم للحظة بعد أن يُوقّعوا أسماءهم بقلم الحبر الرخامي الجميل. ومهما كانت حالة الطقس، سواء تمطر على نافذة أمين السجلّ

أو كانت الشمس ساطعة بلا رحمة عند نافذته، كان السيّد شريف يهتمّ دائمًا بأن يحظى الجميع بلحظة من الهدوء. ونتيجة لذلك، على النّاس الانتظار لفترة أطول قليلاً خارج مكتبه. فسواء كانت شهادة ولادة أو شهادة وفاة أو شهادة زواج، يكتسب التوقيع على الورقة أهميّة كبيرة. كان بعض النّاس في عجلة من أمرهم، ربّما كانت شهادة الميلاد السابعة أو شهادة الموت السابعة التي يحاولون استصدارها. كان محمد يحاول أن يتدخّل مع هؤلاء النّاس، ويسألهم بلطف ما إذا كانوا قد حظوا بالوقت الكافي للتفكير في الاسم أو ما إذا كانوا يمتلكون البطاقة الطبيّة الخاصّة بالمتوفّى. صراحة، لم يهتمّ حقًّا بالبطاقة الطبيّة، ولكنّها وسيلة يستخدمها لجعلهم أكثر بطءًا وليتوقّفوا للحظة.

لم يكن ممتعًا بالنسبة إلى نصّار شريف ملامسة مثل هذه المشاعر في كلّ يوم من أيّام عمله، ولكنّه يتمتّع فعلا بوظيفته. لقد أحبّ مكتبه الرائع؛ يحبّ الورق، الورق العالي الجودة، وكان يعرف أن خطّه مناسب للنعيّات. ربّما لا يوجد أيّ أمين سجلّ في أيّ مكان هنا في إنكلترا يتمتّع بفنّ الخطّ الراقي هذا. تدرّب على الخط مذ كان صبيًّا في بنغلاديش. قال له والداه إنّه إذا تعلّم الخطّ الجيّد فسينجح. من المؤكّد أنّ والديه يشعران بالفخر به لحصوله اليوم على مكتبه الخاصّ. كان كلّ اسم يكتبه محمد نصّار شريف بقلم الحبر يبدو برّاقًا، حتى أكثر الأسماء العاديّة والمبتذلة. كان يجد متعة على وجه الخصوص في الأسماء الاستثنائية الطويلة، وكذلك في الاسم الذي يحمل طابعًا خاصًّا.

وكان يستمتع بتلك القصص التي يسمعها عن الأسماء والنقاشات

التي يشهدها حول الأسماء! واكب، في إحدى المرّات، مشكلة بين رجل وامرأة في مكتبه. كانت معركة حامية الوطيس، وغنيّة بالصفعات واللكمات. كان عليه أن يستدعي سكرتيره القويّ لفضّ النزاع. وكانت المرأة من الوزن الثقيل. يكره محمّد العنف، وقد كان موهوبًا في إقناع الأزواج بتجنّب السلوك العنيف. قد يأتي زوجان مع طفل رضيع محمولا في واحدة من تلك الحقائب التي تجعل الأمّ تبدو إلى حدّ مّا كالكنغر. وقد يبكي الطفل في كثير من الأحيان. شهد مكتب السيّد شريف العديد من صرخات الألم الصادرة عن طفل صغير غاضب.

تقضّي الأمّ جانبًا من الوقت تنظر إلى شعر طفلها الناعم. ثمّ ترفع رأسها لتذكر الاسم للسيّد شريف. وفي تلك اللحظة يتدخّل الأب فجأة، ليقول شيئاً مّا مثل: «ليس هذا ما اتّفقنا عليه، أكره هذا الاسم، لن أقبل بإطلاقه على طفلي». وفي هذه الحالات يقترح محمد أن يختار الاسم بنفسه. وكان كلا الوالدين يفاجآن بموافقتهما على الاسم. ويبدو محمد فرحًا باختيار أسماء طويلة ومميّزة. لا يمكن أن تأتي من بنغلاديش وألّا تدرك أهميّة الأسماء، ما الذي يشي به الاسم؟ وما هي الوظيفة التي يمنحك إيّاها؟ لولا اسمه لما أصبح شريف اليوم أمين السجلّ. كان يحبّ أسماء الشخصيّات التي ظهرت في الروايات التي قرأها أو أسماء المؤلّفين.

يتذكر بعضًا من أفضل الخيارات: ثاكيراي براون، ديمتريوس دافي، أيالا لوسي جراي، بوفاري أوكافور. ارتدّ تدخّل نصّار شريف، مرّة أو مرّتين، إلى نتائج انقلبت عليه. حدث أن عاد الزوجان إلى أمين

السجلّ، بعد بضعة أسابيع، ليتّحدا ضدّه ويُطالباه بإصدار شهادة جديدة من أجل إعادة تسمية الصغيرة ثاكيراي. كان الزوجان هذه المرّة متّفقين تمامًا على اسم بعينه، وقد اختارا لابنتهما اسم نايجل. لا شكّ في أنّ التغيير عمليّة معقّدة، ولذلك نصح السيّد شريف الزوجين الغاضبين بأسلوب حكيم أن يحتفظا بالشهادة نفسها، وأن يطلقا على طفلتهما بكلّ بساطة اسم نايجل.

ومع ذلك لم يرَ محمد نصّار شريف في حياته مطلقًا شهادة طبيّة شُطبت فيها كلمة ذكر وكتبت بدلا منها كلمة أنثى باللون الأحمر. وجد محمد ذلك التغيّر الذي حصل في اللحظة الأخيرة جارحًا من الناحية الجماليّة. وبدا له أنّ استخدام القلم الأحمر عمل عنيف لا داعيَ له مطلقًا. يدرك أنّ ذلك يتأتّى من الأطباء الشرعيّين وسائر الأطبّاء المولعين بالقلم الأحمر.

مقارنة بحبره الهندي الأسود الجميل، كان قلم الحبر الأحمر ابن العم الأرعن الثرثار البليد الذي ينبغي أن يُحرم من نصيبه في ثروة العائلة. ربما ذهب نصّار شريف إلى أبعد من ذلك: لا ينبغي لقلم الحبر الأحمر أن يولد أصلاً. كان عبارة عن محتالٍ رخيصٍ يمثّل إحراجًا للورقة العالية الجودة المستخدمة لهذا النوع من الشهادات.

هذه امرأة تجلس في مكتبه، قدّر محمد أنّها في الستين من عمرها تقريبًا. يبدو أنّها تتمتّع بكفاءة رهيبة. أتت وفي حوزتها جميع المعلومات اللازمة، وجاءت في الوقت المحدّد. يأتي الكثيرون بعد خمسة أيّام، وقد يقصدون المكتب بعد عشرة أيّام لأنّهم لا يدركون على ما يبدو

أنّ الوفاة ينبغي أن تسجّل في غضون خمسة أيّام. لا أحد يعرف لماذا لا يعلم الأطباء والممرّضات هؤلاء المواطنين الجاهلين المساكين بكيفيّة القيام بالإجراء الصحيح. يقول لهم السيّد شريف بلطف إنّه كان عليهم أن يأتوا قبل ذلك. لا يوبّخ المتأخّرين عن تسجيل شهادة الوفاة ولا المتأخّرين عن تسجيل شهادة الميلاد أيضًا. جاءت العديد من الأمّهات بعد فترة طويلة امتدّت إلى ثلاثة أسابيع كاملة. وتابعت الكثير منهنّ حياتها مع أطفالها بأسماء سخيفة لفترة تمتدّ إلى اثني عشر أسبوعًا: فروغ، تمشاي، بيلي بوتون، تشيكن باي، بوم، بوبا، وبين... عانى هؤلاء الأطفال من بين جميع الأسماء الموجودة في الكتالوج حتّى اللحظة التي وصلت فيها الأمّ إلى مكتب السيّد شريف لتغيّر اسم وبين إلى حاميش، وبوبا إلى إيلا، وتشيكن باي إلى شارلوت، وتمشاي إلى ماثيو، وفروغ إلى آرون.

جاءت المرأة الجالسة بهدوء في مكتب السيّد شريف في الوقت المحدّد ومعها جميع الوثائق الصحيحة، مع المزيد من الوثائق الإضافيّة التي لا تحتاج إليها حقّا. كان معها شهادة ولادة للمتوفّى تحمل اسم جوزفين مور، ومعها كذلك البطاقة الطبيّة للمتوفّى مسجّلة باسم جوزفين مور على يد الدكتور ميلر في غرينوك بإسكتلندا، ولكنّها لم تُستخدم أبدًا طيلة اثنتين وخمسين عامًا.

لا يوجد دفتر تقاعد، ولكن ضمّت الوثائق أيضا ثلاث بوليصات تأمين مجزية وشهادة زواج للمتوفّى باسم جوس مودي. كانت كلّ هذا الأوراق تمثّل أشياء رائعة بالنسبة إلى نصّار شريف. لم

تنبس المرأة ببنت شفة، فقط سلّمته الوثائق. نظر إليها السيّد شريف من وراء نظاراته النصفيّة. لم يتمكّن من قراءة وجهها، ولم يستطع معرفة ما إذا كانت تشعر بالحرج أم لا. بدت له كأرملة تغمرها بشرة حزينة. أرملة جاءت لتحصل على الأوراق التي ستخبرها بالفعل بأنّ زوجها قد مات حقًّا لأنّها لا تزال غير مصدّقة.

لا يمكن لنصّار شريف أن يحصل على أيّ شيء من كلّ هذه المعلومات، وكأنّها قد جلبت له شهادات وأوراقًا لشخصين مختلفين تمامًا، امرأة ورجل. وفي الحقيقة لو لم يتذكّر أنّ الشهادة الطبيّة المختومة تتضمّن تلك الكتابة العنيفة باللون الأحمر، لافترض أنّه يتعامل مع شخصين وليس مع شخص واحدٍ. عرض السيّد شريف الشهادة الطبيّة على المرأة، ثمّ سألها: «هل انتبهت إلى التغيير الذي أضافته الطبيبة في اللحظة الأخيرة هنا؟»، مشيرًا إلى كلمة «أنثى» المكتوبة بخطّ غليظ. كان من الواضح أنّ السيّدة التي أمامه لم تنتبه للتغيير. طلبت منه إذا كان بإمكانه تسجيله كرجل. وقالت بشكل مبهم، كما بدا للسيّد شريف، إنّه كان من المهمّ لزوجها أن يُسجّل في شهادة الوفاة كما كان في حياته.

لم يسبق لمحمد نصّار شريف أن شعر بالصدمة من أيّ شيء واجهه في حياته المهنيّة، ولكنّ شيئًا مّا في رباطة جأش هذه المرأة قد صدمه. كانت هذه المرأة متزوّجة من المتوفّى لسنوات طويلة. لقد كانت متزوجة بشخص من الواضح أنّه قد عاش حياته كرجل، ولم يرَ أيّ طبيب في حياته حتى لحظة موته، ولم يُطالب بأيّ معاش تقاعدي.

كان نصّار شريف فضوليّا للغاية. أراد أن يسأل المرأة الجالسة بهدوء في مكتبه كيف حدث هذا؟! أراد أن يسألها إذا كانت تشعر بأنّ زوجها كان جذابًا أم لا! ولكن تعلّم محمد أن يكبح فضوله. قال للمرأة إنّه لا يستطيع الكذب في شهادة وفاة.

أعطى المرأة تصريح الدفن: يحصل المتوفّى على ورقة محفوظة بالفعل تُدعى في مجال الوثائق الرسميّة باسم «الورقة الخضراء». وتمنحها هذه الورقة الإذن بدفن الجثمان. طلب منها أن تعطيها إلى مسؤول الجنازات.

عانى السيد شريف بعد أن عرف ما عرف من المقارنة بين الشهادات الموجودة أمامه من مشكلة مع الأسماء. وسأل المرأة إذا ما قامت جوس مودي بتغيير اسمها رسميًّا إلى جوس مودي، فأجابته بأنّها لا تعتقد ذلك. لخّص السيّد شريف المشكلة بعبارة أخرى: في أحد الأيّام التقطت جوزفين مور اسم جوس مودي من السماء وأطلقته على نفسها، وشجّعت الآخرين على أن يحذوا حذوها؟ أومأت المرأة موافقة، بابتسامة خجلى، فخورة بإنجاز زوجها. كانت المرأة شخصًا مثيرًا للاهتمام حقًّا، مع أنّ محمد لم يقابل أيّ شخص مثير للاهتمام منذ زمن طويل. اعترف بأنّه يواجه مشكلة في اتخاذ قرار بشأن الاسم الذي ينبغي وضعه على شهادة الوفاة، لأنّ اسم جوس مودي لم يُسجّل رسميًّا في أيّ مكان.

انحنت المرأة إلى الأمام نحو شريف ونظرت إلى يديه. أشاحت بنظرها إلى النافذة تنظر إلى الشمس في الخارج. ظهرت بضع قطرات من العرق على جبهتها. مرّت لحظة ولم تقل أيّ شيء. خيّم عليهما

الصمت التام. كان صمتًا غريبًا بالنسبة إليها اليوم لأنّها كانت في حالة معنويّة جيّدة.

يمكن لمحمد أن يجلس صامتًا مع هذه المرأة في مكتب تسجيل الشهادات لعام كامل وربّما لعامين. يمكن لأيّ شخص من السكرتارية أن يدخل ببساطة ليقدّم إليهما الطعام ويخرج، ويمكنهما أن يجلسا هناك مثل هذه الجلسة ينظران من النافذة، ويشاهدان انقضاض الطيور الفرادى وهجومها أمامهما أو ارتعاش تلك الشجرة الغريبة. لم يكن على محمد أنّ يتقاطع في التفكير مع هذه المرأة. قامت هي بذلك من تلقاء نفسها لأنّها على بيّنة تمامًا من أهميّة الشهادة. لن تعتبر خطّه الجميل أمرًا مسلّمًا به مطلقًا، بل ستشعر بالسعادة فقد حصلت على شهادة وفاة جميلة. لم يكن يريد أن تصاب الشهادة بأيّ تلف أو أذى. لم يقل لها أيّ شيء، غمس قلم الحبر الرخامي في الحبر الهندي الأسود وكتب اسم جوس مودي على شهادة الوفاة. كتب التاريخ. وتوقّف هنيهة قبل أن يضع إشارة بجانب كلمة «أنثى» في شهادة الوفاة، ثم أعطاها القلم، كما لو أنّ القلم يدعوها إلى الرقص. أخذت القلم بعناية ونظرت إليه، أدارته ببطء لتتفحّصه. ثمّ كتبت اسمها في معلومات أمين السجلّ في سجلّ الوفيات على السطر المنقّط. بدت وكأنها تصلّي أثناء الكتابة. نظر شريف ليرى إذا ما كان خطّها جميلاً كما توقّع. وقد كان جميلاً حقّا، ويدها كذلك جميلة.

ابتسمت له المرأة. كانت تلك العلاقة الحميمة التي نشأت بينهما أشبه بالحبّ. سيفتقدها محمد كثيرًا. قالت: «شكرا لك». ووضعت

شهادتها والأوراق الرسميّة في ظرفٍ كانت قد أحضرته معها، كُتب عليه «يرجى عدم ثنيه». دفعت رسوم نسختها من شهادة الوفاة التي نظرت إليها قبل أن تضعها في الظرف، كما لو أنّها تتأكّد من أنّ كلّ شيء على ما يرام. التقطت حقيبة يدها الجلديّة البنيّة اللون، ووضعت حزام الحقيبة على كتفها. وقالت: «شكرا لك، شكرًا جزيلاً». فتحت باب مكتبه، ثمّ أغلقته بهدوء وراءها.

البيت والوطن

وصلت الرسالة الثانية التي تقول الكلام نفسه، ولا أحد يعرف هذه التفاصيل سوى كولمان. لقد فقدت إيماني، لا أستطيع التركيز على أيّ شيء. البحر يلفّه الضباب. يمرّ النّاس قرب النافذة، فيغطّي الضباب ملامحهم من وراء الزجاج، ولا تظهر الخطوط الفاصلة بين بلاط الرصيف. لا يمكنني الوثوق في أحد. أرفع ياقتي إلى الأعلى عندما أخرج. لا أعرف تمامًا عدد النّاس الذين يعرفون القصّة. جاءت إحداهن إليَّ البارحة، قالت إنّها سمعت عمّا حصل للسيد مودي وأرادت أن تعزّيني. لم أتعرّف على وجهها، كان كبيرًا مستديرًا، وبدا كأنّه منظّف جيّدًا. لماذا لا يمكنني العزف على الترومبيت؟

غسلت شعري هذا الصباح، وعلقتْ خصلات كاملة منه بيدي. يبدو أنّني أبدّل ريشي مثل الحيوانات تمامًا. أقول لنفسي «زوجي الراحل»، «زوجي الراحل»، في محاولة لأعتاد على هذه العبارة. ربّما قابلت شخصًا مثل تلك المرأة صاحبة الوجه النظيف، وقلت: «كان زوجي الراحل يحبّ هذا الطقس»، سأشعر عندها بأنّني أفضل، أنا

متأكّدة من ذلك. البحر عبارة عن ضباب وغشاوة وأسرار وأكاذيب. يجتمع كلّ هذا في ذلك الطقس السيّئ. يمكنني أن أشعر بنفسي أهبط إلى الأسفل، أشعر بشيء مّا يشدّني إلى الأسفل، يجذبني شيء مّا إلى الأسفل في طريق طويل، كأنّني أهبط ببطء عددًا لا نهائيًّا من الدرجات في قبو مظلم، وأدور وأدور بخطوات غير منتظمة حتّى أشعر بالدوار.

يمتلك مفاتيح البيت في «تور»، ولديه مفتاح منزلنا في لندن. لا شيء يمنعه من الوصول إلى جميع أوراقنا الخاصّة والرسائل والصور. لا أحد يعرف ما الذي سيفعله الآن. إنّه غاضب جدًّا ولا أعتقد أنّه سيقوم بذلك. إنّه منهار الآن. يمكنني رؤيته عندما كان صبيًّا صغيرًا، بعمر الثالثة أو أكثر، يعاني نوبة غضب. يصرخ صرخات عالية تثقب الأذنين، صرخات مدوية، يدوس على قدمي لترتخي ساقاه وكأنّه في احتجاج سلمي. يمكنني رؤية نفسي أجرُّه بقسوة، محاولة إعادته إلى المنزل لنبتعد عن نظرات الناس، مستخدمة كلّ القوّة اللازمة لممرّضة الطبيب النفسي.

يا للعار. أشعر بالعار من هذا التصرّف. كنت أخاف منه دائمًا عندما كان في هذه السنّ. اختفت نوبات الغضب في أحد الأيّام فجأة، وتحولّت إلى مشاغبات بعيدة عن ذلك الطفل الصغير المحبّب الذي كان عليه سابقًا. لم يعد بإمكاني السيطرة عليه بعد اليوم. لا يمكنني أن أهدّده أو أعطيه أيّ رشوة. لقد أصبح كبيراً، أصبح رجلاً. ليس بوسعي فعل أيّ شيء.

لا يمكنني أن أصدّق هذا حقًّا. أنت تعتقد أنّك تعرف شخصًا مّا.

تعتقد دائمًا أنّك تعرف ابنك جيّدًا، وتعتقد أيضًا أنّه بإمكانك فعل شيء حيال سلوك طفلك نفسه، وأنّ عليك أن توجّهه وتصحّح تصرّفاته، حتى عندما يكون رجلاً ناضجًا. لا ينضج أولادك بطريقة صحيحة دائمًا. لا ريب في أنّ كولمان لم ينضج حقًّا. بدت بشرتي مشدودة في المرآة، وبدت أوردتي أكثر وضوحًا على بشرتي.

بدأ المطر يتساقط ثانيةً، ولكن بصوت مختلف هذه المرّة. ينهمر على النافذة، ويمتدّ على طول حافّتها. يحاول بعشوائيّة العثور على نهر مّا. أغلقت النافذة بشدّة بقدر ما أستطيع. ازداد الظلام في الشارع على الرغم من أنّ الوقت لم يكن قد تأخّر حقًّا. غيّر المطر لون الشارع والزمن في هذا المكان. بدا كلّ شيء في الخارج ذا طرازٍ قديم وعتيق. يمكنني الخروج الآن ومصادفة أيّ شخص من الماضي، مسرعًا ومغطّيًا رأسه من المطر. اعتدنا أنا ووالدتي في مثل هذه الأيّام عندما كنت طفلة أن نخبز دائمًا الكيك الخفيف، والتورتة وفطيرة التفّاح، فُتات المشمش وكعكات الشاي الإنكليزي والكعكات المسطحة المدوّرة، وسلطة الفواكه الطازجة، وحلوى الفودج، وحلوى تابليت.

أتذكّر خلط الزبدة مع الطحين لفترة طويلة بين أصابعي وإبهامي. نعرضها للهواء أطول فترة ممكنة. ثمّ نقوم بغربلة الدقيق من الأعلى. كانت قواعد الخَبز عند أمّي عبارة عن قواعد أليفة وشديدة الحميمية أكثر من كونها قواعد أخلاقيّة. كان هناك شيء مريح بخصوص هذه القواعد. ما هي النصيحة التي يمكن أن تعطيني إيّاها اليوم؟ يمكنني تخيّلها: آثار الطحين على يديها وقد عقدت المريلة على خصرها وربطت

شعرها إلى الخلف، ولكنّني لا أستطيع تخيّل ما قد تقوله لي الآن. لا يمكنني سماع ولو كلمة واحدة منها.

ابتعدت عن أمّي قليلاً في البداية عندما تزوّجت جوس. لم أكن أريدها أن تقترب من حياتنا كثيرًا. زرتها وأخذت معي كولمان. كانت نادرًا ما ترى جوس. وكنت أشرح لها أنّه يقوم دائمًا بجولات فنيّة لتغطية نفقاتنا. لم تكن والدتي توافق، بل تتساءل: لماذا لا يمكنه الحصول على عمل مناسب؟ هذه ليست الحياة المناسبة لك. أعلنت والدتي فجأة ودون سابق إنذار أنّها ترغب في المجيء إلى لندن لزيارتنا على سبيل التغيير. وقد كان كولمان في الثامنة من عمره تقريبًا. كنت في منتهى التوتر، حتى أنّني لم أتمكّن من الجلوس. نظّفت كلّ مكان في البيت: وراء أنابيب الحمام، وحواف الجدران، وتحت المفروشات. غسلتُ الأبواب والجدران. نظّفتُ أرضيّتي الخشبيّة القديمة حتى التَمَعَتْ. جهّزت وجبة الشاي: لحم الخنزير المدخّن، المدهون بالعسل اللامع، بانتظار تقطيعه، والجبن والخبز الطازج والطماطم اللذيذة، والكعك. كان كلّ شيء جاهزًا بانتظارها. ثمّ أخذت أذرع غرفة المعيشة جيئةً وذهابًا أحدّق في الشارع، في انتظار رؤية غطاء محرّك سيّارة جوس الأوستن الأخضر الداكن يجتاز الناصية. وقد كان كولمان يتحرّك معي في الغرفة متحمّسًا.

كانت السنوات التي قضّيتها في إسكتلندا قد منحت والدتي ذلك الشعور بأنّها أصبحت إسكتلندية. كانت تتحدّث بلهجة غريبة، لهجة عجيبة ومزيفة، بتلك الطريقة التي يمكنك توقّعها من صورة امرأة

على علبة الكعك إذا ما أصبحت حيّة فجأة. كانت تقول كلمة Aye كثيرًا، وكذلك كلمة dinny و tatties. وتتلفّظ بكلمة tatties قائلة «تاو تيز» «tauties». كانت تقول ضعي التاو تيز لتسخنيها.

ربّتت على شعر كولمان وقالت: «يا حبيبي، ما هذا الشعر الكثيف. أعتقد أنّه يجب علينا قصّه»، جعلني ذلك أغضب على الفور. يبدو جوس غريبًا وهو يقف بجانب والدتي. ولم أكن أدرك أنّني منزعجة من جوس إلى هذه الدرجة حتّى الآن. كانت قريبة جداً من الجميع، في موقع حميم بالنسبة إلى الجميع. لا يمكنني التمتّع بأيّ نوع من الخصوصيّة معها في بيتي. أشعر كما لو أنّ الأبواب مفتوحة لتدخل الرياح. ذهب جوس ووضع الغلاّية لتحضير الشاي. قلت لها «أنا سعيدة جدًّا بزيارتك» ولففت ذراعي حولها وضغطت بقوّة محاولة طمأنة نفسي. نظرت إلى شعرها. سرّحَتْ شعرها تسريحة جديدة عندما أتت لزيارتنا. سرَّحَتْهُ بمجفف الشعر. لم تكلّف نفسها عناء شطفه أو صبغه أكثر من ذلك. يبدو شعرها رمادياً وأشقر قليلاً.

أصيبت أمي بمرض الثعلبة عندما كنت في سنّ المراهقة. كان الأمر أشبه بكابوس. كنّا نمشي في الشارع فتقول والدتي: «ميليسنت، هل تبدو صلعتي للناس؟» أمسكت يدها بقلق مربّتة عليها من جهة رأسها في ذلك اليوم العاصف. كانت تمشط شعرها بعناية لتغطية صلعتها الشاحبة الظاهرة، ولكنّ الرياح كانت قادرة على تبديد كلّ تلك الجهود. ثمّ تظهر فجأة جامدة بجسدها الضعيف محشورة في ذلك الشعر البنيّ الكثيف. جعلني هذا أحبّها حبًّا جمّا وأرثي لها. الثعلبة،

كلمة غريبة، كلمة لعينة وجميلة. أشبه باسم زهرة نادرة، الثعلبة. لا تبدو عليها أيّ من آثارها اليوم. لا بدّ من أنّ ذلك قد أثّر في مشاعري كثيراً لأنّني لا أزال أحتفظ ببعض اللمحات الخبيثة رغم مرور كلّ هذه السنين. يا لتلك العلاقة الحميمة المريعة بين الأمّهات والبنات. لاحظت قشرة الشعر على كتفيها وحاولت نفضها عنها. بدت رقائق قشرة الرأس كبيرة للغاية وغير طبيعية.

أظهر لي جوس جانبًا من والدتي لم أكن أعلم أنّه موجود أصلاً. يمكن للأشخاص الجدد اكتشاف ذلك حقاً. يمكن لأولئك الأشخاص من خارج العائلة أن يكشفوا لك عن ذلك الجانب المضيء رغم كلّ تلك الطبقة السميكة التي كانت تختفي تحتها لسنوات عديدة. لم أحلم يومًا برؤية والدتي ترقص مع زوجي في غرفة المعيشة أو أن تحاول تجربة ترومبيته أو أن تسهر معه حتى وقت متأخّر تتحدّث عن مدى الغيرة التي كان عليها والدي، والدي الضعيف الهادئ.

وجدت والدتي مستمتعة بالفعل، وتتحادث مع جوس باهتمام وإنصات. سمعت قصصًا لم أسمع بها من قبل، وأخرى سمعتها مرارًا، ولكنّها بدت اليوم فجأة مسلّية ورائعة. لم أستطع فهم شيء، هل كنت سيئة معها خلال كلّ تلك السنين؟ أو هذا ما يفعله جميع الأطفال مع أهلهم؟

كان جوس مصابًا بأنفلونزا رهيبة في إحدى زيارات والدتي، وكان يشكو حمّى شديدة. أصرّت أمّي آنذاك على استدعاء الطبيب. كانت تؤمن بالمرض كما يؤمن البعض بالله. كانت محمومة وتقية وعارفة به

للغاية. إنّه يحتاج إلى مضادّات حيويّة. ربّما تكون هذه الحمّى واحدة من أمراض الحمى الأجنبيّة القاتلة، هل سمعتم عنها؟ أنفلونزا الصين. تأتي هذه الحمّى مع الرياح من الخارج. لقد عرض التلفاز برنامجًا حول هذا الموضوع. اذهبي إلى طبيبك حالاً يا ميليسنت وإلا ستنتقل إليك العدوى. يمكن لهذه الحمّى أن تودي بحياتك. لماذا لا تتّصلين بالطبيب على الفور بحقّ السماء؟ كنت أريدها أن تذهب، وأن تتركني أعتني به فقط.

لن يقبل جوس أبداً برؤية الطبيب. ربما تدمّر زيارة واحدة للطبيب حياتنا بأكملها. لم يرغب جوس في رؤية الطبيب، حتّى عندما كان يحتضر. أرادت أمّي دخول غرفتنا، لتحوّلها إلى واحدة من تلك الغرف المظلمة الرائعة لأمراض الطفولة، وأن تغلق الستائر وتغيّر أغطية السرير، وتمسح جبينه بين الفينة والأخرى بكمّادة باردة، وأن تمسك بيده، وأن تستمع إلى هذيانه في الحمى. ولكنّني لم أسمح لها بالدخول. كنت دائماً أكرّر لها أنّ جوس شخص يفضّل الخصوصيّة. قالت لي: «لا يبدو لي أنّه يُفضّل الخصوصيّة إلى هذه الدرجة»، لتعود إلى عادتها القديمة في مناكفتي ومعاكسة كلّ ما أقوله.

تقول أمّي دائماً: «لا يمكنك أن تعرفي بالفعل ما يجري بين أربعة جدران. فلكلّ أسرة أسرارها المظلمة الخاصّة بها، ولا يمكنك اكتشافها أبداً». كانت تقول أيضا: «ينبغي ترك النّاس وشأنهم. من أنا لأحاكم الناس؟»، «هذا شأنهم الخاصّ. لا تحشري أنفك في شؤون الآخرين». هل كانت لتقول هذا الآن لو كانت على قيد الحياة؟ هل

كانت لتقتنع بدفاعي وتدعمني؟ هل ستدفع النّاس عنّي وتقول لهم: «دعوها وشأنها»، أم ستتحدّث إلى الصحافة أيضًا مثل أصدقاء المدرسة القدامى، وأعضاء الفرق الموسيقيّة، والجيران وجيران الجيران، وبائع الجرائد، والحلاّق، والحانوتي، وولدنا نفسه؟ لا لن تفعل ذلك أبدًا، كانت أمّي ستتصدّى لكلّ هؤلاء بقوّة. هل كانت ستفعل حقًّا؟ بالطبع، لا بدّ أن تقف معي بقوّة.

نظرت حولي فوجدت نفسي في غرفة كولمان. لا أتذكّر كيف جئت إلى هنا. ولكنّني جالسة على سريره المنخفض وفي يدي زجاجة قديمة. زجاجة خضراء معتّقة. اعتاد كولمان استخراج هذه الزجاجات من البحر. هناك صورة لكولمان وبيكلز معه. كان كولمان في الخامسة عشرة أو نحو ذلك، مرتديًا معطفًا صوفيًّا بشعره الطويل ومظهره البرّي. لا يمكنني تذكّر الاسم الحقيقي لتلك الفتاة، ولكنّني كنت أدعوها بيكلز لأنّها تحبّ كافّة أنواع المخلّلات؛ الخيار المخلّل والبصل والشمندر والكرنب. أتساءل أين هي بيكلز اليوم؟ لقد أحببتها. كانت علاقتها رائعة مع كولمان. ولو كانت بيكلز هنا اليوم لما أقدم كولمان على إصدار هذا الكتاب. جمعت كلّ شيء في غرفته، كنت أخطّط للقيام بذلك لسنوات؛ رسوم كاريكاتوريّة قديمة وكتب وأحجار وصدف وزجاجات وأحذية وصور وتسجيلات. «دارك سايد أوف مون»، استمرّ يشغّل هذه الأغنية لمدّة صيف كامل هنا. جمعتُ كلّ ذلك وأخذته بعيداً. يملؤني شعور عارم بأنه قد مات بدوره. من المؤلم حقًّا إنهاء جمع الأغراض من الغرفة الصغيرة. تمثّل تلك اللمبة العارية دمعة أيضًا. «يحتاج السرير العاري إلى شخص مّا

من حكايات الأطفال ليأتي ويغفو عليه بعمق لسنوات. ذهبت إلى الخارج ونظرت إلى الخلف، إلى ذلك الكوخ القديم.

كان جاثمًا على جانب واحد تقريبًا، منتظرًا بموقف دفاعي. ذهبت إلى القرية لأحضر أغراضًا تكفيني. كان الهواء متموّجًا يحمل لدغة في الجزء الخلفي من حنجرته الطويلة. وكانت السماء شاحبة مدلهمة، وخالية من أي نوع من الشفقة ومفرغة من كلّ عاطفة. لا يمكن للسماء أن تبكي اليوم. البحر مظلم وهائج. كان صوته عاليًا حتّى أمكنني سماعه داخل رأسي. موجة هائلة تلو الأخرى، وكأنّه يرمي الأسئلة. ذهبت إلى متجر الجزار بروس سافاج. طلبت أربع قطع من السجق وشريحتين من السجق الأسود ونصف رطل من اللحم المفروم وقطعتين من لحم الضأن وشريحة لحم بقري. سأقوم بوضع بعض اللحوم في الثلاجة. سمع الجزّار الأخبار. قال لي إنّه آسف عندما كانت يداه الكبيرتان تضعان السجق في الورق الشفّاف وتلفّانه بعناية. كانت أصابع السجق الغنيّة بالدهون لينة. أراد أن يعرف كيف مات جوس. لا يخجل الجزّارون من التفاصيل المروعة، بل يهتمون بالجسد. تمنّى الجزّار أنّ طريقة الموت لم تكن مؤلمة. هل هذا عبارة عن سؤال أم تصريح؟ ارتفع صوته في النهاية وتابع الانتظار. شحذ السكّين الكبيرة. أومضت عيناه بالتعاطف، وكان وجهه محمرًّا كشريحة اللحم النيّئ.

قلت له: «نعم، كان موته مؤلمًا للغاية، وأنا اليوم خائفة من الموت. لا أؤمن بالموت غير المؤلم». وتابعت: «يكذب النّاس بخصوص الموت،

تمامًا مثلما يكذبون بخصوص الولادة. لذلك كانوا يكذبون. يقولون غرق في النوم. والوضع ليس كذلك أبدًا». كنت على وشك الخروج، ولكنّني شعرت بعيني بروس تحدّقان فيّ. نظرت في عينيه عميقًا، لقد كانتا غارقتين في الفزع. بدت روحه كأنّها تهتزّ. قال بروس الابن: «يمكن أن يحصل هذا لأيّ منّا، وفي أيّ لحظة». سألته عن والده، فقال لي إنّ والده في حالة سيئة وقد أصبح نباتيًّا. سألته: «وماذا عنك، هل أنت نباتي أيضًا؟». قال بروس الابن: «لا، بل أحبّ تناول اللحوم التي أبيعها». أجبته: «أحبّ اللحوم أيضًا». فقال بفخر كبير: «أعني لا تنسي أنّني جزّار، وأحبّ اللحوم التي أبيعها». قلت له وأنا آخذ الكيس عن الطاولة، ولكن بهدوء: «عليك الإنصات لقلبك». أومأ بروس ضاحكًا، وضرب بقبضته على مريلته الملطّخة بالدم: «نعم، هذا صحيح، كان عليك رؤية القلب القديم. لديك قلب ينبض فقط».

تركت متجر سافاج حاملة اللحوم في كيس بلاستيكي. شعرت باللحوم رطبة وليّنة على ساقي. مشيت في الشارع الرئيسي وكان البحر ورائي. توقّفت حافلة «لاير» ونزل منها رجل يبدو نسخة عن جوس. شعرت بالضعف، قلت لنفسي في جزء من الثانية لقد انتهى كابوسي. عاد جوس، جوس على قيد الحياة. تبعته حتى الناصية. التفت للحظة ونظر إليّ. كان أنفه مختلفًا. شعرت بالتعب من خيبة الأمل. جلست على مقعد محطّة الحافلات محدّقة في التلال البعيدة. ماذا لو لم يمت جوس؟ ماذا لو مِتُّ قبله؟ وصلت حافلة «كبير» وفكّرت في ركوبها، ثمّ ركوب حافلة أخرى وأخرى، حتى أجد نفسي في نهاية المطاف

في مكان لم أسمع به مطلقًا. استجمعت كلّ ذرة من قوّتي وتحرّكت حاملة خضرواتي. لا أعرف كيف تمكّنت من فعل ذلك. لا أعرف لماذا مازلت على قيد الحياة. لو أنّني مِتُّ قبله لما مررت ربّما بكلّ هذا. ما الذي يهمّ جوس الآن؟ الموتى لا يفكّرون في شيء، أليس كذلك؟ كم أكره جوس!

تتمتّع جان التي تعمل في متجر الفواكه بواحد من تلك الوجوه التي تفهم كلّ شيء. لا شيء يمكن أن يصدمها. لم يكن لديها أيّ عدوّ في حياتها. يمكنني الجلوس وحكاية قصّة حياتي بأكملها لتلك العيون الرماديّة الرائعة، وأنا متأكّدة من أنّها ستبكي. عندما تبتسم، تتغضّن التجاعيد وترقص حول عينيها الرماديّتين. حزَمَتْ أغراضي بعناية، كما لو أنها تهتمّ بي للغاية. الأشياء الثقيلة في الأسفل والخفيفة في الجزء العلوي. ثمّ وضعت العنب بأناقة أعلى الكيس. حتى يداها كانتا تبدوان لطيفتين. أعادت ترتيب عدد من أكياس الورق البنيّة اللون بعناية. «ها أنت مجدّدًا أيّتها السيّدة مودي». هذا كلّ ما كانت تقوله لي. وقد كنت في تلك الأيّام على استعداد للموت لسماع جملة واحدة كهذه. كان هناك شيء مّا في الطريقة التي تلفظ بها هذه العبارة، شيء حميمي ورقيق. «ها أنت مجدّدًا أيّتها السيّدة مودي».

سرت عائدة إلى أعلى التلّة، إلى «تور»، ببطء، حاملة كيسًا في كلّ يد لأتوازن. كلّ شيء يتحرّك مع الريح؛ الأسوار الخضراء، والأشجار، والورود. كلّ شيء يكافح للحفاظ على ثباته وتوازنه. هبّت الريح عليَّ ودفعتني إلى الوراء بقوّة. ومنعتني من التقدّم الذي

أحرزته في المشي، بدوت كأنّني أمشي في بحيرة من الدبس. توقّفت عند روز كوتاج لآخذ قسطًا من الراحة. لم يعد البيت بعيدًا، عندما أدخل سأحظى بكوب من الشاي وأنتظر قدوم صانع الأقفال.

وصل السيّد بارتون في الساعة الثالثة والنصف تمامًا، فقد نظرت كثيرًا في وجه الساعة الغريب اليوم. جاء في موعده المحدّد كما توقّعت. يمكن معرفة الأشخاص الدقيقين في مواعيدهم بمجرّد النظر إلى وجوههم الدقيقة. لطالما كانت ملامح الأشخاص الدقيقين في مواعيدهم أكثر حدّة وتميّزًا. لم يكن جوس يحترم مواعيده مطلقًا. لقد أحبّ أن ينتظره النّاس. في بداية علاقتنا كان يبقيني منتظرة خارج مقهى بوتس لمدّة ثلاثين دقيقة. اعتقدت أنّه يريد أن يدوّخني. وكنت على وشك البكاء عندما وصل أخيرًا مدعيًا أنّ سائق الحافلة قد تعرّض لنوبة صرع.

السيّد بارتون تود رجل نحيل طويل القامة، محنيّ الكتفين يرتدي معطف عمل رماديًّا. كان شعره رماديًّا أيضًا وينسدل على وجهه. لذلك فهو يدفعه إلى الخلف دائمًا. كانت يداه عبارة عن يدي صانع أقفال حقيقي، فهو يتمتّع بقبضتين حديديّتين صلبتين. وكانت أظافره قصيرة ومدرمة مقلمة بشكل جيّد. كان مسنًّا. يقوم الآن بفتح ثقب في بابي الخشبي، يطرق عليه بإحدى أدواته. أشعر بالأمان للمرّة الأولى منذ أسابيع. شعرت كأنّني أريد أن أطلب منه البقاء معي والاهتمام بي وبأبوابي وبحديقتي.

وضع لي شبابيك خارجيّة، ووضع سلسلة على القفل الخارجي.

قلت لنفسي لقد أصبحت أفضل بالفعل. خزّنتُ طعامًا لعدّة أيّام. ولديَّ قفلٌ جديد ومفتاح. ووضعتُ أقفالاً على النافذة. لطالما شعرت بالأمان في الأوضاع الطبيعيّة، ولكنّني سألت السيّد بارتون تود عن تكلفة شبابيك إضافيّة لأنّ شعورًا آخر مختلفًا قد تملّكني. أَقفالٌ للنوافذ وشبابيك إضافيّة وسلاسل. أنا في «تور». لا تزال منطقة «تور» قرية صيد آمنة نسبيًّا. ولا يزال البعض يتركون أبوابهم مفتوحة، ولكنّ السيد بارتون تود يقول: «الاحتياط واجب»، عبارة تبدو مناسبة للغاية بالنسبة إلى صانع الأقفال. يتابع قائلاً: «لقد تزايد معدّل الجريمة عن الفترة السابقة، لا يمكنك أن تتوقّعي المحظور بالطبع».

لم تعد «تور» كما كانت من قبل، منذ وصلت إليَّ الرسائل. أصبح المكان جديدًا تمامًا مع أقفال «تشاب آند ييل» الجديدة. من المألوف أن تتغيّر الذكريات المألوفة في كلّ مرّة مثل الذاكرة أيضًا، تتغيّر تمامًا. يبدو حجم الغرف مختلفًا اليوم. تبدو أصغر بكثير، وتبدو رفوف المطبخ أعلى وصفّارة الغلاّية أعلى بكثير. وحتّى صوت سيفون الحمّام يبدو مرتفعًا جدًّا إلى درجة أنّني أقفز كلّما سحبته. تجعلني المرايا في الكوخ أبدو مختلفة كثيراً، حتّى أكاد لا أتعرّف على نفسي. أبدو أكثر نحولاً.

معظم النّاس يخسرون الكثير من وزنهم أو يزداد بقدر كبير بعد الموت. صرتُ أكثر نحولاً بالتأكيد. أصبحت اليوم هزيلة فجأة، من شدّة الحزن رغم كلّ تلك الحميات الغذائيّة التي اتّبعتها سابقًا. يبدو المصباح الطويل في غرفة المعيشة خافتًا جدًّا مع أشرطة الزينة الطويلة المتدلّية منه. ولا تزال أريكة جوس تحمل شكل جسده عليها، في

انتظار عودته، كانتظار الكلب جريفريير بوبي لصاحبه. هناك مزهريّة فارغة على الطاولة قرب النافذة. كنّا نملؤها عادة بزهور أمّ رويس Scabiosa، ووردة الذرة، وزهور الكامبيون. كان عليّ جلب بعض الزهور.

قبل أن أفتح الرسالة الثانية هذا الصباح، وجدت ملاحظة قديمة بخطّ جوس. الكثير من الأعمال اليوميّة البسيطة: رينغ هاري، ملاحقة المحاسب، رينغ بيغ ريد، السيّارة. كان جوس قد وضع إشارة سخيفة بخطّ يده اليسرى بجانب كلّ مهمّة أُنجِزت. حيّرتني إحدى هذه الإشارات؛ كتابةِ رسالة إلى آي آم. لم أتمكّن من معرفة مَن قد يكون آي آم هذا. قضّيت اليوم بأكمله أحاول معرفة من يكون. وضع نجمة بجانب هذا الاسم، ولم يضع إشارة كالبقيّة. طويت قائمة الملاحظات الصغيرة ووضعتها في حقيبتي. بدا الأمر كما لو أنّني حصلت على خصلة من شعر جوس الأسود المجعّد. تمتّع جوس بشعر أسود كثيف جميل. أتساءل في نفسي ما إذا كان شعره كثيفاً دائمًا؟

أدركت حينها أنّ هناك الكثير من الأشياء التي لا أعرفها عن جوس. لقد سألتني أن أخبرها بكلّ شيء عن طفولته، ولكنّني لا أعرف أيّ شيء عن طفولته. أعرف أن اسمه كان جوزفين مور، وحتّى هذا استغرق وقتا طويلاً لكي يخبرني به. أعلمني بذلك عرضيًّا في أحد الأيّام عندما كنّا نشاهد برنامجًا يتحدّث عن تبنّي جوزفين بيكر للأطفال الذين دعتهم «قبيلة قوس قزح»، قال جوس بهدوء «كان هذا اسمي». قلت له: «ماذا قلت؟» لم يكن لديّ أدنى فكرة عمّا كان

يتحدّث عنه. «جوزفين، سمّتني أمّي جوزفين على اسم شقيقتها». صعقتني المفاجأة، لم أستطع أن أقول أيّ شيء. أتذكّر أنّني استهجنت تلك الفكرة حينها، فكرة أن يكون لجوس اسم آخر. بصراحة كانت فكرة مخيفة. اضطربت للغاية، فقد كانت فكرة غريبة أنّ جوس لم يكن اسمه دائماً جوس، بل كان اسمه في يوم مّا جوزفين مور. صرت لاحقًا أسأله أحيانًا كيف كانت حياته حينها، ولكنّه ظلّ يقول كلّما جاء اسم جوزفين مور على لساني: «دعيها لحالها» كما لو أنّه يتحدّث عن شخص آخر. لطالما تحدّث عنها كشخص آخر. ولكنّي لا أعرف أيّ شيء حقًّا عن جوزفين مور. لا أعرف عنها أيّ شيء على الإطلاق. لا يمكنني تخيّل شكلها، ولا شعرها، ولا كيف كانت تسرّحه. لا أريد أن أتخيّل أصلاً.

خيّم الظلام في الخارج، ظلام رصين وعميق وكتوم. بدأت أعتاد قليلاً بعد مجيئي إلى هنا على نوعيّة الظلام. ظلام ريفي ثقيل عميق، ظلام مطلق وعنيد. عندما أخرج لأتأمّل الظلام، أشعر كأنّه ظلام شبه نهائي. فحتّى النجوم لا تخترق الظلام العميق المخيّم على الأسيجة والممرّات الصغيرة والنواصي المفاجئة. فأغلقتُ الستائر. كان البحر هناك لا ينبئ بأيّ خير. فأشعلت النار، ثمّ ألقيت جريدة عليها، وأمسكتها من طرقها بإحكام ومررّتها على جانبي الموقد إلى أن شاهدتها تتهاوى رمادًا.

يمرّ الموت ببطء حتّى على الموتى. يمكنني أن أشعر بوجود جوس في الغرفة كلّما اشتدّ أوار النار. كان يشهق ثمّ يزفر، يشهق ثمّ يزفر.

يتراخى دقيقة، ثمّ يشدّ عضلاته في الدقيقة التالية. أراه يسحب الهواء ليملأ بطنه بأكمله، ثمّ يطلقه مجدّدًا. وعندما يملأ بطنه حتى ينتفخ، أفرك الجزء الخلفي من يده حتى يخرج الهواء من جديد. يمكنني رؤية جوس الميت بوضوح شديد الآن. كان في غاية الاختلاف عن جوس الحيّ. لا يشبه جوس عندما كان يحتضر، لا يشبه الرجل الذي تزوّجته. في الحقيقة لا أعرف من كان يشبه. ربّما بدا في نهاية المطاف أكثر شبهًا بها. بدا أشبه بجوزفين مور.

كيف كان شكل جوزفين؟ هل كانت تلعب الحجلة أم بالبلي؟ هل كان لديها أصدقاء؟ هل كانت قريبة من والدتها؟ هل اشترت يومًا لعبة 78، وأسرعت بالعودة إلى البيت للعب بها؟ هل تسلّقت الأشجار؟ أتراها لعبت بالدمى؟ وهل وقفت على أبواب الحانات التي تعزف موسيقى الجاز في المطر، مُميلة رأسها من فرط المتعة؟ هل مرَّ بها كلبٌ ضالٌّ ونبح على الضوء الغريب في صفحة القمر؟ وهل كانت تلك هي الليلة التي قرّرت فيها أن تغيّر حياتها بأكملها؟ لا أريد أن أفكّر فيها. لماذا أفكّر فيها؟

إذا جاء معها سأقول شيئًا واحدًا فقط، وسيكون كافيًا.

لم أفكّر في ذلك على الإطلاق. تقول رسالتها: لو كنت حيًّا اليوم بعد كلّ ما حدث هل كنت لتُغيّر ما قمت به؟ ولكنّك لا تعيش اليوم بعد كلّ ما حدث، أليس كذلك؟ لهذه الحياة بعد كلّ ما حدث شكل مختلف حقًّا. تغيّر شكل كلّ شيء.

عندما يأتي كولمان إلى منزلنا، موجّهًا مشعل الإدراك الكبير

الواضح لكلّ ما حدث بعد فوات الأوان في كلّ أرجاء البيت، سيجد في حديقتنا نباتات لم نزرعها سابقًا. حمل أحد المقالات الصحفيّة العنوان التالي: «الحياة في الوهم». لقد وجدوا أشخاصًا ادّعوا أنّهم أصدقاء جوس، وقالوا أشياء مثل: «لقد خَدَعَنا تمامًا»، ولكنّهم مخطئون. لم أشعر أبدًا أنّني كنت أعيش في كذبة أو في وهم. كنت أشعر بأنّني أعيش حياة حقيقيّة. الإدراك بعد فوات الأوان هو الكذبة.

اهتزّت شجرة الكرز التي زرعناها لكولمان في عيد ميلاده وراء الستائر. انتبهت اليوم إلى أنّ جذورها تشقّ طريقها نحو المنزل. كانت الجذور مثل أصابع طويلة ملتهبة ملتوية وتالفة. أعتقد أن عليَّ إزالتها قبل أن تطيح بالمنزل. تفحّصت أقفالي ذات العلامة التجاريّة الجديدة. من كان يظنّ يومًا أنّني سأقوم بتغيير الأقفال لمنع ابني من الدخول؟

كان السرير مستلقيًا هناك ببساطة عندما دخلتُ غرفة النوم، كأنّه يقول لي ها أنا هنا مجدّدًا. كنت ما أزال بانتظار المعجزة، أن أصعد الدرج مثلاً لأجد جوس في السرير بانتظاري. كنت أشعر بقشعريرة كلّما دخلت الغرفة لأجدها فارغة. الحزن يجعل بعض الأشياء تتكرّر باستمرار. الأمل السخيف أوّلاً، ثمّ الذكرى العنيفة ثانيًا. يموج الأمل أوّلاً، ثمّ ينسحب البساط من تحت قدميك. ماذا لو عاش جوس ومتُّ أنا. ماذا لو رأى جوس الطبيب. ماذا لو أجبرت جوس على رؤية الطبيب. تدور الأشياء نفسها في رأسي طيلة النهار والليل. أخشى أن أنام في كلّ ليلة. أعلم أنّ جوس سيجدني، أعلم أنّني سأستيقظ لأنسى، ثم أتذكّر مجدّدًا.

كان جوس يرتدي بذلة مخطّطة. وعلى قميصه القليل من الأزرار التي تمسك بالياقة. وكان يضع أزرار أكمام القميص التي اشتريتها له، ويحمل ترومبيته. يشير إليّ لأتبعه، عاقدًا أصابعه الطويلة الجميلة على شفتيه. نحن في محطة فيكتوريا كوتش. يحمل جوس تذاكر كتب عليها إسكتلندا. أعطاني كيسًا كبيرًا من البلاستيك مكتوبًا عليه سيلفريدجز. دفعني إلى حمّام السيدات، وقال: «بدّلي ملابسك بسرعة». كان في الكيس فستان أخضر فاتح يشبه قليلاً الثوب الذي ارتديته يوم زفافي. ارتديت الفستان وخرجت إليه، لكنّه بدا مرعوبًا. صرخ في وجهي: «ما الذي تفعلينه؟» وأمسك بمعصمي. نظرت إلى نفسي لأجدني مرتدية بذلة مخطّطة وليس الفستان الذي ارتديته في الحمّام. نظرت إلى جوس وقهقهت ضاحكة. كان يرتدي الفستان الأخضر، ولكنّه يرتدي في قدميه حذاء رجاليًّا، وكنت أرتدي حذاء نسائيًّا. كنّا نبدو مضحكين للغاية. أشرت إلى قدميه وضحكت بهستيرية. نحن الآن في الجزء الخلفي من الحافلة نتبادل الأحذية. وضعت ذراعي حول كتفي جوس لتهدئتها. كانت تبكي وتفرك عينيها، ثمّ بدأت بالانكماش. أصبت بالذعر، أردت أن أخبر أيّ شخص، ولكن ليس من حولي أحد لأخبره. كان الجميع في الحافلة عبارة عن دُمى، لا يوجد بشر حقيقيّون. انكمشت وانكمشت حتى أصبحت فتاة صغيرة بفستان أخضر. أصبحنا في الشارع وكنت أمسكها من يدها. جاءت حافلة صفراء وبرتقاليّة كبيرة في اتجاهنا.

نظرت إلى السائق، فكان جوس. كان يتّجه مباشرة إلينا. صرخت بأعلى صوتي: «جوس أنت تقتل نفسك!» ثمّ استيقظت. لم يعد بإمكاني البقاء في السرير لفترة أطول. لم تشرق الشمس بعد، ولكنّني أردت أن

أرتدي ملابسي. ارتديت سراويل ملوّنة، وسترة كشمير بلون التفاح الأخضر. حدّقت في نفسي في المرآة كما لو أنني شخص آخر، وكأنّني أقول لنفسي: «هل أعرفك؟ هل ذهبت يومًا إلى مدرسة سانت كاترين للبنات؟».

جلست قبالة كرسي جوس. كانت الأيّام القليلة الأخيرة في حياته تعاود المرور أمامي مثل فيلم، مثل جزء معيّن من فيلم أشاهده مرارًا وتكرارًا، ولا يمكنني إيقافه. يحدّق جوس في وجهي، لا يحاول أن يتكلّم. لا يمكنه تحمل وزن جفونه. يغمض عينيه ويفتحهما. مسحتُ جبينه. هيّأت وسائده كممرضة خبيرة. أقول له إنّني إلى جانبه، وإنّني لن أبتعد عنه. أخبرته بأنّني أحبّه. لا يريد الذهاب إلى المستشفى، أعلم أنه لا يريد الذهاب إلى المستشفى. هيأت له وسائده وتأكّدت من أنّ الوسادة السفليّة الصغيرة تلائم ظهره. ثمّ رفعت الوسائد تدريجيًّا حتى تصل إلى الجزء الخلفي من رأسه. عليّ القيام بذلك بانتظام كلّما انزلقت الوسائد. إذا كان وضع الوسائد مناسبًا يشعر براحة أكبر، ويمكن عندها أن تنمّ عنه ابتسامة طفيفة.

عانى لمدّة ثلاثة أيّام. لم أنم على الإطلاق خلال تلك الفترة. لم أنم على الإطلاق. كنت أهذي وأغيب عن الوجود معه. كان الزمن غريبًا بالنسبة إلينا. أصبحنا نعيش في زمن خاصّ بنا. كان الضوء يظهر ويتلاشى، ثمّ يظهر ويتلاشى مجدّدًا. كان مثل الملاك الحزين الذي يطير في السماء، ينساب فيها ولكنه يبدو ساكنًا، يطير في مسرح الأحداث. جوس لا يأكل الآن، يأخذ رشفات بطيئة من الماء. وصار

يغمض عينيه معظم الوقت. كان يعلم أنّني هنا معه، يمكنني الشعور به ويمكنه الشعور بي. لم نعد نستخدم الكلمات بعد الآن. لم يكن باستطاعته الكلام ولم يكن بإمكاني الكلام أيضًا. لقد تخطّينا الكلمات. كنّا هناك حيث تقطّعت فينا السبل خارج الزمن واللغة. كان مستندًا إلى الوسائد وكنت أجلس إلى جانبه. ألمس جبينه باستمرار. وأمسّد شعره. كان شعره متعرّقًا وملتصقاً بفروة رأسه. يمكنني أن أشعر بموته في داخلي. أصبحنا قريبين من بعضنا مثل الجنس، مثل الولادة. شعرت بأنّني أجفّ بسبب مرضه، وشعرت كأنني أعطيه دمي.

أمشي معه إلى أقصى الحدود، واضعة ثقله على كتفيّ. أصبح خفيفًا الآن. شعرت بأنّه يَعبُر، عرفت أنّني ينبغي أن أعود أدراجي. تركته هناك، وفي الوقت نفسه عدت به. ذهبت إلى الحمّام، لم أستطع أن أتمالك نفسي. حاولت أن أحرّك قدمي المتثاقلة على السلالم. عندما عدت إلى الأسفل، كان جوس قد مات. لم تكن عيناه ترتعشان ولم يكن قلبه ينبض. حاولت أن أنصت لنبضه لوقت طويل جدًا كي أتأكّد.

أنظر إلى نفسي في المرآة كما لو أنّني شخص آخر، لم أعد أشعر بنفسي أبدًا. من هي ميليسنت مودي؟ جوس مودي قد مات. جوس مودي لم يعد جوس مودي. كان جوس مودي شخصًا آخر حقًّا. هل صرتُ شخصًا آخر أيضًا؟ ولكن من كان جوس حقًّا؟ من كان هذا الشخص الآخر؟ لا أفهم ذلك أبدًا. هل كنت أُمًّا جيّدة أو زوجة صالحة أو لم أكن أيّ شيء من كلّ هذا؟ هل اختلقت كلّ حياتي الخاصّة؟

فتحت الخزانة في القاعة المظلمة الصغيرة وأخرجت صندوق الأحذية. وجدت صور إحدى العطلات القديمة. ألقيت نظرة إثر أخرى على صور كولمان. كانت هناك صورة كولمان وقد فقد سنّيه الأماميّين، وصورة لكولمان يمسك درّاجة من قسمها الخلفي مقطّبًا حاجبيه، وصورة لكولمان يحمل حذاءه الضخم، وصورة لكولمان ولي مبتسمين مرتديين معطفينا وناظرين إلى المستقبل. كانت النظرة في أعيننا واثقة للغاية وغريبة، كما لو كنا نعلم أنّ هذه الصورة ستظلّ هناك لسنوات لاحقة، مبتسميْن تلك الابتسامة الرائعة. كنت وجوس، في صورة أخرى، مائلين إلى الجانب في زاوية غريبة من جهة كولمان ممسكين بيدي بعضنا بعضاً. كان جوس يعشقني. وكنت أبتسم للكاميرا التي يمسكها ولدي الصغير. لا يزال بإمكاني رؤيته في ذلك اليوم الذي التقط فيه الصورة، يحاول عبثًا أن يثبت نفسه وراء الكاميرا. يمكنني رؤيته يقف جانبًا كما لو أنني أنا التي أخذت الصورة. أتمنى لو أنني قد التقطتها. يمكنك أن تتذكّر حياتك أحيانا كصور لم تُلقط مطلقًا. تتذكّر اللحظة التي قبل التقاط الكاميرا للصورة أو بعدها. أتمنّى لو أننا لم نأخذ وضعيّات معيّنة في جميع الأوقات حاملين سمكة ومبتسمين. يجعلنا هذا نبدو غير حقيقيّين، كما لو أننا نتحرّك. هذه الصورة مثلاً: جوس وكولمان يلعبان لعبة الأبطال الخارقين. وكولمان يضع قبّعة ترتان الإسكتلندية على رأسه ماسكا عصا، وجوس يلفّ على كتفيه بطانية الترتان الإسكتلندية. أتذكّر أنّ جوس كان يمزح في ذلك اليوم، ويقول لكولمان إنّهما مثل اليعقوبيين السود يمكنهما خوض أيّ معركة. وهذه الصورة لنا نحن الثلاثة. كولمان يبتسم وينظر بإعجاب كما لو أنّ

جوس قد اخترع شيئًا مّا لتوّه. كان جوس يحدّق في الضوء، والبحر وراءهما. يمكنك حتّى أن تشتمّ رائحته.

لم يسبح جوس في البحر مطلقًا. لم يخلع عنه أيّ قطعة من ملابسه ولو كان الحرّ شديدًا. لم يكن ليخاطر بهذا. لذلك كنت أنفق الوقت هنا وهناك مرتدية ملابس السباحة المتنوّعة، المكشكشة، ذات الشرائط، والمرقّطة، في حين بقي جوس ملفوفاً بتلك الضمادات. أخذ كولمان يقفز على الأمواج وكأنّها حواجز، وهو يصيح مثل رعاة البقر. كنت أقول لنفسي أصبح لديّ حياة وأسرة وأيّام عطلة. وعاهدت نفسي بأن أحتفظ بها كلّها، وألّا أسمح لكائن من كان أن يجعلني أتخلّى عنها، ولو كان ابني.

وجدت نفسي أحدّق في صور جوس بحثًا عن شيء مّا. كنت أحدّق في الصور محاولة رؤيته بشكل مختلف، ولكنّني لم أتمكّن من ذلك. لقد تغيّر كثيرًا عندما كبر في السنّ، فبعض هذه الصور تعود إلى ثلاثين عامًا. يمتلك جوس في هذه الصور نظرة شابٍّ، نوعًا من الشباب الدائم والثقة، كما لو أنّه لم يكن يعترف بشيء اسمه سنّ الشيخوخة، وكما لو أنّه لن يحصل له أيّ شيء أبدًا. هذا كلّ ما استطعت رؤيته في الصور. لا يمكنني النظر إلى هذه الصور وأن أجبر نفسي على رؤية «هذا الشخص على أنّه امرأة بالفعل، لمجرّد أنّك تعرف ذلك»، وفقاً لبعض التقارير. لا يمكنني رؤية هذه المرأة. لا أعرف إن كان بإمكاني رؤيتها أصلاً. تبدو صور ألبوم جوس نفسها بالنسبة إليّ. لا يمكنني رؤية شخص غيره. يمكنني رؤية شفتيه،

كانت شفتاه مزمومتين أثناء عزفه على الترومبيت، ويفتحهما عندما يتكلّم. كان ينحني باتجاهي ويقبّلني بشفتيه بهدوء، يقبل وجهي كلّه بشفتيه الداكنتين.

الآخرون: الحانوتي

يتعامل ألبرت هولدينغ مع الموتى. اعتاد منحهم مظهرًا لطيفًا ومقبولاً قدر الإمكان. يولد بعض الناس قبيحين، مثله. ويبدو البعض الآخر أكثر جمالاً عند الموت ممّا هم عليه في الحياة. لا شكّ في صحّة ذلك القول المأثور: لا شيء يضاهي الوجه الذي يعيش السلام. يبدو أولئك الأشخاص الذين قضّوا وقتًا طويلاً من حياتهم في الشكوى واللوم وإطلاق الشتائم والندم، في أبهى حالاتهم وجمالهم عند الموت. ويُعدّ السلام المفاجئ مشهدًا استثنائيًّا حقًّا. يتلاشى الغضب والندم بسلاسة كبيرة في لحظة واحدة. تنفرج أسارير الوجه بأكمله كما لو أنّه صار في نهاية المطاف مفهومًا وواضحًا.

لطالما شكّل الأشخاص الذين ماتو قبل أوانهم، وقبل أن يكونوا مستعدّين للرحيل، جثثًا يصعب التعامل معها. يُشكّل هؤلاء جثثًا سريعة الغضب وملتهبة الانفعال، وأكثر صلابة من غيرها، ويصعب تحريكها والتعامل معها. يضع الحانوني المساحيق على وجوههم فتنزلق إلى الأسفل. يغلق الفم فينفتح لوحده. يعاني مشكلة حقيقية

مع الجفون. لا يعتبر ألبرت ذلك الشخص الذي قد يواجه مشكلة مع الموتى. لا يمكن أن يفقد أعصابه مطلقًا، ولكن أولئك الذين يُخطفون «قبل أوانهم» يمكن أن يشكّلوا له مشكلة صغيرة، لا شكّ في ذلك. تكون قبضاتهم مشدودة، وأسنانهم مثبتة بإحكام، وفكّهم قاسيًا وجامدًا. ومهما فعل ألبرت هولدينغ، فإنّه لن يتمكّن من جعلهم أكثر استرخاء. يشفق ألبرت كثيرًا على أهالي الأشخاص الذين يرحلون باكرًا، فهم يأتون دائمًا لإلقاء النظرة الأخيرة على أحبّائهم والفزع يكلّل وجوههم. لا يقضّون معهم وقتًا طويلاً بتاتًا. يدخلون ويخرجون بأسرع وقت ممكن. يرشقونهم بنظرة ثمّ يسارعون بالخروج، ويضربون باب الصالة بعنف.

هناك دائمًا بالطبع تلك الشخصيّات المعاكسة، حتّى مع الموتى. أولئك الذين انتظروا حياتهم بأكملها ليكونوا في عداد الأموات، أولئك الذين قضّوا سنوات عمرهم كلّها على الأرض يتوقون إلى الانتقال إلى الجانب الآخر. يمكنك التعرّف على هؤلاء الأشخاص الذين ملّوا الانتظار على هذا الجانب، ولو على بعد ميل. لا ريب في أنّهم غالبًا ما كانوا متشائمين في الحياة، اعتادوا أن يصنعوا من الحبّة قبّة، أولئك الشهداء، أولئك الذين تخرج أرواحهم من دار جنازات هولدينغ وأولاده بسرعة كبيرة وتترك الشرر يتطاير على أرضيّة الصالة. تبقى وجوههم بعدها فاغرة، وشاغرة، وساذجة. ولا تكون جثثهم مشدودة بالطريقة نفسها، بل ليّنة ومرنة. تبدو في الحقيقة كأنّها تطفو. ويكون من السهل للغاية على هولدينغ أن يلبسهم ملابسهم ليغادروا. وفي كثير من الأحيان يلمح بقايا ابتسامة على وجوههم عندما يضع لهم البودرة.

أمّا عائلات أولئك الذين ينتظرون الموت بفارغ الصبر فإنّهم يجلسون معهم لفترات طويلة كما لو أنّهم بدؤوا بالتعرّف عليهم حقًّا، كما لو أن الموت يناسبهم حقًّا أكثر من الحياة. يسترخون على كرسي الصالة، كأنّهم يسترخون على كرسيّ الشاطئ. يقول لهم هولدينغ: «يمكنكم البقاء بقدر ما تريدون». ويقدّم لهم كأسًا زجاجيّةً طويلةً من الماء البارد، تتحرّك فيها قطع الثلج.

لم يكن أصدقاء ألبرت هولدينغ ليتركوه يتحدّث عن عمله بتاتًا. كانوا يقولون إنّ عمله مَرَضيّ ومحزن للغاية. وكان يعتقد أنّ أصدقاءه ضِحال وسخفاء. يقول لهم ستموتون في يوم مّا، ولن تعرفوا ما الذي حلّ بكم مطلقًا. تأتيه أحيانًا جثث أشخاص يبدو من نظرة واحدة أنّهم لم يدركوا وجود شيء مثل الموت. هناك أناس ينكرون وجود الموت إلى درجة تشعر فيها أنّ جثثهم تدّعي أنّها لا تزال على قيد الحياة. تعتدل تلك الجثث وتتجشّأ وتفتح عينيها فجأة لتحدّق فيك. أمّا الذين يقولون إنّ ذلك لا يعدو أن يكون إلّا ردّ فعل عصبيًّا فلا يعرفون حقًّا ما الذي يتحدّثون عنه. ألبرت يعرف حقًّا كلّ شيء. يعرف بدقّة تلك الاختلافات العدديّة بين الموتى. يمكنه معرفة الكثير عن تلك الشخصيّات المرموقة والمميّزة أكثر ممّا يمكنه توقّع سبب الوفاة، لأنّ شخصيّة الميت هي التي تبهر ألبرت. يمكنه على الفور أن يعرف أشياء مذهلة عنهم. لطالما كانت وفاة بعض الناس، والطريقة التي اختاروا فيها على وجه الدقّة الخروج، عرضيّة وغير مهمّة في كثير من الأحيان. هناك لافتة صنعت خصّيصًا فوق باب هولدينغ داخل صالة هولدينغ وأولاده:

«للموت عشرة آلاف باب ليخرج منها الإنسان».

كتبت العبارة على لوحة نحاسيّة، تمثّل آخر ما يراه الخارج من صالة هولدنيغ وأولاده. رأى هولدينغ أنّه إذا كان الشخص ما يزال في حاجة إلى الإقناع، فإنّ تلك العبارة المقتبسة من المسرحيّة التراجيديّة «دوقة مالفي» ستكمل المهمّة. اطّلع على هذا الاقتباس عندما كان طالبًا. ولطالما كان حلمه أن يعلّقه على لافتة عندما يمتلك دارًا خاصّة للجنازات. هناك طرائق مختلفة للموت بعدد النّاس المختلفين أيضًا. أمّا شخصيّة الإنسان، فإنّها تستوجب حديثًا آخر. يولد النّاس بشخصيّاتهم المستقلّة، ويموتون بشخصيّات أخرى. ربّما يولدون ويموتون بالشخصيّة نفسها أو ربما تتغيّر هذه الشخصيّة فجأة في اللحظة الأخيرة وفي الوقت المناسب استعدادًا للحياة القادمة. يموت معظم النّاس بالشخصيّة ذاتها التي ولدت معهم، ولكنّها تكون أكثر تطرّفًا فقط حين تعاني من مبالغة بشعة في جميع خصائصها. يصير الشخص صعب الإرضاء بطبيعته، صعب الإرضاء ومتطلّبًا بما يفوق الخيال عندما يمرض أو عندما يحتضر ويموت.

كان لدى الحانوتي صديقة تعمل قابلةً، أخبرته بأنّها قادرة على التعرّف على شخصيّات الأطفال منذ أوّل دقيقة لميلادهم. فأخبرها بأنّه قادر على التعرّف على شخصيّات الأموات. اعترف لها في إحدى الليالي، على ضوء شمعة وزجاجة نبيذ، بأنّ شخصيّات البعض تتغيّر لحظة وفاتهم. قال لها متحمّسًا وهو يعبّ كأسه: لهذا نسمع الكثير من النّاس الذين يقولون إنّهم لا يستطيعون التعرّف على الميت. ولهذا

السبب أيضًا يتمكّن النّاس بصعوبة من الربط بين الشخص الميت والشخص الذي كان على قيد الحياة لأنّ الميت يتغيّر بالفعل! ضرب كأسه بالطاولة ونظر في عيني صديقته القابلة مستشعرًا الانتصار. جعله ذلك يمسك الزجاجة ويصبّ المزيد. أخذت عيناها تلتمعان، ولم يدرك إلّا عندما كان في طريقه ليوصلها إلى منزلها أنّ نظراتها كانت تُشعّان برعب محض.

أدار ألبرت هولدينغ «دار هولدينغ وأولاده» لمدّة خمسة وعشرين عامًا، على الرغم من أنه ليس لديه أيّ ولد، ورغم أنّ والده لم يكن متعهّد جنازات. فلا يعني اسم فلان وأولاده شيئًا سواء كان لدكّان جزّار أو إسكافي. رحّب بوافدته الجديدة في مسكنها المؤقّت. كان يجهّز هنا أولئك الذين يحتاجون للتجهيز في رحلتهم المستقبليّة المتناهية الطول. يأخذ بأيديهم، ويقول بلطفٍ «ستكون هذه أطول رحلة في حياتك. هل كنت تعاني من دوار السفر عندما كنت على قيد الحياة؟». إذا ما نجمت عنهم أيّ إيماءة أو غمزة أو أيّ علامة أخرى، يفتح شفاههم ويصبّ القليل من أملاح اندروز ليفر. وإذا لم يحصل على أيّ ردّ فعل: يعلم أنّهم جاهزون بالفعل. يبدو أنّ العديد من الناس يموتون هذه الأيّام. يتصدّى هولدينغ لكلّ هذا بقوّة. ينبغي أن يرتاح هؤلاء الموتى بسلام، ولكنّه لن يحظى بأيّ لحظة سلام. إذا انتشرت الحقيقة الرهيبة، فإنّ معظم النّاس لن يرتاحوا بسلام مطلقًا. على الأقلّ في بداية وصولهم. يحتاج الموضوع من الحانوتي إلى قدر كبير من الموهبة والإبداع ليخبرهم بأنهم صاروا في عالم الموتى. فليس الجميع على استعداد لخوض غمار هذه الرحلة.

يشعر في بعض الأحيان بالاستياء من الوقت الذي يستغرقه الموت فعلاً. لا أحد يدفع له ليكون مستشارًا! ولكنّ وظيفته مثل وظائف كثير من النّاس غيره في هذه الأيّام تتعدّى صفته الوظيفيّة بكثير. عليه أن يقوم بأيّ وظيفة لأيّ كان، وهذا ليس سهلاً بتاتًا. يطالب الموتى ألبرت هولدينغ بما يفوق طاقته، فالموتى لجوجون، الموتى أكبر من الحياة.

يجب إعلان وفاة الميت من قبل الطبيب، ولكنّ ذلك يعدّ بالنسبة إليه عملاً في غاية البطء. يحتاج الموضوع إلى إجراءات، فالنّاس لا يموتون فجأة، والموت ليس حادثًا، حتّى حين يصابون بنوبة قلبية أو يتعرّضون لحادث. لا يموت النّاس فجأة، هناك حياة طويلة بعد توقّف القلب. إنّه متأكّد للغاية من كلّ هذا. وقد كان الناس قبل سنوات طويلة يعرفون ذلك. كانوا يجلسون حول الجثّة لمدّة تسعة أيّام قبل دفنها لمواجهة أيّ طارئ قد يحصل. كان النّاس منذ سنوات يخشون أن يُدفنوا أحياء.

الموت ليس تلك اللحظة النهائيّة التي حدّثونا عنها. الموت بمثابة تلك اللحظة اللانهائية. يريد النّاس أن يصدّقوا أنّ الموت في غاية السرعة لأنّهم يخافون من الموت حتّى النخاع. ولكنّ الحقيقة هي أنّ الموت يعبث بنا، ويراوغ، ويماطل، ويصبح غدّارًا، ويحضّر العديد من إجراءات العبور الصغيرة. يقف خارجًا يحمل المجرود والفرشاة والورنيش وخرقة صفراء كبيرة. يمكن تسجيل مخطّط دقّات القلب بعد عدّة دقائق من توقّف القلب. وبعد ثلاث ساعات من توقّف

دقّات القلب يستطيع طلبة الطبّ تسجيل مخطّط دقّات القلب. وبعد أربع وعشرين ساعة من توقّف القلب عن الخفقان، يمكن القيام بعمليّة تطعيم جلد ناجحة. وبعد ثمانٍ وأربعين ساعة من توقّف القلب عن النبض، من الممكن القيام بعملية تطعيم العظام. ولا عجب أنّ الجوّ في «هولدينغ وأولاده» كان حاميًا. وسيستغرق عدّة أيّام لتهدأ الأمور. سيربك الوافد الجديد الآخرين وسيسترعي انتباههم، مثل طفل جديد في جناح الأطفال. لطالما كان الحال أسوأ من ذلك في تلك الأيّام التي كان فيها الدفن أكثر شعبيّة. فالموت قد تطوّر بسرعة مثل كلّ شيء آخر في مجتمعنا.

لا شيء يدهش هولدينغ بتاتًا، بل نادرًا ما أدهشه أمر مّا، ولا شيء يصدمه البتّة في الموت. قد يصدمُ مساء وهو عائد أدراجه إلى البيت من رؤية رجل يصرخ في وجه امرأة، أو عندما يضرب صبيّ صبيًّا آخر، أو حين يطالع عنوانًا صارخًا في صحيفة. أمّا الموت، فبمجرّد أن تتعوّد على خداعه ومراوغته وتلكؤه، فإنّه لن يشكّل لك بعد ذلك أيّ صدمة. لم يشعر بالصدمة عندما توفّيت والدته. كان يحبها للغاية واهتمّ بها في جنازتها اهتمامًا كاملاً، ولم يرغب في أن تذهب إلى الفرن. دفنها، وكتب على شاهد قبرها، وما يزال يقضّي جزءًا من يومه قرب قبرها. يعلم تمامًا أنها ترقد بسلام. فهي محظوظة للغاية لكون ابنها يعمل في هذه المهنة، وقد تمتّعت بمعاملة خاصّة. وكانت محظوظة بعد ما مرّت به من ظروف سيّئة.

نادرًا ما تعرّض هولدينغ لأيّ صدمة، ونادرًا ما أدهشه أيّ شيء.

ولكنّه في إحدى مراحل حياته، عرف أشخاصًا كانوا يحبسون أنفاسهم ويضعون أيديهم على أفواههم أو يذهبون إلى المرحاض كلّما تحدّث أمامهم عن عمله. لم يكن هذا عادلاً حقًّا. بدا له حتّى كلام صديقه الطبيب الشرعي الدكتور نورمان سنيل غير لائق. نورمان سنيل ذلك الشخص الذي يقول ببساطة في أيّ محادثة معه عبارات مثل: «لديّ مجموعة رائعة من الأكباد». والغريب أنّه كان يقول ذلك دائمًا. يحتفظ بمجموعة كبرى من أكباد الرجال الوسيمين. رآها هولدينغ مرارًا الواحدة تلو الأخرى. وكان يمسّد شعره وضحك. ونادرًا ما كان الدكتور سنيل يتجنّب في أحاديثه الإشارة إلى تلك الأكباد. لم يذهب إلى أيّ مكان دون أن يحمل معه جرّة تحتوي بعض الأكباد ليشرح للنّاس كيف تبدو الكبد التي عانت من الآثار المدمّرة للكحول. كانت الأكباد، بالنسبة إلى سنيل، تمثّل الحملات الصليبيّة، شأنها شأن الموتى بالنسبة إلى هولدينغ.

يقطع سنيل الأكباد أمام أصدقائه الفزعين المصابين بالهيستيريا. ويقول بضحكة صاخبة: «انظروا كيف ترتفع الدهون إلى الأعلى مثل الدهون في اللحم المفروم، تبدو الكبد الغارقة في الويسكي دهنيّةً للغاية». ثمّ يُخرج من جرّة الرعب عيّنة ثانية لمدمن على الكحول أسوأ من الأوّل. ويقول «الكبد المتيبّسة أسوأ من الكبد الدهنيّة، تحتاج لقطعها إلى أن تغرز السكين في الجلد السميك كوجبة الهاجيز»، فتنهمر دموع أصدقائه على وجوههم. «يصبح الجلد يابسًا هكذا عندما يصل معدّل تعاطي الكحول إلى أقصى حالاته. وبصراحة يصير مظهر مدمني الكحول الذين يشربون الكثير من كؤوس البيرة مرعبًا. ثمّ

تصبح رائحتهم أسوأ من مصنع الجعة». مرّت أيّام كثيرة بعد أحاديث الدكتور نورمان سنيل عن الكبد لم يتمكن هولدينغ خلالها ولعدّة أسابيع من تناول قطرة كحول واحدة.

لا يضحك أصدقاء هولدينغ مثل أصدقاء الدكتور نورمان سنيل. لطالما كان أصدقاء هولدينغ يطلبون منه أن يصمت أو أن يغرب عن وجوههم. والأسوأ من ذلك كلّه أنّهم يكذّبونه. أصدقاؤه القدامى، الذين درسوا معه في الجامعة وكانوا يعدّونه رجلاً صالحًا قبل تحوّله إلى مجنون بسبب أصدقائه الجدد، قاموا ببساطة بمسح اسمه من دليل الهاتف. لطالما اعتادوا أن يطلقوا حوله النكات التي تقول إنّه لا يستطيع تحمّل ظروف العمل القاسية وضغوطه. سيصدّقونه فقط عندما يموتون، وحينها سيكون الأوان قد ولّى.

أمّا اليوم فقد تعرّض ألبرت هولدينغ للصدمة بالفعل. اندهش هولدينغ اليوم، وجعله ما حصل يفكّر في أشياء جديدة، بعد أن مرّت سنوات عدّة دون أن تظهر فكرة جديدة في رأسه. كان يفكّر في الرجال والنساء. ومنذ ذلك الحين اكتأب الشاب هولدينغ. كان يفكّر في تلك الاختلافات القائمة بين الرجال والنساء. ولم يحدث مطلقًا أن فكّر من قبل في تلك الاختلافات، ما عدا الواضحة منها التي يواجهها في كلّ يوم عمل في حياته.

جاءت الجثّة في الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم. ذهب أحد العاملين مع هولدينغ إلى المنزل وأحضرها. لم يكن هناك أيّ شيء غير اعتيادي في حالة الوفاة هذه. كان الرجل يعاني من رهاب

المستشفيات وتوفّي في بيته، حيث كان يتلقّى رعاية أكثر من كافية على يدي زوجته المخلصة.

جلس هولدينغ صباحًا لتناول كوب الشاي. أنهاه وغسل الكوب في الحوض وغسل يديه بواسطة الغسول الجراحي، ثمّ شرع في التعامل مع وافده الجديد عازف الترومبيت الشهير جوس مودي، رغم أنّ هولدينغ لم يكن قد سمع به قبل اليوم قطّ. لن تُقام جنازته قبل يوم الجمعة لأنّ الأمر سيحتاج إلى بعض التنظيم. ومادام سيتعدّى ثلاثة أيّام فإنّه سيتحوّل حتمًا إلى حالة تحنيط. ولذلك قام بطلب خبيرة التحنيط التي ستصل بعد قليل.

بدأ بتحضير الجثّة للتحنيط. خلع عن الميت بيجامته، تلك البيجامة الغالية الثمن من الكتان الكريمي، بيجامة عصريّة للغاية بالنسبة إلى رجل في عمره. فَكّ الأزرار أوّلاً، فكان أوّل ما لاحظه أنّ ساقيْ الرجل ليس عليهما أيّ شعر. ثم لاحظ هولدينغ الكثير من شعر العانة. كان شعرًا كثيفًا. لم يصعقه غياب القضيب في تلك اللحظة، ربّما لأنّه كان يتوقّع ذلك، بل تخيّل هذا للحظة. وعندما لاحظ بعد قليل عدم وجود قضيب واضح، وجد نفسه في الواقع يفتّش بين شعر العانة ليتأكّد فقط من عدم وجود قضيب صغير مختبئ في الأجمة. أثار الغياب الكامل لأيّ عضو قلق ألبرت هولدينغ بشكل رهيب، كأنّه قام بشيء خاطئ، أو كأنّه لم يكن يؤدّي وظيفته بدقّة.

بدأ بنزع قميص البيجامة عنه، وانتبه إلى أنّ يده كانت ترتجف قليلاً. كان في الظروف العاديّة يزهو بنفسه لأنّ يده تبقى في منتهى

الثبات عندما يتعامل مع الموتى. انفكّ الزر العلوي في يده. كان زرًا عظمياً وجميلاً للغاية. لم يعرف ألبرت ما الذي سيفعل به. ظلّ يحدّق فيه وهو بين يديه. كانت بعض الخيوط الكريميّة ما تزال عالقة في الزرّ، فسحبها ليظهر الثقبان الصغيران بكلّ وضوح. تدحرجت صورته القديمة عندما كان صبيًّا صغيرًا تحت الطاولة يبحث عن زرّ والدته الذي ضيّعه، فهرعت نحوه بسرعة. شدّت والدته شعره وأخبرته بأنّها لن تتمكن مطلقًا من العثور على زرّ مماثل. وضع ألبرت زرّ العظم في جيب بنطلونه الأسود للحفاظ عليه، في حال سأله عنه أيّ كان. أخذ نفسًا عميقًا وتابع فكّ بقيّة الأزرار. كان هناك تحت قميص البيجامة عدّة ضمادات ملفوفة بقوّة على صدره. فكّ دبّوس السلامة الكبير الأبيض. يشبه الدبوس بالضبط ذلك النوع من الدبابيس التي كانت توضع على الحفّاضات من الطراز القديم. ثم بدأ بفكّ جميع الضمادات. كان ذلك صعبًا للغاية لأنّ هولدينغ لم يكن قادرًا بطبيعة الحال على رفع الجثّة إلى الأعلى. ولذا عليه إبقاء الجسد على جانبه. كان يسحب قليلاً من الضمادة ليفكّها، ثم يُدير الجسم إلى الجانب الآخر ليسحبها أكثر قليلاً. واستمر على هذا المنوال لبعض الوقت. كان هولدينغ يتصبّب عرقا عندما أنهى نزع الضمادات الملفوفة، وبإمكانه أن يشعر بحرارة أنفاسه. وضع الجسد على ظهره مرّة أخرى.

وعلى الرغم من أنّ هولدينغ توقّعهما، فإنّه أخذ يلهث عندما رآهما. كان الثديان هناك، يحدّقان في وجهه بكلّ براءة. كانا في حالة جيّدة للغاية بالنسبة إلى شخص في هذه السنّ. كانا متأهّبيْن وفي قمّة الحيويّة، وصغيريْن بما يكفي ليختفيا وراء تلك الضمادات. كانت

الحلمتان داكنتين بلون الخوخ. أحسّ هولدينغ بشعور غريب وهو يحدّق في هذين الثديين، وكان من الصعب عليه أن يعبّر عمّا في نفسه، كأنّ الثديين يعلمان بأنّهما نادرًا ما شوهدا، وكأنّهما يُدركان ما يُمثّلانه من سرّ دفين. جعلته المفاجأة يشعر بأنّ الثديين كانا عبارة عن نوع من الاكتشاف الأثري، كما لو أنّه نقّب عنهما بنفسه. نظر ألبرت هولدينغ في كوم الضمادات على أرضيّة صالته. كانت أشبه بضمادات مومياء مصريّة.

لم يقصد ذلك، ولكنّه ألقى نظرة سريعة على الوجه الماثل أمامه. بدت سماته مختلفة، وكأنّ الوجه قد تغيّر. بدا أكثر استدارة، ولاح وجهًا نسائيًا أكثر فأكثر. إنّه وجه امرأة دون أدنى شكّ. كيف يمكن لأيّ شخص أن يفكّر في أنّ الوجه الذي كان أمام ألبرت هولدينغ وجه رجل؟! كيف يمكن أن يعتقد هو نفسه أنّه كان وجه رجل! كانت هناك، بوجهها العريض، وشعرها الأسود المزدان بقليل من الشعر الرمادي، والشفتين الممتلئتين، والبشرة الناعمة. كانت امرأة استثنائيّة تمامًا، وكان جسدها في حالة جيّدة، بطنها ضامر وعضلاتها مشدودة. أصبح ألبرت متأكّدًا تمامًا بما لا يدع مجالا للشكّ أنّها امرأة.

لم يحصل ذلك معه يومًا. لم يواجه سابقًا حالة رجل تحوّل أمام عينيه هكذا إلى امرأة. شعر بأنّها لحظة لا تتكرّر من تلك اللحظات الحاسمة في حياته وبأنّه سيضطرّ إلى العودة إليها مرارًا وتكرارًا. تساءل عمّن يعلم بشأن هذه المرأة المستلقية على طاولته؟ من يعرف؟ لا بدّ أنّ «زوجته المخلصة» تعلم، ولا ريب في أنّ الطبيب قد لاحظ ذلك بكلّ

تأكيد. كان عليه الانتظار حتى تأتيه شهادة الوفاة ليرى ما الذي تقوله. ذكرت السيّدة مودي شيئًا من هذا! حثّ هولدينغ عقله ليتذكّر كلماتها على الهاتف بالضبط. توفّي زوجي وأودّ أن تقوم بترتيب إجراءات الجنازة. بدأ يفهم قليلاً، نعم لقد ذكرت هذه الرواية. تذكّر ذلك لأنّه كان شيئًا غير عاديّ في هذه الأيّام. كانت المقابر أكثر ازدحامًا من قلب المدن. قالت له أيضًا إنّ زوجها معروف. أراد ألبرت أن يتّصل بالسيّدة مودي ليحدّثها في الأمر، ولكنّه لم يكن متأكّدًا ممّا قد يقوله. فرغم أنّه رأى بأمّ عينه أنّ الجسد المسجّى في صالته هو جسد امرأة، فإنّه لا يزال يُشير إليه بقوله «زوج السيّدة مودي». لم يُفكّر في شيء آخر ليشير إليه سوى «زوج السيّدة مودي».

ملأت فكرة الاتّصال بالسيّدة مودي قلب ألبرت هولدينغ بالرعب. اتّصل ابنها صباح اليوم معلنًا أنّه سيأتي إلى هنا ليزور والده، ويلقي عليه نظرة الوداع. شرح هولدينغ للسيّد مودي الشابّ أنّه سيكون من الأفضل الانتظار حتى تنتهي خبيرة التحنيط. سيكون ذلك أقلّ ألمًا، وسيكون الجسد قد استعاد لونه الطبيعي، لكنّ الشابّ قال إنّه يرغب في رؤية والده «على طبيعته». يا إلهي! بدا الشابّ واضحًا تمامًا. وكان من الواضح أنّه لا يعلم، ولكنّ السيّدة مودي بدت بعد ذلك في غاية الوضوح.

نظر هولدينغ إلى ساعة الصالة. سيأتي الابن في أي لحظة! فهرع إليها يفكّر في كيفيّة جعلها مقبولة المنظر. وضع بسرعة بعض مساحيق اللحظة الأخيرة على وجهها ليخفّف قليلاً من المسحة الخضراء على

البشرة. لم يعد ذلك إلى كون الابن سيتفرّس في الوجه إلى هذه الدرجة، ولكنّ أعصاب هولدينغ كانت متوتّرة للغاية. لم يكن جيّدا وقت الأزمات. لم يتمكّن مطلقًا من التفكير في الكلمات المناسبة ليتلفّظ بها. غطّاها بملاءة بيضاء وبدأ يتدرّب على عدّة عبارات. هل تعلم أنّ... هل كنت تعرف أنّ... من المفترض أنّك لم تكن تدرك... لم تعجبه أيّ عبارة من هذه العبارات. كلّ ما عليه فعله هو أن يترك نفسه ليقول ما يخطر على باله.

بدا لألبرت كما لو أنّ له يدا في هذا الخطأ. ماذا لو أُجري تحقيق؟ ماذا لو لم يقم الطبيب بفحص الجسم بطريقة صحيحة؟ ماذا لو كانت الشهادة الطبيّة تقول إنّه «ذكر». ماذا لو جاءت الزوجة أيضًا بشهادة وفاة تقول إنّه رجل؟ فتح هولدينغ درجه الخاص للتأكّد من أنّ قلمه الأحمر لا يزال هناك. فإذا وجد أي شيء غير مرغوب فيه في شهادة الوفاة، فسيتوجّب عليه تصحيحه بقلمه الأحمر. أمسك بالقلم وأخذ يديره بين إبهامه وسبّابته. لا بدّ من أن يقوم هذا القلم بما يتوجّب عليه. لقد تمنّى تقريبًا أن يحدث هذا. فإذا كان يمتلك ترف طمس كلمة «ذكر» بكلّ وحشيّة وعنف ووضع كلمة «أنثى» بالخطّ العريض بلون أحمر فاقع، فسيكون على الأقلّ قادرًا على فعل شيء. تعدّ فكرة ألّا يكون قادرًا على القيام بأيّ شيء رسمي في هذه الحالة الغريبة فكرة مرعبة. وفي نهاية الأمر يمكنه التفكير في الصحافة طبعًا. وإذا كان زوج السيّدة مودي شهيرًا كما قالت فلا شك في أنّ الصحافة ستهتمّ بهذا الحدث. ربّما لن يُسمح كذلك بدفن الجثمان، فإذا لم يقدّم أمين

السجلّ شهادة وفاة مناسبة فلا يمكن عندها دفن الجثمان. ماذا لو بدت بالنسبة إليه في بعض الليالي كامرأة وفي ليال أخرى كرجل؟

عندما وصل الشابّ إلى دار «هولدنيغ وأولاده» صباح يوم الاثنين الماضي، اندهش ألبرت من وسامته. كان وسيمًا بالفعل إلى درجة لم يتمكّن من تجاهلها، فهو طويل القامة، أسمر، رشيق، شعره أسود لامع بتسريحة حادّة. وكان يرتدي ملابس رائعة. بدا السيّد مودي عصبيًّا، ولكنّه لم يكن أكثر توتّرًا من معظم الشبّان الفاقدين لآبائهم حديثًا. معظم النّاس لا يفضّلون المجيء إلى صالة هولدينغ. وفي كثير من الأحيان يدخلون متردّدين، خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الوراء. تأتي لحظة مّا عندما يدخلون من الباب، حيث يستقبلهم هولدينغ، ليقرّروا عندها أنّ عليهم القيام بذلك بالفعل. وفي تلك اللحظة المحوريّة يتشجّع معظم النّاس ويتحرّكون بسرعة صادمة ويدخلون الصالة. وفي هذه الحالة يغلق ألبرت هولدينغ الباب وراءهم قائلاً: «من هنا». ولكنّ هذا لم يحدث مع ابن جوس مودي.

لا يمكن لهولدينغ أن يأخذه مباشرة إلى هناك. ينبغي أن يؤخّره قليلاً. ومع ذلك لم يتمكّن من قول أيّ شيء. لم تكن هناك كلمات كافية لتسهيل مهمّة هولدينغ. قال الشابّ الذي كان واضحًا أنّه جهّز نفسه لهذه المناسبة: «جئت لرؤية والدي جوس مودي. تحادثنا سابقًا على الهاتف. ولن أصدّق أنّه قد مات كما تعلم حتّى أرى جثمانه». أخفى هولدينغ وجهه وراء منديله وسعل برعونة. «نعم، مفهوم، الكثيرون يقولون ذلك».

قال ابن جوس مودي: «أنا جاهز إذا لم يكن لديك مانع». فقال هولدينغ محاولاً كسب بعض الوقت: «نعم طبعًا، سآخذك لرؤية والدك، ولكن هناك أمر يجب أن أعلمك به أوّلاً». قال الشاب: «ألا يمكن لهذا أن ينتظر؟ لا بدّ من أن أراه على الفور وإلّا سأفقد أعصابي».

«هل كنت على علم... أعني هل تعلم أنّ... أفترض أنّك في الواقع... ربّما، لا بدّ من أن تعلم أنّ...».

ردّ كولمان صارخًا: «ما الذي تتشدّق به؟ ماذا هناك؟ خذني لرؤية والدي!» فقال هولدينغ متنحنحًا: «ما أريد قوله فعلاً هو أنّ والدك ليس رجلاً على الإطلاق، بل امرأة. وبعبارة أخرى لا يملك عضوًا ذكريًّا، والشخص المستلقي هناك، الذي أفهموني أنّه والدك، هو امرأة. امرأة بأعضاء أنثويّة...». لم يسمح له الشاب الوسيم بإتمام الجملة الثانية. أمسكه من ياقته وصرخ في أذنه: «هل تمزح معي؟ ما هذه اللعبة السخيفة؟ هل هذه واحدة من تلك النكات السمجة؟ أين مديرك؟ أريد مقابلة الحانوتي الحقيقي اللعين». هزّ الشاب هولدينغ مرارًا، ورفعه تقريبًا عن الأرض. لم يتوقّف هولدينغ عن السعال. شعر كأنّه يستحقّ ذلك. كان يستحقّ أن يهزّه بهذه الطريقة. يستحقّ أن يصفعه أيضًا، رغم أنّه لم يتعرّض سابقا للعنف. وقعت نظّاراته على الأرض، فبدأ يحاول تدارك الموقف: «أنا أتفهّم موقفك».

«أنت لا تفهم شيئًا، أيها الوغد المريض. أريد الشخص المسؤول على الفور». جثا هولدينغ على الأرض والتقط نظّاراته. لم يكن هناك أيّ مجال للتهرّب. قال له: «هل تريد رؤيتها فعلاً؟».

«ما الذي تقوله، خذني لرؤية والدي. هل أنت مجنون؟».

تابع هولدينغ التحدّث بهدوء، باذلاً جهده في ذلك: «إذا كنت متأكّدًا تمامًا من قدرتك على التعامل مع صدمة كهذه، اتبعني من فضلك. ينبغي أن ترى بنفسك». أخذه إلى الداخل ورفع الملاءة البيضاء.

انطبع أمام ألبرت، طيلة فترة بعد الظهر، تعبير واحد غالبَ وجه الابن. كانت نظرة ملؤها الفزع المطلق وعدم القدرة على التصديق، نظرة مليئة بالغضب والاضطراب. كانت محنة في منتهى الشدّة بالنسبة إلى ألبرت. افترض طيلة حياته المهنيّة أنّ ما يجعل الرجل رجلاً والمرأة امرأة هو الاختلاف القائم بينهما في الأعضاء التناسليّة. واليوم أمامه امرأة أقنعته، حتّى وهي ميتة، بأنّها كانت رجلاً لمجرّد ارتدائها ملابس الرجال. اعتقد ذلك الشابّ أنّ والده كان رجلاً. من كان قادرًا على إقناعه بالعكس؟ حصل سيناريو مغاير تمامًا مع هولدينغ. ماذا لو لم يقل أيّ شيء على الإطلاق؟ ماذا لو كان أكثر حكمة؟ ماذا لو انتظر ببساطة حتى تأتي خبيرة التحنيط لتُنهي عملها؟ ثمّ قام بإلباسها البذلة الرجاليّة وربطة عنق، فقد تعوّد هولدينغ سابقا على تمويه جثث الموتى. كان يجعلها تبدو مقبولة حتّى عندما تكون قد تعرّضت لإصابات مروعة للغاية. وكان يجعل الوجه شبيها بالوجه القديم قبل الموت. يستخدم الماكياج بشكل مبالغ فيه، ويُدثّر الجثّة بملابس أنيقة، حتى لو جُلبت إليه مرتدية أسمالاً بالية.

تمكّن هولدينغ من تجهيز العديد من الجثث بطريقة مذهلة في

توابيته بملابس حريريّة أنيقة وخشب جميل. لا يمكن لبعض النّاس طبعا أن يدفعوا كلفة شيء إضافي سوى الصندوق العادي، ولكنّه دائمًا ما كان يبذل قصارى جهده مع الجميع. لقد رأى الكثير في حياته فعلاً، ولم يعد يدهشه شيء، حتّى حدث اليوم ما حدث. كانت هذه سابقة حقّا، سابقة شهدها للمرّة الأولى.

telegram @
yasmeenbook

مقابلة حصرية

كانت تلك المرّة الأولى، أليس كذلك؟ هذا صحيح، المرّة الأولى التي أحضر فيها صديقتي إلى البيت. كان ردّ فعل والدي غريبًا، بل في غاية الغرابة. اسمها ميلاني،أحببتها لأنّها أعلمتني أنّه كان لأمّها، قبل ميلادها هي، طفلة أخرى اسمها ميلاني أيضًا. لقد تُوفّيت ميلاني الأولى. ماتت في المهد على ما أعتقد، أو شيء من هذا القبيل. أمّا ميلاني صديقتي فكان اسمها في الأصل روث، ولكن عندما تأخذها أمّها خارج البيت في عربة الأطفال، كان الجميع ينادونها ميلاني ونسوا أنّ اسمها روث. وهكذا علق بها اسم ميلاني. دعتها أمّها ميلاني، مثلما فعل الجميع على الرغم من أنّ هذا الاسم لم يكن مكتوبًا في شهادة ميلادها. أحببتها لهذا السبب، فقد شعرت بالأسف حيالها، إذ لا تبدو بداية جيّدة في الحياة أن تحمل اسم أختك الميتة.

في إحدى المرّات، قالت لي شيئاً غريباً للغاية. قالت إنّها تشعر كما لو أنّها خليط من الأختين، وهذا ما أخافني بالفعل. ولكنّني كنت أحبّ الأشياء التي تخيفني. كنت صغير السنّ، ربّما في الخامسة عشرة

أو في السادسة عشرة؟ وقد كان الشعور بالخوف الاستثنائي ثاني أفضل الأشياء التي نحبّها في هذه السنّ بعد شرائح الخبز. كانت تلك الحالة الوحيدة التي نعشقها حقًّا، حالة الخوف الاستثنائي الذي نتنفّسه. لقد كنّا مدمنين، مدمنين من الطراز الأوّل. قلت لميلاني إنّ اسمي كان في الأصل وليام دونسمور، وغرقنا في الضحك لفترة طويلة.

عندما أخذتُ ميلاني إلى المنزل للمرّة الأولى، أوْلتها والدتي اهتمامًا كبيرًا، وصافحها والدي قائلاً على الطريقة الأمريكية: «لقد حظيتِ بترحيب كبير حقًّا». أخذتُ ميلاني إلى غرفة نومي وقبّلتها. ناديتها روث على سبيل التجربة ونادتني وليام، وهو ما أشعرنا بالإثارة. كنت ألعب دور فريدي ميركوري وأغنّي بصوته العالي في ألبوم «كوين». ولم يكن والدي يتحمّل فريدي ميركوري، لذلك عندما سمعت طرقًا على باب الغرفة ظننت أنّه على وشك أن يقول «توقّف عن إصدار هذه الضوضاء». فتحتُ الباب ووجدت والدي واقفاً هناك ينظر إليَّ بغرابة. قال لي: «هل لي بكلمة معك يا كولمان؟» قلت له: «ألا يمكنك أن تنتظر؟» فقال: «لا،أعتقد أنّه ينبغي أن أكلّمك الآن».

ذهبت إلى الطابق السفلي وجلست في المطبخ أستمع لوالدي يسعل ويبصق. قلت مضطرباً: «ما هذا؟» بدا قلقًا بالفعل، ولكن لا بد من أنّ هناك شيئًا لعينًا آخر يدور في ذهنه. يبدو كأنّه يشعر بالغيرة، أو كأنّه يتمنّى أن يكون مكاني. هل تعرفون ما أعني؟ اعتقدتُ أنّه كان في ذلك الوقت منزعجًا من تقدّمه في السن. فقلت: «لا داعيَ للقلق، أنا لا أقوم بأيّ شيء خاطئ». فقال: «يمكن للأخطاء أن تجرّ بعضها

البعض، كن حذرًا يا كولمان». قال هذه الكلمات ببطء ووضوح. وكان عليَّ التخلّص من هذا الموقف، فلم يكن أمامي سوى مجاراته. لذا قلت: «معك حقّ، شكراً على هذه النصيحة يا والدي العجوز». ذهب إلى غرفة المعيشة وهو ما يزال يبدو حزيناً للغاية. عدت وأخبرت ميلاني وغرقنا في الضحك مجدّدًا. «أين يعيش؟»، قالت ذلك. ثمّ نادتني باسمي الآخر وضمّتني إليها. وكان هذا كافيًا بالنسبة إليّ.

كان منفعلاً بخصوص ميلاني، هذا واضح بالفعل، فقد انهال عليها بالأسئلة. وقد كان عليَّ مقاطعته فقلت: «مهلاً، هل نحن في الجستابو؟» رماني عندها بنظرة حارقة وعبس في وجهي، ثمّ قال: «إنّني مهتمّ فقط، هل هناك أيّ خطأ في الاهتمام بشخص مّا؟».

- هل تفضّل أن أتجاهل أصدقاءك؟ ميلاني، كولمان لا يريدني أن...

- هذا يكفي. صرخت، وأخذت ميلاني إلى غرفتي.

قالت ميلاني: «ما هي المشكلة، كولمان؟ ليس لديّ أيّ مانع من أن يسألني والدك عن أيّ شيء، إنّه شخص لطيف».

أصبحت ميلاني ثاني صديق من أصدقائي يفضّله والدي عليّ في دروس الترومبيت. التقطَتْ سريعًا ما علّمها إيّاه؛ عليها ألّا تنفخ مباشرة في الترومبيت، بل بالقرب منه. قال إنّها تمتلك موهبة حقيقيّة، ويمكنها أن تصبح واحدة من أفضل النساء اللواتي يعزفن على الترومبيت في بريطانيا. ثمّ تابع مُدقّقا كلامه: «لطالما كان معظم عازفي

البوق من الرجال، وقد حان الوقت لامرأة مثلك أن تلقّنهم درسًا. أنا لا أمزح. يمكنك القيام بذلك إذا كنت مهتمّة بالفعل، هذا كلّ ما يتطلّبه الأمر، الاهتمام والإلهام. أوه، والممارسة».

اللعنة. إنّه يعرض عليها المساعدة الآن، هذا ما شعرت به. كان والدي يحاول سرقة صديقتي، وإعطاءها هذه الدروس الوهميّة، وخداعي في نهاية المطاف. وكنت أتساءل هل جميع الآباء يفعلون ذلك بأولادهم ليحافظوا على فحولتهم أم هو أمر يخصّ والدي فقط؟ في تلك المرحلة بدأ والدي بتقديم كوب من النبيذ إليّ وإلى ميلاني أثناء تناول وجبة الطعام، ولم نكن نرفض بطبيعة الحال.

وفي أحد الأيّام قالت لي ميل: «كول». (لقد أحببنا فكرة مناداة بعضنا البعض ميل وكول، كول وميل. وكنا نكتب أسماءنا هكذا على النوافذ، والدفاتر، ومواقف الحافلات والمراحيض وعلى أغطية الفراش. كنّا نشكّل فريقاً. كنّا عاشقين) «كول، أعتقد أنّ والدك جذّاب حقًّا. إنّه لطيف جدًّا، ومختلف كثيرًا عن بقيّة الرجال». في ذلك اليوم الذي تلفّظت فيه ميل بتلك العبارة، تخلّصت منها. وهذا أفضل بكثير بالنسبة إليّ. سألني والداي عنها طبعًا، فقد أحبّاها. سألاني عمّا إذا كنّا قد انفصلنا، وما هي المشكلة؟

لن أتحدّث أكثر عن الموضوع. فبذلك عدتُ إلى عالمي العابس الصامت. هذا ما حصل في النهاية، فليتركوني وشأني جميعهم. في كلّ الأحوال لم يمضِ عليَّ وقت طويل خارج عالمي هذا.

أوقفتْ جهاز التسجيل. اقتربَتْ منّي، وقالت برقّة: «هذا ما نريده

بالضبط. رائع. التفاصيل دقيقة ورائعة، بل مذهلة. أعتقد أنّ هذا يكفي اليوم وسنكمل غدًا، ما رأيك؟ إنّها قصّة رائعة. كيف تشعر بعد أن رويتها؟» أجاب: «لا أعلم»، ومسح شعره. ثمّ أضاف: «سأحتاج وقتًا طويلاً للتصالح مع كلّ ما حدث. هذا كثير عليّ». ردّت: «أعتقد أنّك تتأقلم بشكل رائع، إذا سمحت لي بأن أقول ذلك. ينبغي فقط أن تعطي نفسك بعض الوقت. امنح نفسك إجازة».

- «إجازة؟ لأعود مجدّدًا؟».

- «كلّ ما أردت قوله هو ألاّ تشعر بالاستياء من شعورك الغامر بالسخط».

حدّقَ في وجهها طويلاً بما يكفي لجعلها تشعر بالتوتّر والغباء. فقالت: «الوقت طبيب عظيم». قال مندهشًا: «أتظنّين ذلك؟ من قال هذا؟ أعتقد أنّه كلام فارغ. أنا متأكّد تمامًا من أنّني لن أتخطّى ذلك طيلة حياتي. بهذه البساطة! ألا ترَين أنّ ذلك قد قضى عليَّ، هل تفهمين؟» عدّلت جلستها على الكرسي، وشدّت تنّورتها إلى الأسفل لتغطّي ركبتيها. حدّثت نفسها: «إنّه أحمق حقًّا»، ولكنّها تعتقد أنّه لطيف.

- ما رأيك أن نخرج من الصالة. سألته، ثمّ أردفت: ما نحتاج إليه حقًّا هو الأشياء والأحداث المتعلّقة بالبدايات. ما الذي كانت تفعله قبل العزف على الترومبيت؟

- ليس لديّ أدنى فكرة، كان حذرًا دائمًا بشأن ماضيه، على ما أذكر. ومن الواضح أنّه كان يمتلك سببًا وجيهًا لذلك.

- نعم صحيح،أنت على حقّ. قهقهت ضاحكة.

كانت صالة الفندق مكتظّة بالنّاس، أناس أغنياء يتناولون «شاي بعد الظهر». اقترح كولمان: «أفكّر في العودة إلى غرينوك مسقط رأسه. ربّما يُساعدني ذلك على اكتشاف المزيد». فقالت وهي تسكب لنفسها المزيد من شاي إيرل غراي وتتناول البسكويت: «فكرة جيّدة، هل تريد المزيد من الشاي؟» أومأ لها رافضًا. لم يكن يحتمل تلك الأنواع من الشاي المعطّر، تبدو كأنّك تشرب عطورًا لعينة. كلّ ما يحتاج إليه هو كأس من جاك دانييلز. ثمّة على البار بعض الأشخاص الذين يشربون زجاجات من البيرة. لم يرغب في طلب أيّ شيء منها، ينبغي أن تدعوه بنفسها.

«نعم، أعتقد أنه بإمكاني التحرّي حول الموضوع، لأرى ما الذي سأتمكّن من اكتشافه. أريد معرفة كلّ شيء حوله. يمكنني التعامل مع نفسي كتحرّي خاصّ، هل تفهمين قصدي؟» قال ذلك وابتسم ابتسامته العريضة الأولى منذ بداية اليوم. فأجابت مشجّعة إيّاه: «بالطبع ويمكننا أن ندفع المصاريف».

قال، وهو يُحدّقً في زوجين يتحادثان بشكل حميمي: «رائع، لطالما اعتقدتُ أنّه سيأتي اليوم الذي سأتحرّى فيه، وأبحث عن والدي الآخر. يا للسخرية، أليس كذلك؟ يا لهذه المفارقة».

لاحظت أنّه قد أحبّ الكلمة، فردّت: «نعم، يا للمفارقة، يمكنك قول هذه الكلمة مرارًا وتكرارًا».

- الساعة الحادية عشرة غدًا، هل أنت موافق على أن نلتقي مجدّدًا؟ سأكون بانتظارك في الغرفة 413.

- هذا الاستجواب أسوأ من الذهاب إلى طبيب الأسنان. إلى متى حجزتِ هذه الغرفة؟

- ستكون الغرفة على ذمّتنا مادمنا نحتاج إليها. إنّها غرفة جيّدة أليس كذلك؟ إنّها تمنحنا بعض الخصوصيّة.

- بلى.

- كولمان، لقد تذكّرت أنّك قلت لي إنّ لديك رسالة من والدك؟ حسنًا، أعتقد أنّها ستساعدنا في تأليف الكتاب. إذا لم تكن ترغب في قراءتها، فأنا أرغب في ذلك. أحضرها معك غدًا.

فكّر كولمان في أنّها هي حقًّا من قام بطلب التقاط الصور، وهي أيضا من دفعه إلى قول أشياء محدّدة. بدت كأنّها ترغب في معرفة أشياء معيّنة فقط، ولم يكن يدرك ما الذي تريده بالضبط. ولكن ينبغي أن يكتشف ذلك. إذا ما اكتشف الطريقة التي تفضّلها ليروي القصّة من خلالها، فإنّه سيحصل على المال. لا يمكن أن يكون هذا صعبًا أبدًا، أليس كذلك. لاحظَ عندما كان يحلق ذقنه هذا الصباح، وهي الحلاقة الأولى منذ وفاة والده، أنّه يبدو مختلفًا حقًّا. صُدم بمظهر عينيه بالفعل. مرآة الحلاقة القديمة الطراز، والفرشاة الخشبية، وصابون الحلاقة، وموس الحلاقة، كلّها هديّة من والده. حصل على عدّة الحلاقة هذه مذ كان في سنّ المراهقة. كان يغيّر الشفرة بانتظام، ويغيّر كذلك صابون الحلاقة مستخدمًا النوع نفسه.

وفي تلك الأثناء اشترى له والده علبة صغيرة من كريم نيفيا ليضعه على ذقنه في حال جرح نفسه، ولا يزال يشتري هذا الكريم

حتّى اليوم. تساءل كيف كان والده يحلق؟ كيف نبت الشعر في ذقنه؟ أو ربّما لم يكن لديه أيّ شعر أبدًا. هل كان يدّعي الحلاقة فقط؟ هل تناول أيّ نوع من الهرمونات لتكثيف الشعر على وجهه؟ اللعنة، ما الذي فعله؟ كان مهتمًّا بالحلاقة للغاية، واشترى جميع الأدوات وأحبّ جميع تلك الطقوس. وقد نقل كلّ ذلك إلى كولمان. لا يزال كولمان يتمتّع بحلاقة جيّدة، وبرغوة الحلاقة الباهظة الثمن، وبالضربات الدقيقة لشفرة الحلاقة، وبقصّ الشعيرات الصغيرة. لا يزال كولمان يتذكّر الإثارة التي شعر بها عندما حصل على أوّل عدة حلاقة، شعر بالفخر لدخوله إلى عالم الرجولة. كان ذلك شيئًا رائعًا، شيئًا في غاية الروعة. هل عليه أن يخبر صوفي ستونز عن فرشاة الحلاقة؟ أنصت كولمان لنفسه يقول: «حسنًا كان هذا واضحًا، أليس كذلك؟». (لم يصدّق تمامًا أنّه كان يقول هذا، ولكنّه قاله حقًّا) «كان ذلك واضحًا. لقد اشترى لي كلّ هذه الأشياء السخيفة لأنّه لم يكن رجلاً. كان عليه أن يقوم بهذه الخدعة الذكوريّة لأنّه لم يكن رجلاً. لقد أراد أن يكون رجلاً، ولكنّه لا يستطيع حقًّا. نعرف اليوم ما كان عليه، لذا كان محظوظاً بامتلاكه ابنًا يخدعه، وقد قام بذلك فعلاً. يا للجنون!».

ثبّتت صوفي ستونز عينيها بعينيه. هذا أفضل بكثير. يتحسّن هذا الصبيّ يومًا بعد يوم. لقد أدرك المؤامرة. قالت: «هذا جيّد» وأطفأت جهاز التسجيل، وكتبت شيئاً في دفترها. كتَبَتْ بضع إشارات مائلة. لا بدَّ من أنّها من رموز الاختزال. ربّما كتبت أيّ شيء، كانت كلمات غريبة. وربّما كانت تدبّر له شرًّا مّا. اشترى له والده فرشاة حلاقة لأنّه كان يحتاج إلى فرشاة حلاقة. أليس هذا كلّ ما في الأمر؟ هل عليه أن

يمضي حياته في محاولة اكتشاف دوافع والده وراء كلّ الأشياء السخيفة التي قام بها؟ قد يموت قبل أن يُنهي ذلك.

كيف يمكنه أن يفعل ذلك؟ فكّر في قول شيء لصوفي. لم يتمكّن من التفكير في كيفيّة التعبير عنه سوى بكلمات بسيطة مثل: «هل تعتقدين أنّ هذه هي الحقيقة؟ ولكن ماذا لو لم تكن هذه هي الحقيقة بالضبط. لقد كان يكذب، أليس كذلك؟ كانت حياته كلّها عبارة عن كذبة سخيفة. ما المشكلة إذا قام كولمان نفسه بتغيير بعض الأمور؟ إنّه يتلقّى المال أصلاً ليقوم بذلك.

الحسابات

أستيقظُ كلّ صباح في الوقت نفسه بالضبط. لم تكن صوفي ستونز يومًا بحاجة إلى منبّه. الساعة 7.10. وجدتُ شقّة صغيرة رائعة في المدينة. يبدو أنّني أنتقل من هوس إلى آخر. كانت أختي هي التي جعلتني أتعوّد على ذلك. إنّها تشبهني في كلّ شيء، عدا أنّها أفضل منّي. أمّا هوسي الحالي فهو في منتهى الاختلاف عن غيره. بالنسبة إلى هوسي ببعض الأشياء الأخرى كان عليّ إجبار نفسي على الوصول إلى الحالة القصوى من خلال ممارسة الحيل على عقلي. كنت أعلّق الصور في جميع أرجاء الشقة، وأكرّر كلمات غريبة. أمّا هوسي هذه المرّة فلا! يلاحقني هذا الهوس طيلة الوقت، ليلاً ونهارًا، نهارًا وليلاً، وكلّ ما أفعله لا يتعدّى التفكير في جوس مودي ودوافعها. فكّرتُ في بعض العناوين الرائعة لهذا الكتاب، ولكن لم يعجبني أيّا منها حتى الآن. لا أعرف أيّ عنوان منها هو العنوان الأفضل. لا بدّ من أنّ أختي تعرف. فهي تعلم تمامًا كيف تضع الأمور في نصابها. يمكن اعتبار سارّة ذلك الشخص الذي يمكننا تسميته الشخص الحاسم. عندما

كنّا صغارًا، كانت تتّخذ بكلّ بساطة القرارات التي تخصّها وتخصّني أيضًا. ثمّ تلتفت إليَّ لتقول إنّني في غاية البدانة، إلى درجة تمنعني من أن أكون حاسمة.

البقرة السمينة؛ لم أكن أعرف حقًّا معنى هذه الكلمة. كنت أبحث عنها في القاموس عندما لا تكون سارّة موجودة بالقرب منّي. البقرة السمينة، صدّقوا أو لا تصدّقوا، كنت طفلة صغيرة سمينة. لقد كنت هكذا حقًّا. ولكوني بدينة جعلني الأمر أشعر بأنّني سخيفة وضعيفة، إلى أن اتّبعتُ حمية غذائيّة، وصرتُ نحيلة. ولكنّني لا أستطيع أن أكون حذرة دائمًا: كانت تلك المرأة السمينة هناك تترصّدني في انتظار انتهاز أيّ فرصة لتتغلّب عليّ. فإذا غفلت عنها، ستكون هنا بأسرع من مجرّد الوقت الذي تتطلّبه طقطقة أصابعي الرفيعة. «رجل/ امرأة الترومبيت». «حياة عازف الترومبيت المخنّث». «الخفية الظاهرة». يجب أن تناقش الأمر مع كولمان. وينبغي أن تحظى بعنوان جديد، فالناشرون يريدون عنوانًا للكتالوج.

هناك متعة كبيرة في تخيّل العناوين الممكنة. قد يوحي عنوان «المخنّث والترومبيت» بعكس المعنى المقصود. «القصّة الحقيقيّة لعازف الترومبيت المخنّث». «النفخ في ترومبيتها». «أبي، لقد أفسدت كلّ شيء». «انفخ الحقيقة». «مقامرة جوس مودي». يبقى العنوان في الصحيفة ليوم واحد، أمّا عنوان الكتاب فيدوم مثل صبغة الشعر. ينبغي أن أختار عنوانًا مناسبًا. ينبغي ألاّ يواجهوا أيّ مشكلة في بيع هذا الكتاب، فالنّاس مهتمّون بمواضيع الشذوذ وتغيير الجنس وكلّ

الأشياء التي تدور في هذا الفلك. أنا نفسي مهتمّة بهذه المواضيع. لطالما كنت هكذا بقدر ما يمكنني أن أتذكّر. إذا سمعت أمّي أو أبي يتغامزان حول شخص مّا، بذلك الصوت الناعم الذي يتصاعد وينخفض، تتحرّك أذني مثل كلب يلاحق رائحة يشتمّها. كانا يتهامسان دائمًا في البيت. يتحدثان بلهجة جادّة ومنخفضة في الآن ذاته، ويتمتّعان بالحديث عن مساوئ العالم بأسره. عمّي الغريب، وجدتي الخبيثة، وعمّتي الطويلة جدًّا. لم أتمكّن دائما من التقاط ما كانا يتحدّثان عنه، لذلك كنت أخترع أحداثًا من تلقاء نفسي. وكلّما رأيت عمّي أو جدّتي بعد ذلك يملؤني الرعب.

لا شيء أكثر روعة من القيل والقال. تقول أختي سارّة إنّ النميمة لا تفيد الفكر. سألتها: «وماذا تعنين بالفكر؟ لا تستطيع جميع النظريّات اللعينة في العالم أن تثير فضولي مثلما يفعل أيّ خبر غريب». كان يكفي أن تقول والدتي: «لا بدّ من أنّ وراء هذه المرأة شيئا غريبا» لكي أطير إلى السماء السابعة. النّاس هم كلّ ما يهمّني في هذا العالم. النّاس في غاية الغرابة.

قطع كولمان شوطًا جيّدا حتّى الآن. كان يزيح النقاب أكثر فأكثر في كلّ مرّة. لن ألبث أن أدفعه إلى الانهيار. أخطّط لنشر القصّة في كلّ مكان. سأشعل شرارة تجعل القصّة تملأ الدنيا وتشغل النّاس. سألهب حماسة الباباراتزي. يمكنني القيام ببحث على الإنترنت لإيجاد المدن التي يعيش فيها المخنّثون المشاهير. قرأت مقالة تقول إنّ نيوزيلندا تعدّ أوّل دولة تضمّ عمدة مخنّثا في ولينغتون. عمدة بكعبٍ عالٍ في

ولينغتون! انتشرت كلمة مخنّث transvestite أكثر بكثير من كلمة الشخص الذي يشتهي ارتداء ملابس الجنس الآخر cross-dresser. على أيّ حال، ما جدوى اشتهاء ارتداء ملابس الجنس الآخر إذا ما بقي الشخص في بيته؟ إنّه مجرّد شخص يعاني نوبة غضب، بينما تحمل كلمة مخنّث ارتباطًا لطيفًا بالانحراف الجنسي. عندما ننهي كتابنا، ستحقّق أسطوانات جوس مودي مبيعات لم تحقّق مثيلا لها من قبل. إنّنا نقدّم إليها خدمة، ونجعل منها فنّانة خالدة.

لم يحقّق آخر كتبي النجاح الذي كنت أتمنّاه، فقد كان توقيت إصداره خاطئًا. خسرت الكثير من المال في ذلك الكتاب. هكذا تسير الأمور عادة، إذ نبدو في هذا العمل أشبه بالمقامرين حقًّا. هذا مؤكّد بالفعل، يا للغباء! أتساءل ما الذي كنت سأشعر به لو كنت بدلاً من ميل مودي؟ هل سأقع في غرام جوس مودي أيضًا؟ عندما أنظر إلى وجهها، تبدو حقًّا شخصًا وسيمًا ومحبّبًا. كان يمكن أن أقع في غرامها. ربّما هذا ما حدث مع ميل مودي. ربّما لم تكن تعرف الحقيقة في بداية وقوعها في حبّها. يجب معرفة متى اكتشفت الموضوع. تشغلني مسألة انجذاب ميل مودي إلى جوس مودي. لقد تزوّجت امرأة تظاهرت بأنّها رجل، لماذا؟ امرأة تحشو واقيًا ذكريًّا بالقطن والصوف الرطب، وتضع جوزتين لتوهم بامتلاكها خصيتين وقضيبًا. (حسنا لا أعرف حقًّا إذا ما كان جوس يمتلك ما يسمى «بذلة ثلاث قطع» أم لا، ولكنّني قرأت عن ذلك في مكان مّا). يا.. يا إلهي! هل ينفع هذا؟ لا بدّ من أنّها كانت تضع جوارب في لباسها الداخلي، من يدري؟ يبدو

هذا في غاية الغرابة بالنسبة إليّ. أغرب من أيّ شيء يمكن أن تحلم به أو تقوله عائلتي الغريبة. امرأة تملّس شعرها للخلف بالزيت، وتحلق ذقنها يوميًّا للحفاظ على المظهر الذي تريد أن تبدو عليه، وتذهب دومًا إلى حمّام الرجال. امرأة لا يمكن إقناعها حتّى في حرارة الصيف الملتهبة بخلع ملابسها والسباحة في البحر. امرأة تلفّ الضمادات حول ثدييها وترتدي كنزتين على الأقل تحت قميصها. لا بدّ من أنّها كانت تمتلك ثديين صغيرين. لا يمكنها النجاح في ذلك لو رأتها باربرا ويندسورز، هل يمكنها النجاح فعلاً؟ هل ستكتشف حجم صدرها.

الفصل الأول: «على الرغم من أنّه قد تبيّن أنّ حجم صدر والدي C 32، فإنّه ظلّ يلفّ الضمادات حول ثدييه بسرّيّة في غرفة نومه المسدلة الستائر».

يمكنني الجلوس وكتابة هذا الكتاب مرّة واحدة. لن أستغرق وقتًا طويلاً بمجرّد الحصول على التفاصيل. لن أحتاج إلى التحقّق من التفاصيل حتّى مع كولمان. يمكنه البحث عن البراهين عندما ننهي عملنا، ولن يزعجه هذا أصلاً. فكثيرا ما رأينا أشخاصًا يسعون إلى الانتقام، لذا لا ينبغي أن نلومه.

كلّ ذلك في سبيل العزف على الترومبيت. ألم يكن هذا هو الحوار الذي قرأته في صحف الأحد؟ نقلت الصحف عن أصدقاء جوس مودي أنّه عاش ومات من أجل الموسيقى. هذا كلام فارغ لا أقتنع به. لم أكن أحبّ موسيقى الجاز على أيّ حال، لا يمكنني تخيّل شخص يضع نفسه في كلّ هذه المشاكل والمصاعب ليعزف على البوق فقط.

أعتقد أنّ الموسيقى حجّة غير منطقيّة على الإطلاق. سأتركها للحمقى ليقتنعوا بها. سيكون كتابي ذلك الكتاب الذي يختطفونه من رفوف المكتبات، سيكون عملاً فضائحيًّا مثيرًا.

هذا ما أريد من كولمان مودي أن يعرفه: ما الذي جعل جوس مودي تتحوّل إلى مخنّثة؟ ما هو السبب الحقيقي الذي كان وراء تظاهرها بأنّها رجل؟ كانت مختلفة، أنا متأكّدة تمامًا من أنّها كانت مختلفة عن جميع المخنّثين الآخرين. عادت جوس مودي امرأة عندما ماتت فقط. أمضت سائر حياتها ترتدي ملابس الرجال وتعيش كالرجال، إلى درجة أنّ ابنها اعتقد أنّها كانت رجلاً. لا، لم يكن هذا مسارًا طبيعيًّا لشخص مخنّث. ألم تكن هناك امرأة ضابط في الجيش عاشت حياتها كرجل؟ إنّها خلفيّة جيّدة. لن يكون مجرّد كتاب مثير عادي. ولكنّني لا أمتلك الكثير من الوقت. ينبغي أن يصدر الكتاب بسرعة. بعد إعادة التفكير في الموضوع يمكنني نسيان الخلفيّة. هل كانت مجرّد منحرفة جنسيّة أم ماذا؟ ما الذي حدث معها أوّلاً؟ ما هي القصّة الحقيقية؟ كيف تمكّنت من التظاهر والخداع طيلة هذه الفترة؟ كيف لم يتمكّن أيّ من الصحافيّين الأذكياء الذين أجروا مقابلات معها مرارًا وتكرارًا على مدى سنوات طويلة من ملاحظة أيّ شيء؟ لم يكتشف أحد هذه الخدعة. أمّا الآن، وبعد فوات الأوان، فالجميع يقول إنّ ذلك كان في غاية الوضوح. كلام فارغ. نظرتُ إلى صوفي في المرآة. رفعت شعري ووضعت بعض الدبابيس. بدوت أكثر ذكاء بعد أن رفعت شعري. أعلم تمامًا أنّ تلك المرأة التي بداخلي، هي صوفي الذكيّة.

دلفت إلى مطبخي الصغير ووضعت الغلاّية. أخذت بعض القهوة الطازجة من الثلاّجة ووضعت ثلاث ملاعق مليئة في آلة طهي القهوة. أخذت فنجاني وصحني المفضّلين المنقّطين بالأبيض والأسود من الرفّ الخشبي ووضعتهما على الطاولة. ربّما لا يحبّ كولمان القهوة الطازجة. كيف أصبح هكذا مع مثل هذين الأبوين؟ يفتقر كولمان إلى الكثير من التهذيب، حتّى إنّه لا يحبّ موسيقى الجاز.

كولمان متحفظ للغاية حقًّا، إنّه بمثابة أحجية بالنسبة إليّ، أحجية بالفعل. يُخيّل إليَّ أنّ صوفي بدأت تجد كولمان محيّرًا أكثر من جوس مودي. صببت القهوة وأضفت الحليب. لم أزر إسكتلندا من قبل. سمعت أنّ النّاس ودودون هناك. أتساءل إن كان ذلك يعني أنّهم سيكشفون المزيد. ينبغي أن يكون الأمر شبيهًا برحلة بالنسبة إليّ. سأعود من إسكتلندا صوفيا أخرى. ولن يقول والداي كالعادة بعد اليوم: «سارّة فعلت كذا وسارّة قالت كذا». سأنجح هذه المرّة. يمكنني الشعور بهذا في داخلي، في عظامي. أنا متأكّدة من هذا تمامًا. (هل سيحبّونني؟ هل يجعلنا النجاح محبوبين؟) ستتغيّر حياتي تمامًا، وأنتقل إلى مرحلة أخرى. يمكنني رؤية نفسي فجأة فاحشة الثراء بملابس إيطاليّة، وبشعر كثيف مسرّح على جانب واحد كشعر أختي. عندما تأتي اللحظة المناسبة، سأنظر إلى الماضي وأقول: «كلّ هذا حصل عندما التقيت كولمان مودي. عرفت ذلك من اللحظة التي رأيته فيها».

أخرجت ملفّ أموالي الشخصيّة. أمتلك حاليًّا 3300 جنيه إسترليني مودعة في حساب استثماري في بنك آبي و2500 جنيه في

بريميوم بوندز، ولديّ 1000 جنيه إسترليني في حساب الضمان الاجتماعي في هاليفاكس، و700 جنيه إسترليني في حسابي الجاري. أبدّد الكثير من أموالي في الملابس الراقية. وإذا نجحت في هذا، فسأغدو من النساء اللواتي يرتدين ملابس من ماركة أرماني أو جيفنشي. يمكنني تصوّر جداول المال في هذه السجلّات الماليّة تتغيّر بسرعة كنهر نقدي جامح. أقول لدفتر حسابي المصرفي «إنّنا نتحدّث عن المال الوفير، مال وفير». أدرك أنّ هذا مثير للاشمئزاز، ولكنّ صوفي تستحقّ ذلك أكثر من أيّ شخص آخر. قبّلتُ دفاتر الشيكات الحبيبة ووضعتها في درج مكتبي. أحتاج إلى البدء بالتفكير في كيفيّة استثمار الأموال. لا أريد أن أبدّد الكثير من الأموال. أقفلت بابي الأبيض. لاحظت أنّ معصمي أصبح أكثر حيويّة من خلال الطريقة التي أدرت بها المفتاح في قفل الغرفة من ماركة تشب Chubb. حانت اللحظة الآن يا عزيزتي صوفي، لقد حان وقتك اليوم.

الموسيقى

كان يذوب في الرقص، ولم يكن ذلك يحصل دائمًا. كان يفقد هويّته الجنسيّة، وعرقه وذاكرته. كان يعرّي نفسه، يخلع كلّ ملابسه، إلى درجة أنّه لا يكاد يبدو كائنًا بشريًّا. ثمّ يستجمع نفسه للخروج من هذا العالم. يستعيد نفسه من ذلك العالم البعيد، ياله من ألم! لا بدّ من أن يصل إلى هناك، إلى وسط الزوبعة، إلى أقصى حالات النشوة في الدوائر الموسيقيّة، حتّى يفقد عقله تقريبًا. تلك رحلة لاعقلانية وفي منتهى التوحّش، حتى أنّه كان يخشى فقدان عقله تمامًا.

يرطّب شفتيه، يصفّق، وينقر بأطراف أصابعه ويطير. يذهب عميقًا، يحوم ويتلفت ليصل إلى أدقّ خبايا نفسه، إلى تلك النقطة السوداء الصغيرة. وكلّما توغّل فيها غدت أدقّ وأصغر. هذا ما يحصل حقًّا. يحدث هذا بسرعة، يتحرّك بسرعة جارفة، تتحرّك أصابعه كالمطارق المحمومة مُفجّرةً عاصفةً جامحةً، تتفجّر عاصفة بشفتيه الجلديّتين وفمه الكبير. ينحني مع الرياح، يلوّن طبقات الصوت، ويدندن بجاذبيّة هائلة أو خفيفة. لا يكذب مطلقًا. يخبرك الحقيقة كما هي، كما هي تمامًا.

يعزف أغنية O-bop-she-bam. ويرتجل تغييراته الخاصّة. تتسارع التغييرات والارتجالات، وتصبح أسرع وأخطر. يلهث وراءه البيانو. يتعرّق مثل الحصان. هيّا غيّرها كلّها، غيّرها بأكملها. الموسيقى في دمه، يطهوها بدمه.

في الماضي، منذ زمن طويل، عندما كان شيئاً آخر وشخصًا آخر، وحين كان هي، تلك الفتاة، كان الترومبيت يصرخ. كان مثيرًا، بل في غاية الإثارة. كانت هي مثيرة، ترتفع عندها حرارة الغرفة بأكملها. يعزف علامات كثيرة كمؤثّرات صوتيّة إضافيّة. يختنق الترومبيت، فقد كان عاريًا. هذه هي موسيقى الجاز العارية. O-bop-she-bam موسيقى لا تكذب مطلقًا، بل تقول الحقيقة كما هي.

هناك في ذلك المكان؛ لقد فرض عليه أن يشاهد موته، أن يشاهد مندهشًا الورقة التي سيلعبها. رأى نفسه في مشهد فلاش باك. كان مجرّد فتاة صغيرة تمشي على سكّة حديد قديمة مهجورة بثوب أحمر، تحمل باقة من زهور السكك الحديديّة لأمّها. ذهب بعيدًا أكثر في الماضي، حتّى وصل إلى لحظة ولادته بالضبط. كاثلين القابلة كانت هناك. (لطالما قالت والدته إنّ اسمه لا بد من أن يكون كاثلين أو جوزفين). تتمتّع كاثلين القابلة بيدين كبيرتين سميكتين كيدي الجزّار، يدين سمينتين وفي غاية النعومة. سحبت كاثلين الرضيعة الزلقة التي تكسوها الرغوة، ورفعتها عاليًا. كان الحبل السرّي ملتفًّا حول رقبة الطفلة. وعلى كاثلين أن تحرّر رقبتها أوّلاً قبل أن تتمكّن من قطع الحبل. قالت للأم: «يالها من فتاة محظوظة، محظوظة للغاية».

عبَّ نفسًا طويلاً ونفثه في الترومبيت. لم تحظَ الموسيقى بأيّ نفس ولا بأيّ ذرّة هواء. كان ترومبيته يتنهّد بمحض علامات موسيقيّة شبحيّة. وكان بإمكانه في ذلك المكان، وهناك في ذلك العالم السفلي، أن يرى نفسه عندما كان طفلاً صغيرًا منهكًا. أعاده الترومبيت إلى ولادته المرهِقة. وهناك مع موسيقى ذلك العالم السفلي بدأ الحبل السرّي يتأرجح.

تأرجح الحبل السرّي صعودًا وهبوطًا حتى قطعه، قطع الحبل وشاهده ينزلق في الدلو. كان يبدو مثل مجموعة من الثعابين الملتفّة على بعضها البعض. بدأت الطبول بالهسيس. عزف ترومبيته موسيقى الجاز جتباكيت. دعكت كاثلين الطفلة بقوّة ومدّت يد الفتاة السوداء الصغيرة إلى أمّها. ابتعد للغاية ولا يزال يعزف، سحب الماضي أو المستقبل، وأخذ يتأمّل الوجوه. ماذا تفعل تلك الوجوه اللعينة في الموسيقى؟ لعقت الأمّ طفلتها، لعق ترومبيته.

أكثر ما أفزعه هو وجه الحانوتي الذي تولّى التعامل مع جسده، ألبرت هولدينغ. كان يضع حول عنقه قلادة ذات علامة نحاسيّة تقول: للموت عشرة آلاف باب ليخرج منها الإنسان. وثب خارج الموسيقى وصرخ «أراك لاحقًا». وعندما وصل إلى أقصى حالات إبداعه في الموسيقى كان باستطاعته رؤية أصابع هولدينغ الطويلة تفكّ أزرار القميص، قميصه، وتفكّ عنه الضمادات. كانت يدا هولدينغ باردتين وأنفاسه حارّة، وأطراف أصابعه قاسية. تمكّن من رؤيته ينحني على الطاولة التي سيستلقي عليها باردًا وناعمًا وعاريًا. كان

بإمكانه رؤية شجرة الصنوبر تتمايل، وطاولة الموتى، وتعساء الحظّ اللعينين الآخرين الذين غادروا مثله وفي التوقيت نفسه بالضبط.

ربّما هو في غاية الغرابة أن تشارك شخصًا مّا عيد ميلاده، ولكنّ الأغرب أن تشاركه يوم موته. كانوا جميعهم هناك، رفاقه الموتى في أكفانهم. كان يمكنه الرؤية عبر أشجار الصنوبر. كانوا موتى، جميعهم في الوقت نفسه بالضبط. هذا ما يجمعهم. موتى في آخر اجتماع مزدحم لهم.

تتغيّر الصورة مع الضوء. كان بإمكانه الشعور بنفسه يتحوّل تحوّلات جارية مستمرّة. تغيّر شكل الجسم، من فتاة إلى امرأة شابّة إلى شابّ إلى رجل عجوز إلى امرأة عجوز. اعتدلت المرأة العجوز على الطاولة الباردة ونظرت مباشرة في عينيه. تقول: «من تظنّ أنّك تخدع؟» ويشاهد اللهب يلتهم الجسد كلّه.

كان يملك أذنًا مرهفة. يمكنه عزف أيّ شيء من خلال السمع. يمكنه أن يصيخ السمع للجميع في البار.

عندما بدأ العودة من تلك النقطة السوداء الصغيرة، وجد نفسه على خطّ سكك الحديد القديمة الذي لم تثق فيه والدته مطلقًا، رغم عدم مرور أيّ قطارات عليه. ومع طول مشيه على خطّ سكّة الحديد أدرك أنّ والدته كانت محقّة بعدم وثوقها فيه. تندفع القطارات عليها مطلقة صفيرها وبخارها. يبدو جميع الأشخاص الذين ينزلون من القطار مكتفين أو غير مكتفين، عاشقين أو غير عاشقين. يندفع القطار في اللهب. كانت الورود الصفراء مزهرة على امتداد السكّة الحديديّة.

وجد نفسه واقفًا على المسرح يصفّق، مع الإضاءة المسلّطة عليه، يصفّق مخترقًا الضباب الصناعي. نظر إلى ميلي فضجّت الحانة بأكملها. كان أنفه يضحك ووجهه يضحك ويداه تصفّقان، مع وشاح حريري أحمر برّاق. كانت الموسيقى تغلي في دمه بالفعل.

ضجّت الحانة وأصبح الجميع ينقرون الأرض، ويقفزون ويصيحون ويصفّرون ويهتفون. كانوا يريدون منه المزيد. كانوا يصرخون «كلّمني، تحدّث معي!». «تحدّث معي!»، «اذهب إلى الأقصى!». كانوا يريدون مزيدًا من الدم. غاص مرّة أخرى في الرقص الذي لم يكد يخرج منه. لا يمكنه السيطرة على ساقه اليسرى عندما يعزف على ترومبيته. ترتجف وتتحرّك مثل شجرة في مهبّ الريح. تتحرّك قدمه جيئةً وذهابًا. يغلق عينيه بشدّة ليمنع تسرّب الضوء إليهما. يتحوّل بذاته إلى موسيقى. ويغوص حتّى دمه في الأحلام، ويذوب في ألم طويل وبطيء.

يتلاشى الضوء في الموسيقى ويرتفع محلّقًا. كان الترومبيت يُشعّ به، ثمّ يأخذه صعودًا أو هبوطًا. كان قادرًا على أن يطفو، وحتّى على أن يطير. تأرجح طافيًا في عتمة الضوء. ليس هناك درجة أعمق من هذه. شعر بأنّه يغوص أكثر فأكثر. شعر بأنّ واحدة من قططه تغوص بدورها في الرقص. كان قادرًا على الغوص أكثر فأكثر في جوف العالم السفلي. إحساس غامر بالسقوط الأبديّ دون توقّف،أشبه بالموت، بل بات على حافّة الموت. كانوا يتمنّون، في كلّ مرّة يعود فيها إلى تلك الوجوه، أن يرموا الطين على وجهه ويغرقوه في سيل من الزهور عندما يستلقي في قبره.

هزّته هذه الرحلة. كانت رحلة مؤلمة، ولكن لا شيء يضاهي الألم. فالألم هو الشيء الأحلى والأكثر جمالاً في العالم، أفضل من الجنس. صعود أو هبوط عشوائي، طيران أو انزلاق، مشي أو عدو، إطلاق، هجوم كاسح، هادئ، لعقٌ، تهشّم، وأقصى درجات النشوة.

خارج هذا العالم تمامًا. كان يمكن أن يكون الفارس الرابع؛ الموت والدمار، الرسول والمرسل. بإمكانه أن يكون المراكبي، المهاجر، المحروم. لم يتمكّن من منع نفسه من التغيّر والتحوّل، تغيّرات سريعة، تغيّرات دائمة. يستمرّ بالتحوّل طيلة الوقت. يسقط عنه كلّ شيء: الضمادات، والحمّالات، وأزرار القمصان، والساعات، وزيت الشعر، والبذلات، والأزرار، وربطات العنق. يعود بنفسه مرّة أخرى إلى تلك السنوات البعيدة، يمشي على امتداد خطّ السكّة الحديديّة مع حبل سرّة طويل جعلته والدته حبلا، مرتديًا ثوبًا أحمَر. إنّه شعور غامر بالتحرّر، وبالرغبة في أن تكون فتاة أو رجلاً.

لعلعت الموسيقى في دمه وفي خلاياه، لكنّ الغريب أنّ الدم في ذلك العالم السفلي ليس له أيّ أهمية. تصبح كلّ الجزيئات مجرّد تفاصيل. تفيدك في الغوص أكثر فأكثر لتضع قدميك هناك فقط، ثمّ تفقد في ما بعد كلّ أهميتها. تتهاوى نفسه وتنهار خواصّه وشخصيّته وغروره وشعوره الجنسي لتتبدّد في النهاية ذاكرته بأكملها. ينهارُ كلّ هذا وينحلُّ كطبقاتٍ متساقطة من الجلد. كان يحرّر نفسه من كلّ شيء بترومبيته. ينزل إلى الهاوية ليقف وجهًا لوجه أمام الحقيقة التي تقول إنّه لا أحد.

وكلّما تلاشت شخصيّته تمكّن أكثر من العزف على ذلك البوق. فالعزف على البوق لا يعني أن تكون شخصًا مّا قادمًا من مكان مّا، بل يعني أن تكون مجهولاً قادمًا من المجهول. كان البوق يُعرّيه بلا رحمة، حتّى يتناهى إلى اللاشيء، دون أيّ ماضٍ، دون أيّ شيء.

لولا ترومبيته لمات بالفعل، لمات منذ زمن بعيد، لماتت روحه وهو على قيد الحياة. لم يكن يهمّ على الإطلاق أن يتظاهر بأنّه شخص آخر، لا شيء يهمّ على الإطلاق، فالبذلة هي مجرّد بذلة تغطّي الجسد. يحتاج الجسد إلى ارتدائها فقط ليعزف على الترومبيت. والموسيقى لوحدها تعرف كلّ شيء، قلب الموسيقى المظلم فقط. لا أحد غيره يعلم ما كان عليه، وما الذي أصبح عليه الآن. يمكنه أن ينسى كلّ ما يتعلّق بذلك. يهتف المرسل بصيحته ويتقدّم. يمكن أن تكون الصيحة كلمة «طفل» أو «طبخ» أو «هيّا». وهكذا عندما يقلع يتجسّد فيه قرن كامل يتّجه إلى نهايته. المغاربة المتوحشون، الفضائح، إسكتلندا، إفريقيا، العبودية، الحريّة، أن يكون امرأة أو رجلاً، كلّ شيء، ولا شيء، سواء كان مريضًا أو بصحّة جيّدة. الشمس، القمر، الأسود والأبيض، لا شيء يهمّه على الإطلاق، لا شيء في الماضي أو في المستقبل. ثبّت أصابعه على نوتة سي العالية، وانطلقت الصرخات. انطلق. مالت علاماته الموسيقية وانحنى جسمه، انحنى جسمه بأكمله.

توجّه ترومبيته إلى الأسفل، ثمّ ارتفع إلى السماء. عزف نوتة سي عالية أخرى، وتابع الضغط عليها، وتابع النفخ في الترومبيت. كان ينفخ قصّته. وكانت قصّته تتطاير مع الرياح. يتركها تتسرّب في

الرياح. مزّق نفسه حتّى انفجر، ثم استعاد روحه ببطء واستجمع أشلاءه مجدّدًا.

الجنس

منذ وفاة والده، لم يقابل كولمان أيّ شخص من أصدقائه. عزل نفسه عنهم، ومشى لوحده على غير هدى. برادي، مايكل، لوكاس، سامي. سامي أكثر أصدقائه قربًا وإصرارًا. ترك له الكثير من الرسائل على المجيب الآلي، وجاء إلى شقّته مرارًا وطرق على الباب كثيرًا. لم يستطع كولمان مواجهته. عرف سامي لوقت طويل، وكان سامي يعرف والده جيّدًا. وقد صدم صدمة كبيرة جدًا.

عمل كولمان لمدّة سنة قبل وفاة والده في التوصيل على درّاجة ناريّة. كان يحبّ القيام بذلك مرتديًا خوذته الكبيرة. يفسح النّاسُ الطريق أمام الرجال الذين يرتدون خوذةً مثله. يمكنه رؤيتهم، ولكنّهم يعجزون عن رؤيته. كان الأمر شبيهًا بالتنكّر. تمكّن دائمًا من إخفاء ضحكته وراء هذا القناع. وهو يحبّ القفّازات الجلديّة الكبيرة، والحذاء الأسود الطويل، وبقية العتاد. لم يكن ذلك النوع من العتاد الذي اعتاد ارتداءه من قبل. تجعله هذه الملابس يبدو أكبر. ارتسم وجوده في المرآة في صالة بيته. لا يمكن لأحد أن يعبث معه. كان النّاس يهابونه، ووجد نفسه

مخيفًا. كان قادرًا على تخطّي الطوابير دون أن يوقفه أحد. وكان قادرًا على اختراق المرور المزدحم رافعًا إصبعه الوسطى لأولئك السائقين الأغبياء اللعينين الذين لم يدركوا أنّ لديهم مرآةً جانبيّةً. كان يتخطّاهم هادرًا بدرّاجته وموجّهًا إليهم الشتائم، ومشيرًا أوّلاً إلى مراياهم الجانبيّة وثانيًا إلى خوذته ليدركوا كم يراهم أغبياء.

لطالما شعر بأنّه حرّ عندما كان يعمل في التوصيل. أحبّ لعب دور سائق الدرّاجة الناريّة، ولم يعرف عنه الآخرون أيّ شيء آخر، فالجميع يكره راكبي الدرّاجات. كان في وسعه ببساطة ارتداء الزيّ الخاصّ والانضمام إلى جماعة راكبي الدراجات ليشير إلى راكبي الدراجات الآخرين على الطرقات. عندما كان يتوقّف لشراء سندوتش لحم الخنزير كان النّاس يفسحون المجال له غريزيًّا. يا لهذا الاكتشاف المذهل. معظم عاملي التوصيل كانوا مجرّد رجال لطيفين مثله، ولكن لا أحد منهم يعترف بذلك. عندما كان يتوقّف لتسليم طرد مّا وأخذ توقيع المستلم، غالبا ما يُكتب التوقيع بسرعة كبيرة، ثم يُغلق الباب قبل أن يزمجر بدرّاجته ويذهب بعيدًا.

لطالما كان على عجلة من أمره. عليه أن يتحرّك بسرعة للحصول على المال، مع أنّه كان يحصل على مبلغ مالي سخيف. قد لا يدرك رؤساؤهم في العمل أنّهم يعملون في مدينة مكتظّة. كان الناس يدورون في شوارع لندن أيّام العربات التي تجرّها الأحصنة اللعينة أسرع من يومنا هذا. لا يمكنك أن تطلق ريحًا حتّى في ميدان بيكاديلّي.

ذهب كولمان في يوم العمل التالي لرؤية والده في صالة الجنازات.

ظنّ أنّ ذلك سيُبقيه محتفظًا بعقله. أخبر رئيسه بأنّ والده قد توفّي فقال: «آسف لسماع ذلك»، وتابع عمله. فمشى كولمان وتركه. استبدّ به الغضب، شعر بغضب شديد من كلّ هؤلاء الأوغاد. وعلى أيّ حال، لم يكن يحبّ بقيّة العاملين معه في عالم التوصيل. اللعنة عليهم جميعًا.

أقصى ما يحتاج إليه الآن هو اسم جديد وعمل جديد، بداية جديدة في الحياة. لم تكن فكرة أن يحمل اسم مودي لبقيّة حياته مجرّد مزحة. ربّما يمكنه العودة إلى اسمه الأصلي. ما هي المهنة المناسبة لوليام دونسمور؟ التأمين؟ التأمين ضدّ الأشياء المقرفة التي قد تحدث. هل يصبح طبيبًا؟ ما هو الاختصاص المناسب له؟ الجراحة التجميليّة؟ عمليّات تغيير الجنس؟ الهرمونات؟ يا إلهي! من أين أتت هذه الأفكار. هل هي أفكاره فعلاً؟ هل كان يهذي أم ماذا؟ انفجر دماغه حقًّا. وليام دونسمور، وليام دونسمور. سيعمل في أيّ مهنة عادية بسيطة لا تتضمّن أيّ مخاطرة. ما هي المهنة الأكثر أمانًا؟ لا يمكنه أن يفكّر في أيّ مهنة. اللعنة ينبغي أن ينسى وليام دونسمور اللعين. لن يصير شخصًا حقيقيًّا أبدًا.

اقتنع كولمان مودي بأنّه بدأ بالتراجع. جلس يشاهد برنامج «ستار تريك» بنسخته الجديدة، وقد استولى بعض الصلعان اللعينين على السفينة الفضائيّة «أنتربرايز». كان يأكل رقائق الذرة بما لا يقلّ عن عشرة أطباق يوميًّا، ويقرأ مجلة «بينو» للقصص المصوّرة. نفدت النسخ القديمة لديه من مجلات أور ويلي وذا بارونز. أزعجته قصص البارونز المصوّرة فتوقّف عن قراءتها. تذكّره هذه المجلات بوالده. وكيف أنّه يحبّ هذه الأشياء ليمتلك أغراضًا إسكتلنديّة. كلّ تلك الأشياء

الإسكتلنديّة العتيقة السخيفة يملكها ليبقى على اتّصال بالوطن. كلّما ذهبنا إلى تور عدنا بعلب من فطائر البطاطس، وشرائح من النقانق، وزجاجات بارز ان برو، وكعكة الغريبة، والكعكة السوداء.

استيقظ وصبّ لنفسه كأس جاك دانييلز كبيرة. قضّى ليلة طويلة يشاهد التلفاز، فلم يكن بمقدوره القيام بغير ذلك. من المرهق فعلاً التحدّث إلى صوفي ستونز حول حياة والده. كان طيلة الوقت يتخيّل أمّه جالسة في إحدى زوايا غرفة الفندق تلك وتحدّق فيه فقط، لا شيء آخر. جعله هذا يشعر بالخدر. أمّا اليوم فقد ظهر والده أمامه للحظة. أسوأ ما في الأمر أنّه كان يبتسم، يبتسم لكولمان غير مبالٍ بالعالم. جعله ذلك يتراجع قليلاً، لكنّه فكّر عندها في المال. تجرّع كأس الويسكي جاك دانييلز. وخاطب نفسه: «أيّها الخائن، هل تشرب ويسكي جاك دانييلز بدلاً من البيرة الإسكتلنديّة الرائعة». هناك جريمة قتل مروّعة على التلفاز. إنّه عبارة عن تمثيل فقط. هدّأ من روعه، وشرب كأسه عن آخرها، ثمّ ملأ كأسًا أخرى.

تخيّل أنّه يرفع صوفي ستونز على طاولة المكتب الذي لم يزره قطّ. فكّ سحّاب سرواله الجينز. أخرج عضوه ومرّر إصبعه على شقّ مؤخّرتها. لا بدّ من أنّها تحبّ هذه الحركة. لا بدّ من أنّ جميع كاتبات الصحافة الرخيصة يعشقن ذلك، أولئك اللعينات الممرّغات بالفساد والقسوة. همس في أذنها بكلمات بذيئة. وأخذ يحرّكها جيئةً وذهابًا ببطء. بدا عضوه أكبر منذ وفاة والده، أكبر وأصلب. ظهرت ابتسامة خفيفة على وجهه. أخذ يمرّره على أعضائها ويصرخ بكلمات بذيئة في

وجهها. أمسك بخصيتيه وداعبهما، ثمّ داعب عضوه بسرعة أكبر حتى انتصب، وأخذ يتفوّه مجدّدًا بألفاظ بذيئة، آه اللعنة، اللعنة، اللعنة، حتى نزل الماء في كلّ مكان، الكثير من مائه، بل أكثر من اللازم. كم طفلاً يمكنه أن ينجب بهذه الكميّة؟ الكثير الكثير. يمكنه أن ينجب جيلاً كاملاً من الأطفال بهذه الكميّة. ازدادت كميّة منيّه أيضًا منذ وفاة والده. هذا غريب، ولكنّه صحيح بالتأكيد. قذف الكثير منه، فنهض ليجلب بعض المناديل ليمسح البقايا، دون أن يغلق السحّاب، ثمّ جلس يشاهد بقيّة الجريمة في التلفاز حاملاً كأسه من ويسكي جاك دانييلز في يده. لقد قابلها صباحًا. قالت إنّها تريد الرسالة. وضع الرسالة في جيب حقيبته من الأمام، ورفع السحّاب.

كان خطّ يد والده يباغته في كلّ مرّة يخرج الرسالة وينظر إليها. ارتدى ملابسه: كنزة فضفاضة وسراويل فضفاضة صنعت في أمريكا. رفع جواربه الرياضيّة البيضاء وارتدى حذاءه الرياضي الضخم. لطالما وضع رباط الحذاء على طريقته الخاصّة. لم يكن يربطها على شكل عقدة، بل يطويها بجانب لسان الحذاء وهكذا يبدو الرباط معقودًا وغير معقود في الوقت نفسه. كان يسحب اللسان العريض حتّى يأخذ مكانه الصحيح. نظر في المرآة، حملق متأمّلاً ووضع بضع قطرات من الكولونيا على وجهه. وجد المكان صامتا للغاية ما أثار انزعاجه. ما هذا الهدوء اللعين؟ لا أثر للموسيقى، هذا هو السبب. لم يعد يسمع الموسيقى منذ وفاة والده. أدرك هذا الآن. لم يعد قادرًا على الانتظار أكثر، ينبغي أن يخرج. حدّث نفسه: هيّا اُخرج، ماذا تنتظر؟،

ثم سرّح شعره. هيّا أُخرج أيها اللعين. ابتسم لنفسه. تخبره النساء دائمًا بأنّه وسيم، لكنّه لم يكن فتى وسيمًا. لقد أفسدت نظّاراته الأمر برمّته. كان آخر شخص حصل على رفيقة في صفّه. ولا يزال غير قادر على رؤية نفسه شخصا وسيمًا، ولكنّ الجميع يقول له ذلك.

ستراقبه صوفي ستونز، فلا بدّ من أن يكون حذرًا. لقد مضى وقت طويل منذ آخر مرّة انتشى فيها. كانت صوفي ستونز مسلّحة بجهاز التسجيل ومفكّرة وقلم حبر مزخرف. قالت وهي تكتب شيئًا مّا: «لنكتب أهدافنا من الرحلة إلى جلاسكو». نظر إليها كولمان مشدوهًا. (لديها ضعف كبير أمام كلمة «أهداف». فبمجرّد أن تقولها تبدأ الكتابة، ولا تكتب شيئًا قبل ذلك). قالت بسعادة: «حسنًا، الأهداف: ما هي أهدافنا؟ في البداية». كتبت رقم 1: «لا بدّ من معرفة كلّ شيء حول طفولة جوس مودي/ جوزفين مور. ثمّ ماذا؟ ماذا أيضًا؟ لنرى». كتبت رقم 2: «جمع أيّ معلومات من أيّ مصدر؛ الأصحاب والأقارب والمدرسة. حسنًا، حسنًا». شعرت بأنّها محظوظة. رقم ثلاثة! ثمّ قالت بما يشبه الصراخ: «يجب إجراء مقابلات مفصّلة مع الناس الذين يعرفونه/ يعرفونها جيّدًا».

قاطعها كولمان: «لا تهتمّي بهذا الكلام الفارغ من قبيل معارفه/ معارفها، أصدقاؤه/ أصدقاؤها. هذا كلام فارغ، يمكنك أن تتحدّثي (عنه) وحسب».

- ولكنّنا ينبغي أن نتذكّر دائمًا أنّ (هو) كان في البداية (هي).

- تقولين هذا لي شخصيًّا! هل تظنّين أنّني نسيت مثلاً؟

رابعًا: انقبضت قليلاً، وقالت: «لا بدّ من وصف البيت الذي نشأ فيه». خامسًا: «شهادة الميلاد». سادسًا: «الحصول على جميع الصور والسجلّات والرسائل، وما إلى ذلك من أشيائه القديمة». سابعًا: «تتبّع جميع الأقارب الذين لا يزالون على قيد الحياة. وسؤالهم عن آرائهم». ردّ بنبرة حاسمة: «لا يوجد أقارب على قيد الحياة. ما الذي تتحدّثين عنه؟».

ابتسمت صوفي ستونز ابتسامة صغيرة مخفيّة. لم يتوقع كولمان أيّ شيء من هذا القبيل. كان يعتقد أنّ بإمكانه الجري وراء خيط مّا، وبطبيعة الحال ستؤدّي كلّ الخيوط الأخرى إلى بعضها البعض. ولكن هذا أشبه بعملية تغيير جنس سخيفة. سمع صوفي تقول شيئًا مّا في الخلفيّة: «إذن، سأرافقك». اللعنة. قالت صوفي وهي تربّت على ساقه: «سنكون في غرفتين منفصلتين بالطبع». انتصب عضوه قليلاً وشعر بالإحراج الشديد فجأة. شعر بنفسه يتحرّك هنا وهناك ويعرف أشياء ليست صحيحة تمامًا. كم تمنّى أن يحظى بدماغ آخر! دماغ ذكي قادر على وضع خطّة مختلفة، خطّة مثل خطّتها. ولكن كلّ ما قاله: «هل دعوتك إلى الذهاب معي؟» ليعرف ما إذا كان هذا يزعجها، ولكنّها لم تنزعج. أجابته مبتسمة: «لا، ولكنّني آتية معك. لا يمكنك النجاح في هذا من دوني. لا أحد يستطيع. أنت بحاجة إلى بعض القدرات الخاصّة التي يتمتّع بها الصحافيّون، لأنّ النّاس لا يتابعون الحديث إلّا في هذه الحالة». فركت إبهامها بأصابعها بطريقة فاحشة. وقالت: «إضافة إلى ذلك، اكتشفت أنّ والدة جوس مودي لا تزال على قيد الحياة».

الآخرون: عازف الدرامز

قال البعض إنّ مودي يتمتّع بوجه طفولي، ولكنّ عازف الدرامز لا يعتقد ذلك مطلقًا. كان بيغ ريد ماكول يبرّح ضربًا أيّ شخص يقول مثل هذه الأشياء. أمسك مرّة بشخص يقول: «هناك شيء غريب متعلّق بمودي». كان ذلك في حانة وي جاز كلوب بعد فترة قصيرة من انفصالهم عن فرقة ويتنيسرز وتشكيلهم لفرقة بوجي وودي مودي مين.

لا يدع ماكول أيّ شخص يقول مثل هذه الأشياء يفلت من يده. يبلغ طول ماكول 187.96 سم، ويزن 140 كيلوغرامًا. حشر الرجل في الزاوية وانقضّ عليه بالضرب بأصابعه العريضة. ضربه بكوعه، وهو يقول: «من الذي»؟، ضربه ضربة أخرى، وأكمل: «تقول عنه»؟، ضربة أخرى، «إنه يبدو غريباً»؟ تمسّك الرجل بموقفه: «يبدو صوت مودي عالياً مثل صوت امرأة». أسقطه ماكول على الأرض. كان مزاجه غاضبًا. وبمجرّد أن أسقطه أرضًا، ساعده على النهوض مجدّدًا وبصق على يديه، ثمّ أزال الغبار عن سترته. «آسف، كان عليَّ

فعل ذلك. فهذا شيء في غاية الأهمّيّة». ألقى ضحكته المشهورة مع شخرة قصيرة، تبدو كضحكة خنزير لعين، ثم ذهب إلى البار متمتمًا: «أعطني كأس ويسكي بالثلج من فضلك». أخذ بيغ ريد ماكول كأس الويسكي مبتسمًا، وغمز بعينيه وقال: «يا له من متسكّع غبيّ ماكر. لا يمكنني تحمّل هذا النوع من الأشخاص. هل رأيت وجهه عندما ضربته؟».

حصل «بيغ ريد» على هذا اللقب بسبب مزاجه. ولطالما كان فخورًا بذلك. لطالما حصل على العديد من الألقاب مذ كان صغيرًا. كان لقبه «بيغ مان» عندما كان في الثالثة، أطلقه عليه جدّه العصبي. و»براسنيك الجريء» عندما بلغ حوالي السادسة من عمره، بعد أن طلب قبلةً من ساندرا ماكجريجور، فقالت له بصوت عالٍ بما فيه الكفاية ليسمعه الشارع كلّه: «أصبحت جريئًا للغاية يا مالكولم ماكول». و«بوتشر الصياد» عندما كان يصيد مع شقيق جدّه تاموك، وهو في الثانية عشرة من عمره. وأُلصقَ به اسم «بانك» لوقت طويل لأنّه كان غالبا ما يهرب من المدرسة. ثمّ اسم «مالكي» حتى التاسعة عشرة من عمره حين بدأ بعزف الدرامز. أمّا اسمه الحقيقي فهو مالكوم ماكول، ولكنّه يمتنع عن الردّ إذا ما ناداه به أحد طيلة حياته. من الذي أطلق عليه لأوّل مرّة اسم بيغ ريد؟ لا يتذكّر بالضبط، ولكن اسم بيغ ريد انتشر أسرع من النار في الهشيم، وأسرع من الدم على أرضية البار.

اسم بيغ ريد هو اسمه المفضّل لأنّه كان يؤمن بالشيوعيّة، وكان مزاجه حارًّا وأحمر للغاية. كانت الأسماء المستعارة أشبه بالسحر، لأنّها

تسمح للنّاس بأن تتعرّف عليك وعلى سبب تسميتك بها. وبيغ ريد اسم يليق به بالطبع. في صغره، كان الأشخاص الذين لا يتمتّعون بأيّ شعبيّة لا يملكون ألقابًا. وكان هؤلاء الأشخاص يسبّبون له الكثير من الألم. بعض هؤلاء الأوغاد الأذكياء يهربون إلى ركن المدخّنين ويخترعون لأنفسهم لقبًا جديدًا! ثمّ يجدون طريقة ماكرة لإظهار هذا اللقب إلى العلن، ولكنّه لا ينتشر بتاتًا. يهمهمون دائمًا بذلك الاسم ليظهر أسخف ممّا هو عليه أصلاً. حاول الأولاد الذين يحملون أسماء مثل ديفيد، بيتر، والتر أو جون تحويلها إلى ماينس، سبايدر، بيناتس، وكرو، ليجدوا أنفسهم مرميّين مرّة أخرى فوق كومة من أسمائهم المملّة. ولا يمكنهم القيام بشيء حيال ذلك. يجب أن تكون من المشاركين المنافسين لتتوّج بلقبٍ مّا. ينبغي أن تمتلك الصفات التي تؤهّلك لهذا اللقب. نعم، لا بدّ من أن تتوفّر فيك بعض الصفات التي تشبه هذا اللقب. «باناش» أي الواثق من نفسه. لا يمكنك أن تحظى باسم كهذا مثلا لو كنت مجرّد ولد صغير تافه، أو قد تكون لعينًا إلى درجة أنّ اسمك يبدو رائعًا للجميع ولم تضطرّ يومًا إلى تغييره. تخيّل أن تولد باسم مثل مايلز ديفيس. لديك كلّ شيء تريده أصلاً. إذا كان لديك اسم مثل مايلز ديفيس فربّما تبدو بالفعل وكأنّك تقود سيارة مرسيدس. لا أحد يجرؤ على العبث مع شخص بهذا الاسم. مايلز ديفيس، تشارلي مينجوس،جوس مودي.

التقى بيغ ريد بمودي لأوّل مرّة عندما تعرّض عازف الدرامز في فرقة يوتنيسرز للتسمّم. طلب منه أحد أصدقائه أن يعزف بدلاً منه وفعل. ذهب إلى مودي وسأله مباشرة: «ما نوع الإيقاع الذي تريدني

أن أعزفه لك؟» ومنذ ذلك اليوم صار بيغ ريد ومودي لا يفترقان مطلقًا. يمكن لماكول أن يعزف الإيقاع نفسه في كلّ ليلة. يمكنه أن يتذكّر تمامًا كلّ ما كان يقوم به من قبل. كان مودي خاصًّا للغاية مع ترومبيته وكان ماكول منبسطًا جدًّا مع طبوله. كانا يشكّلان فريقًا رائعًا. وكانت الوصلات الخاصّة لماكول وصلات رائعة. كان يكثر من الوصلات الفردية والمونولوجات أكثر من شخصيّات شكسبير. يعزف دائمًا واضعًا إسفنجة المساحيق تحت إبطيه. ويرتدي بذلات مخطّطة باللون الأخضر الفاقع وربطات عنق زاهية. يمكنه أن يضرب على هذه الطبول مُصدرًا أصواتًا كالرعد. عندما انطلقا في تسجيل الأسطوانات معًا كان جوس يمازحه قائلاً: «ستجعل الإبرة تنحرف عن الأسطوانة بهذا الصوت العالي». يشعر ماكول بنداء يدفعه إلى العزف على الدرامز، وكانت الطبول أشبه بأطفاله: الدرامز والطبلة الإفريقية، جاء بها كلّها ليتمرّن على نوتات الدرامز حتّى يتمكّن من العزف دونها.

طلب منه مودي أن يهدّئ العزف قليلاً أو يقلّل من الدرامز. خشي مودي أن يؤثّر في أضواء المسرح. لم يعشق ماكول شيئًا أكثر من قضاء القليل من الوقت مع مودي؛ يقومان بالقليل من التدريب بمفردهما، يشعلان الغرفة بالموسيقى، كانا يرتجلان ويخربشان ويعزفان دون وعي، يعزفان نوتات غريبة. بدا لبيغ ريد أنّهما يفهمان بعضهما البعض كتوأمين غير متطابقين في الشكل. كان بيغ ريد ماكول يندفع في أحيان كثيرة للدفاع عن مودي، دون أن ينتبه لذلك. لم يكن بيغ ريد ماكول مهتمًّا بتاتًا بالتلصّص على الحياة الخاصّة، ولم يكن ثرثارًا مطلقًا، ولم

يجر طيلة حياته وراء الفضائح. يحبّ بعض الشباب الثرثرة ونشر الشائعات والنميمة، ولكنّ ماكول لم يكن واحدًا من هؤلاء.

تقبّل تلقائيًّا امتلاك مودي صوتًا حادًّا قليلاً، وما المشكلة في ذلك؟ يمتلك الكثير من الناس صوتًا حادًّا. أمّا بالنسبة إلى وجهه الطفولي، فالملايين من عازفي موسيقى الجاز الرجال يمتلكون وجوهًا طفوليّة. ألم تروا في حياتكم وجه بيبي دودز أو بيبي ماك أو بيبي رايلي. عالم الجاز مليء بالوجوه الكبيرة المنفوخة كحلوى البودينغ، والخدود الطريّة مثل الجبن. يمكن لرجل يتمتّع بوجه طفولي أن يقوم بالعمل على أكمل وجه. ويمكن لرجل يتمتّع بوجه طفولي أن يقول لك وداعًا على طوف تبحر به بعيداً على جزيرة لم تسمع باسمها في حياتك، أن يأخذك إلى الشعاب المرجانيّة الكبيرة، وأن يزلزل الدرامز، ويجعل الأشجار تعزف على الترومبون. عندما يعزف بيغ ريد ماكول وجوس مودي معاً، كان الحضور يتأوّه ويطلب المزيد والمزيد. كانا يحصدان الكثير من التصفيق! لم يهتمّا بالحصول على التقدير الطبيعي. فقد كانا في ذروة اليأس. الجاز وحده هو ما يهمّهما. موسيقى الجاز كانت تسري في أوردتهما.

معظم صباحات بيغ ريد مليئة بآثار الكحول، وجميع أصدقائه ومعارفه وزملائه المشرّدين يعرفون أنّه من الأفضل عدم الاتّصال به قبل الساعة الثالثة بعد الزوال. وهكذا عندما رنّ الهاتف، وتابع الرنين مرّة تلو الأخرى أدرك بيغ ريد أنّ هناك خطبًا مّا. كانت الممسكة بالسمّاعة على الطرف الآخر امرأة تحمل اسم صوفي ستونز. ومن فرط

آثار الكحول التي أخذت تدقّ رأسه، رغب بيغ ريد في ارتداء ملابس بيسي سميث ذات القياس 12. لم يكن حقًّا على ما يرام. لم يكن آنذاك يشعر على الإطلاق بأنّه على ما يرام. لم يكن يتواصل مع أحد. قالت له: «كنت عازف الدرامز مع جوس مودي، أليس كذلك؟» فأجاب بيغ ريد: «نعم، وما علاقتك بهذا؟ ومن الذي يسأل؟».

جاءه الصوت الناعم من الهاتف: «اسمي صوفي ستونز، صحفيّة في صحيفة ديلي سكاي». كان بيغ ريد على وشك أن يغلق الخطّ، فهو يحتقر الصحافة الرأسماليّة، ويعتبر الصحافيّين مجموعة من الأوغاد الأغبياء المسلوبي الإرادة، ولكنّه تابع المكالمة من باب الفضول.

قالت: «أنا أكتب كتابًا عن تلك الحقيقة المذهلة التي تقول إنّ جوس مودي كان امرأة، هل كنت تعرف ذلك؟».

قاطعها: «لا، وينبغي لك أن تهتمّي بالموسيقى، فقد كان الرجل عبقريًّا حقًّا».

قالت صوفي: «تقصد أنّ تلك المرأة كانت عبقريّة؟» فقال: «مهما يكن من أمر. يا إلهي، هل تظنّين أنّ هذا يزعجني فعلاً؟ هل تظنّين أنّ هذا قد يزعج أيّ شخص كان؟ ما يهمّ في الموضوع كلّه هو تلك الموسيقى اللعينة». سمع أنفاسها تتسارع على الهاتف.

- ولكن هل علمت هذا قبل الجنازة؟

- لا.

- إذن لا بدّ من أنّك قد صدمت حقًّا؟ لا تنكر ذلك. إنّه شخص

عاشرته لمدّة عشر سنوات. ألم تشكّ فيه بتاتًا؟

- قال الكثير من الأشخاص إنّ مودي يتمتّع بوجه طفولي، ولكنّني لم أكن مقتنعًا بذلك. وكنت أضرب أيّ شخص يقول ذلك. أجاب بيغ ريد.

- هل يمكن أن تخبرني ما الذي يفعله مودي في المباول في حمّام الرجال؟

- يعتقد النساء دائمًا بأنّ الرجال يقضّون جلّ وقتهم يحدّقون في حجم أعضاء بعضهم البعض في الحمّامات. لديّ الكثير من الأعمال الأهمّ من مراقبة السكارى الذين يتبوّلون.

- هذا هو الموضوع. ألم يتبوّل أمامك يومًا، وهو سكران؟ ألم تلاحظ أيّ شيء فعلاً، لقد ذهبتما في جولات كثيرة معًا. ألم تلاحظ شيئاً؟ سألته صوفي بنبرة منتصرة.

- كنّا نذهب إلى نوادي الجاز. كنّا مجرّد موسيقيّين. لم نكن مهتمّين أصلاً بالتبوّل هنا وهناك كالأطفال.

- هيّا كن جادًّا معي. قالت صوفي مجدّدًا.

- لا، كوني جادّة أنت. اذهبي عنّي وتابعي تأليف كتابك الغبي. لن يقول كتابك أيّ شيء حول مودي. إذا أردت نصيحتي، دعك من هذا. لن تحقّقي شيئًا سوى إزعاج عائلته. وفي جميع الأحوال، أنا لست مهتمًّا بهذا الكتاب. هذا غير مقبول بتاتًا.

قالت صوفي: «يمكننا بالطبع أن ندفع مبلغًا جيّدًا».

وقف بيغ ريد على رؤوس أصابعه وشدّ جسمه في صالة منزله. وقال بعصبيّة شديدة: «هل تحاولين رشوتي؟ اذهبي إلى الجحيم».

أغلق بيغ ريد هاتفه بعنف وعاد إلى السرير. لا يزال يعاني من أزيز يدقّ رأسه، وما تزال الأغاني تدقّ في صدغيه. قال لنفسه: «يا إلهي، لقد فقدت أعصابي تمامًا». سحب الأغطية مغطّيًا رأسه، وأخذ يتمتم لنفسه قبل أن يسلّم نفسه إلى سلطان النوم مجدّدًا: «يا لتلك البقرة اللعينة».

ظهر مودي في حلمه حاملاً ترومبيته اللامع. مشى نحوه وقال: «هل علمت أنّني متُّ يا بيغ ريد». سمع نفسه في الحلم يقول لمودي: «نعم، لقد سمعت الخبر. جميع النّاس يتكلّمون عنك. لقد جُنّ جنون عالم الجاز. لن تصدّق كم نفتقدك». سأله مودي: «هل هذا صحيح؟».

لم يكن بإمكان بيغ ريد سوى ملاحظة أنّ مودي الميت هو مودي الحي نفسه. مدّ بيغ ريد يده ليمسك بيد مودي. وكان على وشك أن يقول: «أيّها الوغد، لا أزال غير قادر على تصديق أنّك فعلتها حقًّا»، ولكن مودي بدأ يمشي إلى الخلف عبر أبواب النادي، وأصبحا في حقل أصفر كبير زاهٍ. لحق بيغ ريد بمودي. يتمتع مودي بلياقة بدنيّة ولم يكن بيغ ريد كذلك. هو يتحرّك بسرعة ويتعرّق. فكّر في أنّه ينبغي أن يفقد بعض الوزن. صرخ أخيرًا على مودي: «لم أصدّق حتى الآن أنّك قد فعلتها». فردّ عليه مودي صارخًا بدوره: «ما هي؟» فردّ بيغ ريد: «لقد خدعتني أيّها الوغد اللعين!» فأضاء وجه مودي في الحلم، ثم قال: «فعلتها، وكنت تستحقّ ذلك. يجب أن تصبح قائد الفرقة».

وبدأ مودي بالركض. كان في الحلم بالعمر نفسه عندما قابله للمرّة الأولى. صرخ بيغ ريد على ذلك الشخص الراكض في الحقل الأصفر: «أنا؟ هل فعلت شيئًا مّا؟» استدار مودي وقال: «لا تحاول أن تكون رقيقًا ماكول، لقد عرفت دائمًا!» استيقظ ماكول وجفّف سقف حلقه بلسانه، متسائلاً عن سبب موت مودي، لا يتذكّر بدقّة. لقد نسي بالفعل ضمن كلّ هذه الضجّة. هل مات بسبب مشاكل في الكلى؟ قال بيغ ريد لنفسه: «اللعنة عليّ، لا أعرف حقًّا سبب الوفاة».

استلقى بيغ ريد مستيقظًا في السرير، محاولاً تذكّر المرض الذي قتل مودي؛ الإيدز، لا، السرطان، لا أعتقد ذلك، مرض السكّري، لا، انتفاخ الرئة، لا، الحمّى الغدّية، التهاب الكبد الفيروسي، متلازمة القولون العصبي، (هل هذا مرض قاتل حقًّا؟) اليرقان، الفشل الكلوي، تَلَف الكبد، التهاب السحايا، الموادّ المخدّرة، هشاشة العظام، مرض باركنسون، (ألم يكن مودي يرتعش بطريقة غريبة في آخر مرّة رآه؟) الشلل الرباعي، الحمى الروماتيزمية، السالمونيلاّ، مرض السلّ، القرحة، أم هناك مرض من بين هذه الأمراض فجّر الأمراض التالية: فيروس قاتل، اللوكيميا، الحمى الصفراء. (ما هو آخر مكان ذهبوا إليه؟) زا؟ زا؟ اللعنة ما هو البلد الذي يبدأ اسمه بـ «زا»؟ أرهق بيغ ريد نفسه. ربّما توفّي نائمًا، ربّما كان البلد زا...

أقضّت الكلمة مضجعه، لم يتمكّن من تذكّرها. كان على وشك الاتّصال بميلي وسؤالها. ربّما يتذكّرها لاحقًا. بدا مودي في آخر مرّة رآه فيها منهكًا قليلاً، ولكنّه لم يكن في حالة سيئة. كان متعبًا فقط. لم

يكن يبدو كأنّه يحتضر. ربّما لو أدرك بيغ ريد أنّه كذلك لقال أشياء أخرى مختلفة عمّا قاله. ربما تعامل مع موضوع موته أيضًا بطريقة مختلفة. من الفظاعة بمكان أن تُحرَم من قول الكلمة الأخيرة. كان مودي هناك ذاهبًا إلى قبره مع معظم النّاس، وليس مع أكثرهم حكمة. لو كان يعلم فقط، لو كان قادرًا على أن يقول له: «مودي، لا تقلق بشأني، لأنّ كلّ هذا لا يهمّني». ظلّ مودي على حاله في ذهن بيغ ريد، باستثناء أنّه قد مات. وهذا هو الشيء المرعب اللعين. لقد مات مودي. ولن يسمع عزفه على الترومبيت مرّة أخرى. ولن يسمع المزيد من المعزوفات الرائعة.

يكفي صراخًا، يكفي ضجيجًا. يبدو أنّه سيتابع العزف على الترومبيت، حتّى الموت. أهو مرض الاستسقاء؟ استسلم بيغ ريد أخيرًا. وأخذ يلكم الوسادة لائمًا نفسه مرارًا: «لا يمكنني الشعور بالراحة مطلقًا». ضرب الوسادة اللعينة، وعضّها بقوّة حتى تذوّق الملح على شفتيه. إنّه يبكي لأوّل مرّة اليوم منذ عام كامل. لم يصدّق في البداية أنّ ما يجري على خدّيه دموع حقيقيّة. ثم خرجت الحشرجة من فمه، فأدرك أنّه يبكي بالفعل. يعرف أنّه بمجرّد أن يبدأ البكاء سيستمر على هذه الحال لفترة طويلة. بعد قليل انخرط ماكول في البكاء، مجرّد بكاء لعين. قال في نفسه: «هيّا أيّها الوغد الغبيّ، أيّها السمين الضخم المفطوم، هيّا ابكِ مقلتيْ عينيك حتى تنتزعهما من مآقيهما». لم يُكلّف نفسه مسك منديل لتجفيف دموعه. ترك مخاطه يسيل على وجهه، حتى اضطر إلى مسحه بظهر يده الكبيرة.

البيت والوطن

وضعت يدي على الظرف، إنّها الرسالة الثالثة. لا بدّ من أنّ هذا هو الشعور الذي ينتاب كلّ من يتعرّض للابتزاز. كلّما نظرت إلى المغلّف الأبيض لرسالة ستونز أغرق أكثر، كما لو أنّ أرضيّة بيتي قد تحوّلت للحظة إلى مستنقع. صار خطّ يدها مألوفاً ألفة رهيبة. لم أشأ التعرّف على خطّها على الفور، ولكنّني دائمًا ما أفعل ذلك. اللعنة على تلك الرسائل الصبيانيّة للغاية. اللعنة على أحرف الألف والياء المتغطرسة. لا بدّ من أنّها تستخدم قلم حبر.

السّيدة ميليسنت مودي، 10 شارع ساندي رود، تور، كيبر.

حملتُ الرسالة في يدي بحذر شديد، كأنّها ذات رائحة كريهة. وفتحتُها ببطء كما لو كانت على وشك الانفجار. تقول إنّه ينبغي لي إرسال الردّ إلى جلاسكو هذه المرّة. قالت إنّها ذاهبة مع كولمان إلى إسكتلندا لكتابة الكتاب، وإنّهما يعملان معًا. سأتعاون؟ هل سأتعاون معهما؟ لاحظتُ يدي تمسك بالرسالة، إنّها بمثابة يد امرأة عجوز. سأحتفظ بهذه الرسالة، لا يمكنني الاستمرار في حرقها. ينبغي اليوم

حفظ هذه الأدلّة. أريد من النّاس أن يعرفوا في يوم من الأيّام أن هذا هو ما حصل معي. هذا أشبه بالتعرّض للتعذيب. لا أعرف في من عليَّ أن أثق. لا أعرف ممّن سأطلب النصيحة. لا بدّ من أنّ هناك شخصًا مّا في حياتنا يعرف كيفيّة التعامل مع كلّ هذا. لا يمكنني التفكير في أيّ شخص. نسيت جميع من أعرفهم فجأة.

أكاد لا أصدّق أنّ كولمان سيورّط نفسه في المشاركة في شيء من هذا القبيل. فهو ليس شخصًا شرّيرًا. ربّما يكون من الصعب التعامل معه، لطالما كان مؤهّلا ليكون صعب المراس، ولكنّه لم يكن خبيثًا. لا يمكن أن أصدّق أنّه مُوَرّط في أيّ شيء سيّئ. هل من المعقول أنّني لم أتمكّن مطلقًا من منحه أيّ إحساس أخلاقي؟ كيف يجرؤ على الاتّجار بقصّة حياتنا وترويجها للنّاس؟ ألا يمكنه أن يدرك أنّ الحياة غير قابلة للبيع؟ يمكنني أن أستشعر حدّة غضبه. كلّما انفجر غاضبًا في وجهي أحسست بقدرته على أن يكون في منتهى الغضب والعنف. يذكّرني ذلك بالشعور الذي ينتابني أيّام كان صبيا، عندما كان ينصهر في تلك الحالات المزاجيّة، وينعزل ويهيمن عليه الاستياء طويلاً ولعدّة أيّام. لطالما أثّرت تلك الحالات المزاجيّة في أجواء المنزل بأكمله. أتذكّر أنّني أردت يومًا صفعه. هممت فعلا بصفعه على وجهه العابس بيدي، وصرخت: «توقّف عن هذه التصرّفات!».

في الحقيقة كنت أضربه في بعض الأحيان. وضعت يدي في إحدى المرّات حول عنقه وبدأت أهزّه بعنف. لم أكن أنا من فعل هذا، بل المرأة التي تقفز من داخلي فجأة في تلك اللحظات. لم يسبق لي أن ضربت

أحدًا في حياتي. لا أعرف من أين كانت تأتيني هذه الرغبة. أمتلئ للحظة بالكراهيّة، ثم يتلوها على الفور الكثير من الحبّ. وعندما يتدفّق الحبّ يأتي ذائبًا وحارًّا، لينبع من ذلك الشعور الغامر بالذنب. لم أكن أعلم أنّني قادرة على الشعور بهذا النوع من العنف على الإطلاق قبل أن أحظى بكولمان. لم أدرك أنّني أمتلك هذا الكمّ من العنف في داخلي. لا بدّ من أنّ ذلك هو بمثابة مؤامرة حقيقيّة. عليَّ متابعة قراءة جملها الخسيسة مرارًا لأُقنع نفسي بأنّها حقيقيّة. عندما كان جوس على قيد الحياة، لم تكن الحياة على هذه الشاكلة بتاتًا. كانت الحياة حقيقيّة. كنّا نحظى بالحياة ونعيشها. ولكن كلّ شيء توقّف منذ وفاته. توقّف الواقع وتوقّفت الحقيقة.

«هل ستتعاونين معنا؟» يا لتلك الفكرة الغريبة التي خطرت في ذهني؛ فكرة أنّ بوسعي المشاركة في تأليف كتاب عن حياتي، وأنّني قادرة على أن أنسب إلى نفسي هذه الحياة التي كانوا يعتقدون أنّها حياتي. ربما يتوجب عليَّ الاتصال بمحاميّ الخاصّ والحصول على بعض النصائح. قد أتمكّن من منع إصدار هذا الكتاب، بل ربّما أستطيع الحصول على أمر قضائي. لا يمكنني أن أكتفي بالجلوس هنا حتّى يأتوا إليّ. لن تكون قصّة حياته قصّة حياتي أنا بدوري، لأنّ أيّ قصّة مدفوعة الأجر لا يمكن أن تكون صحيحة حتّى بالنسبة إليه. لطالما كان كولمان ساذجًا. يمكنني رؤية نهاية كلّ هذا. لم يكن واضحًا في حياته مطلقًا. ستعلّمه صوفي ستونز ما يتوجّب عليه أن يقوله. لم أتمكّن يومًا من كتابة وجهة نظري حول حياتنا. فأنا لا أعرف ما الذي سأقوله.

لطالما شعرت بالرعب من ذلك الكمّ الكبير من العلانية التي أدخلها جوس في حياتنا. كرهت تلك المقابلات المستمرّة، وتلك المقالات عن حياته وعن موسيقاه في الصحف والمجلات. لطالما شعرتُ بالسخط من الطريقة التي يصفون بها منزلنا. يمثّل هذا الوصف أسطورتهم وتخيّلاتهم عن البيت. كلّ شيء وكلّ كلمة قرأتها عن جوس هي بمثابة أسطورة من محض الخيال، لا شيء حقيقيّ عنه. عندما ينسبون إليه بعض الأقوال في مقالاتهم يكون واضحًا أنّه ليس كلامه. ولطالما سألته: «هل قلت ذلك بالفعل؟» فيقول: «نعم». فأُصرّ عليه: «وهل كانت هذه كلماتك بالضبط؟» وبالطبع لم يكن كلامه. ربّما لا يعرف كولمان أنّ صوفي ستونز قد أرسلت إليّ تلك الرسائل. ما الذي يعرفونه عن حياته؟ ما الذي أعرفه عن حياته حقًّا؟ ثمّ ما الذي أعرفه عن حياتي أصلاً؟

أضحت حياتي عبارة عن رواية في كتاب مفتوح، أجدني محاصرة داخل صفحاته. كلّ شيء وارد. أصبحت حياتي لقمة سائغة للجميع. لا شك في أنّهم سيقولون إنّني مثليّة. سيجدون كلمات يقولونها على لساني، كلمات لا تشبهني. كتلك الكلمات التي لا تشبه جوس، وسيطلقون عليه أسماء كثيرة. أسماء رهيبة تبعث على الدوار. يمكنني رؤية الكتاب من بعيد دون أن أنخرط فيه لمعرفة الكلمات التي استُخدِمت ولأغرق فيها. أغرق فيها إلى حدّ السقوط إلى الأسفل، تحت الطبقة الخضراء، حيث يكمن الطين الأسود السميك.

لن أقرأ الكتاب، ولن أقترب منه لأنه لن يصدر مطلقًا. سأمنع

صدوره. «لا تعليق، لا تعليق». ظللت أكرّر هذه العبارة عندما مات، كلّما رموا الأسئلة في وجهي. وكنت أقول دائمًا ليس لديّ شيء أقوله. لم أعرف لماذا لم يتوقّفوا عن كلّ ذلك، واستمرّوا يطمرونني بالأسئلة، مع المزيد من الوجوه الجديدة في كلّ مرّة أخرج فيها. كانوا جميعًا في نهاية الأمر أشبه بوجه واحد، نفس الوجه الأبيض الحادّ.

جئت إلى هنا لأنّني اقتنعت تمامًا بأنّهم يمنعون جوس من الخلود بسلام في قبره. واضطررت إلى الابتعاد عنهم ليتمكّن جوس من الشعور بالقليل من الراحة. لم يحظَ بليلة نوم واحدة هادئة في الأيّام التي سبقت وفاته؛ كان ينام ويستيقظ، عابسًا. ينام لحظات، ثمّ يستيقظ مذعورًا كالطفل. وإذا تمكّنت من الاختفاء عن أنظارهم لفترة طويلة بما فيه الكفاية، ربّما يتمكّن جوس من النوم بسلام. فعندما نموت لا نرحل مباشرة على الفور. أنا متأكّدة من هذا، وأشعر به حقًّا. شعرت بعد أن أخذوا جثمانه أنّ جوس لا يزال ينشد السلام، وأنّه لم يحظ بعدُ بموت مناسب، ذلك الموت الذي يتمنّاه الجميع، ذلك الوداع الجيّد. لم تساعده جنازته على أن يحظى بهذا، لم يكن راضيًا حتى عن جنازته، بل لا يزال يدور في عالم البرزخ. يقولون إنّه عندما يكون هناك مشكلة، فالأموات يبقون معلّقين يتسكّعون في ذلك العالم. وأنا أؤمن بهذا تمامًا. لا يزال جوس هنا في داخلي. تُراودني هذه الأيّام أفكار كثيرة أعلم تمامًا أنّها أفكاره.

أجد نفسي واقفة أمام حوض المطبخ والصنبور مفتوح والماء يتدفّق بأقصى طاقته. والحوض البنيّ الداكن مليء بالماء البارد. ليس

لديّ أيّ فكرة منذ متى كنت على هذه الحال. أعلم أنّ يديّ باردتان، بل متجمّدتان من شدّة البرد. أعرف أنّ فمي رطب، وأنّني أنظر في الماء لفترة طويلة لأرى صورتي فيه. لا تظهر صورتي. لا تزال الرسائل تدقّ رأسي. الرسائل مثل جرس يرن في بلدة قديمة ليخبر النّاس بأنّ شخصًا مّا سيُطلى بالقار وبالريش أو سيُجلد أو سيُشنق علنًا.

لو كان جوس حيًّا لكُنّا على الأقلّ قد اجتزنا هذا المأزق معًا. تركني جوس. جفّفت يدي وأفرغت الحوض من الماء. ينبغي أن أتذكّر بعض الأشياء. نظرت من نافذة المطبخ. كانت تمطر. ارتسمت حُبيْبات صغيرة من المطر على إطار النافذة دون أن أنتبه لها. كان مطرًا غزيرًا وضبابيًّا رائعًا. لا تزال شجرة الغبيراء المجاورة في مكانها، لم تكن مثمرة طبعا، فهذا ليس موسم الإزهار.

يمكنني رؤية إلزا في مطبخها تقشّر البطاطا. فاجأني ذلك الجوّ الحميم. لاحظتْ أنني أحدقُ فيها فلوّحت لي بيدها. بادلتها التحيّة بعد أن شعرت فجأة بالسعادة بالتواصل البشري. لو جلستُ وأخذت أتذكّر الأشياء العاديّة سأتمكّن من الصمود، أن أستيقظ كلّ يوم لأغتسل وآكل وأنام، أن أعيش حياة خالية من شريك حياتي، أن أعيش حياة مرهقة مع نفسي فقط، وبرفقة الأفكار الرهيبة التي تدور في رأسي من الصباح حتّى المساء. ربّما هذا ما يعنيه النّاس عندما يقولون إنهم يشعرون بالوحدة. ربّما يقصدون أنهّم مرهقون حتّى من البقاء مع أنفسهم. لو كان بإمكاني فقط أن أكون وحيدة، كم تبدو هذه العبارة جميلة وعادية!

يا لتلك الحلقة المفرغة الحزينة الرائعة التي وقعت فيها. وحيدة! لكم تُعدّ النساء المسنّات رشيقات وخفيفات، أولئك النسوة المسنّات اللواتي يسرعن إلى بيوتهن الصغيرة عند الغروب ويغلقن ستائرهن بعنف. أنا مجرّد امرأة عجوز وحيدة. يمكنني أن أعترف بأنني أصبحت مسنّة الآن. وسأعترف بأنّ جسدي لم يعد كما كان، وبأنّني لم أعد قادرة على المشي بسرعة، وأنّ عظامي لم تعد قويّة وأنّ أنفاسي أصبحت أقصر، وأنّ طاقتي اندثرت وتلاشت. أعترف بأنّني تقدّمت في السنّ، وبأنّني لم أعد تلك الفتاة أو المرأة النشيطة. مسنّة. حاولت تجنّب تكرار هذه الكلمة ونسيانها. لطالما كنت أضحك وأقول بغرور للناس: «يتوقّف تقدّمك في السنّ على كيفيّة شعورك بنفسك». ولكنّني أشعر اليوم بأنّني مسنّة. هذا يُريحني حقًّا. ينبغي أن يُترَك الأشخاص المسنّون بمفردهم. لا ينبغي أن يزعجهم أحد بالرسائل المقرفة. يبدو الأمر مخزيًا للغاية عندما تفكّر فيه. تخيّل إرسال رسالة مقرفة إلى امرأة عجوز! بمجرّد أن نَصِف الموضوع بهذه الطريقة يمكن معرفة مدى سخفه. ما هذا الخطأ؟ تخيّل مجموعة من الكلاب بصدد مطاردة امرأة عجوز وملاحقتها، لتُعطيها شيئًا مّا لتشمّه، ولتطاردها حتى باب منزلها، وتنبح عليها محاولة الدخول إلى بيتها ونهشها. ينبغي ترك النساء المسنّات بسلام ليجلسن عند الغروب، ويُفكّرن ويجتررن تلك التفاصيل المشرقة الرائعة لذكرياتهنّ، يغمزن ويلمزن ويغمغمن لأنفسهن.

وضعت لنفسي قائمة كي لا أفاجأ بأيّ شيء. قائمة بالخونة المحتملين والأشخاص المستعدّين لقول أيّ شيء مقابل المال، وأن ينشروا أسرار الناس في وسائل الإعلام. أنا متأكّدة من أنّ هناك

بعض معارفي الذين لن يتفوّهوا بأي كلمة. لا يمكن أن تقول ماجي أيّ كلمة ولا راجنيل أو بيغ ريد أو هاري أو... ولكن كان هناك أشخاص قد عرفهم جوس لم أتعرّف عليهم بتاتًا. هؤلاء الأشخاص الحقيرون قادرون على إجبار أيّ شخص على الاعتراف. ربّما تتمكن صوفي ستونز من اكتشاف أيّ شخص كان مع جوس في المدرسة؟ كلّ شيء وارد. لا يمكنني رسم خطّ يقول: «هذا يكفي». سيصل الموضوع الذي قدّمته متخطياً كل الحدود. وستفتح أبواب جهنم. فالمال يتكلم فعلاً.

الرسائل

هناك من قال إنّ وجهه طفولي، وقال آخرون إنّ صوته رفيع. أنا جاهز لضرب أيّ شخص يقول مثل هذه الأشياء. لم أشكّ مطلقًا في أيّ شيء.

ثلاثي بيغ ريد ماكول وجوس مودي

تفاجأت بالفعل، ولكنّني لا أفهم لماذا كلّ هذه الضجّة. فعندما ينتهي كلّ شيء، ستبقى لنا موسيقاه. وهذا ما يهمّ حقًّا.

سولومون ديفيس، أحد معجبي جوس مودي

أكتب السيرة الذاتيّة لعازفة الترومبيت جوس مودي. يرجى مراسلتي بهذا الشأن. سيبحث كتابي في جميع التفاصيل الرائعة لكلّ ناحية من نواحي حياتها. أتمنّى من أيّ شخص عرفها أو عزف معها في أيّ فرقة أو تواصل معها أن يراسلني على وجه السرعة.

تفضّلوا بقبول فائق الاحترام، صوفي ستونز

نتساءل حول فكرة أنّ شخصًا عاش حياته كرجل، ثمّ اكتشف

الجميع عند موته أنّه كان امرأة، هل نعتبر أنّه عاش امرأة طيلة حياته؟ ما هو «الحقيقي» في كلّ هذا؟ وما هي في الواقع؟

مجموعة المخنّثين المجهولين (TAG)

نخطّط لإصدار أربعة أقراص مدمجة للاحتفاء بتأثير مودي الهائل في موسيقى الجاز. سيطلق عليها اسم: روائع مودي: الرجل والمرأة. اعترافًا بالظروف الغريبة المحيطة بوفاة عازف الترومبيت. وستتوفّر هذه الأقراص في نهاية هذا العام.

جون أندرسون، تسجيلات كولومبيا

ما لا يمكنني فهمه فعلاً، هو كيف استطاع الذهاب معنا في الجولات الموسيقيّة. لم ألاحظ أيّ شيء استثنائي، تطلّب ذلك منه الكثير من الجهد. أقصد أنّنا قد تشاركنا الغرف والمعيشة. ولا أتذكّر مطلقًا كيف كان يذهب إلى حمّام الرجال. أحاول جهدي لتذكّر المرّات التي ذهب فيها إلى حمّام الرجال، ولكنّني غير قادر حقًّا على ذلك.

المشكلة أنّه كان يبدو مثلنا جميعًا. أفترض أنّني إذا ما كان عليَّ قول أيّ شيء فيمكنني الحديث قليلاً عن ملامحه. لا أعرف ما هي المشكلة في ملامحه بالضبط، كان هناك شيء مّا في وجهه الناعم وشفتيه. وبمجرّد أن تعرف تظهر لك هذه الأشياء بوضوح. أمّا الضحكة فكانت مفرطة ومبالغًا فيها، وتظهر فيها نبرة نسائيّة قليلاً، ولكنّنا كنّا نحبّ هذه الضحكة. كانت ضحكة رنّانة للغاية.

شون أفرتي، الجمعيّة البريطانيّة لعازفي الترومبيت

هل يمكننا ترك الموتى يرقدون بسلام؟ هل نسي هذا البلد كيف يمكن القيام بذلك؟

آن غراي، على العنوان المذكور.

مقابلة حصرية

إذا توقّفتُ عن الكلام فلن يكون لديك كتاب مطلقًا. وإذا أغلقتُ فمي فسيذهب كلّ جهدك هباء. لا يمكنك مجرّد كتابة كلام فارغ عن النّاس إذا لم يكن لديك أيّ حقائق. دعيني أخبرك بالحقيقة، لقد ضقت ذرعًا بكلّ هذا. أشعر بأنّ هناك حصى لعينة في حلقي أو أيّ شيء لعين آخر. لطالما حضّر والدي مشروبات ساخنة رائعة عندما كان يعاني من هذه الحالة، مشروبات مع الثوم والكثير من الأشياء اللعينة الأخرى. ولكنّك تدركين أنّني عاجز عن التوقّف الآن، أليس كذلك؟ لا يمكنني أن أقفل فمي وحسب. سألتِني الكثير من الأشياء وأجبتك عن الكثير من الأمور، بهذه البساطة. لم يعد الموضوع متعلّقًا بالمال. لا أعرف بماذا يتعلّق الموضوع أصلاً. لم أعد أرغب في البقاء معك، ينبغي أن أبقى بعيدًا عنك. ما الذي أفعله معك هنا أصلاً؟ لا يمكنني التوقّف عن إخبارك بالمزيد من الأشياء. اللعنة عليّ، ربّما سأستفيد من كلّ هذا. وربّما يعود هذا بالنفع على شخص آخر أيضًا. تدركين مثلما أدرك أنّني لا أصدّق هذا. هل تصدّقين هذا فعلاً؟ حسنًا، تقولين إنّك تصدّقين.

لطالما استمتعت باستفزاز والدي. كان بإمكاني رؤية الفرصة قادمة واستغلالها على أتمّ وجه، ولطالما كانت النتيجة النهائيّة نفسها. كان يقترب من الجنون. لقد كنت بارعًا في استفزازه. وقد كنت قادرًا على الدخول إلى رأسه. أفضل الأوقات التي عشتها كانت في سنّ المراهقة، تلك فترة في غاية الأهميّة. ومن بعدها بدأت أحوالي تسوء شيئًا فشيئًا، إلى أن تعكّرت تمامًا. لم أكن أرغب في القيام بأيّ واجب مدرسي. لطالما فضّلت التسكّع مع زملائي وتدخين سيجارة ماريجوانا. لم أفوّت أيّ فرصة للتسكّع. عانيت ضغطا شديدًا منعني من القيام بأيّ شيء. فلم أحقّق شيئا، بل كنت عاجزًا أيضا عن أداء الأعمال الشاقّة. أقصد أنّ كلّ السود ممّن ظهروا على شاشات التلفزيون وكانوا في مثل سنّي قد اعتقلوا لسبب مّا أو كانوا متّهمين بالسطو. فنحن نبدو جميعًا متشابهين بالنسبة إليهم. نمتلك الوجه نفسه، وجه شخص مطلوب لارتكاب جريمة مّا. أدرك ذلك جيّدًا لأنّني عندما أخرج وأتجوّل في الشوارع يحدّق النّاس اللعينون فيّ، كما لو أنّني ارتكبتُ جرما مّا. قبض رجال الشرطة عليَّ مرارًا وتكرارًا، واتهموني بألف تهمة لعينة، فقط لأنّني أسود وموجود في المكان الخطأ وفي التوقيت الخطأ، ولكنّ والدي العجوز لم يقف إلى جانبي مطلقًا في كلّ هذه المشاكل. كان يعتقد أنّني أورّط نفسي، ويظنّ أنّني مبذّر. حاول كثيرًا أن يجعلني أستقرّ وأركّز. كان يريدني أن أركّز على أيّ شيء. فكان يغضب بسبب عدم قدرتي على ضبط نفسي. ويقول لي دائمًا: «لماذا لا تضبط نفسك؟» أتذكّر أنّني قلت له إنّه مجرّد منافق، وإنّ أصدقاءه المخدَّرين في عالم الجاز سيصدمون به بالفعل عندما يعرفون أنّه يعامل ابنه بهذه الطريقة. كانوا لطيفين معي

فعلاً. وكان معظم أولادهم يشعرون بالحرج من تصرّفاتهم، ومن حالة التخدير التي كانوا عليها معظم الوقت، ومن هيئتهم عندما يظهرون أمام المدرسة مرتدين معاطف غريبة.

كبر بعض هؤلاء الأطفال ليصبحوا مديرين عامين. كانوا أوّل خريجين لعينين من ذوي رواتب عالية. أمّا أنا ووالدي فقد كنّا تقليديّين. أرادني أن أعود إلى رشدي وأركّز. ذات مرّة، فقد أعصابه ونعتني بالوغد العديم الموهبة. فأصبت بإحباط شديد. ثمّ أمسكت ألبومه الجديد الذي يضمّ الكثير من الألحان القديمة المعدّلة وقلت: «إصدار جديد، أيّها الرجل العجوز؟ ماذا تريد منّي أن أكون؟ وينستون مارساليس اللعين؟»

ألقى عليّ حينها محاضرة مطوّلة مفادها أنّ الجاز يُرتجل، فيؤدّي دائمًا إلى إصدارات ونسخ مختلفة من العمل نفسه. قلت: «اللعنة، متى كانت آخر مرّة ابتدعت فيها فكرة أصيلة حقًّا؟» ظهر عليه حينها الحزن، فحدّثني عن الأشخاص الموهوبين الذين يحظون بلحظة الإبداع في الوقت المناسب أو عن شيء من هذا القبيل. يحظى بعض الأشخاص الموهوبين بلحظات قصيرة جدًّا من الإبداع الخالص، وتطول تلك اللحظات مع أشخاص آخرين. لا يصدّق أصحاب اللحظات القصيرة من الإبداع أنّ موهبتهم قد نفدت، لذلك تراهم يبذلون كلّ جهدهم لاستعادة لحظات الإبداع تلك مجدّدًا. ينتحلون أنفسهم، يقلّدونها أو يقومون بمحاكاة ساخرة لها. يمثّلون شخصيّاتهم الفنيّة نفسها مجدّدًا. قال إنّ الجاز يمكن أن يفلت من الأيدي أكثر من

معظم الأشياء الأخرى. ثمّ خيّم عليه الحزن من جديد، كما لو أنّه مشعوذ أو شيء من هذا القبيل. أمّا أنا فقد انكمشت معدتي تمامًا من الضيق.

لم يتمكّن والدي من التعامل مع حقيقة أنّني أصبحت رجلاً. لم يتمكّن من تحمّل هذه الحقيقة. ربّما كان يغار من أنّني أمتلك عضوًا ذكريًّا. تبادر هذا الأمر إلى ذهني الآن فقط. لطالما كان يقف بجانبي في بعض الأيّام، محدّقًا في وجهي بتلك النظرة الحزينة في وجهه. حين كنت صبيًّا صغيرًا كان والدًا رائعًا ومضحكًا ومريحًا للغاية، ولكنّه انقلب في معاملتي عندما بلغت سنّ المراهقة. بدأ بممارسة كلّ تلك الأمور المتعلّقة بملاحقتي في كلّ شيء، ومعرفة إذا ما كنت قد أنهيت الواجب المدرسي، والوقت الذي أعود فيه إلى البيت. كان الأمر أشبه بالحياة تحت إمرة ديكتاتور لعين. تزامن ذلك مع بدء مسيرته الفنيّة بالتراجع. ربّما شعر بأنّ حياته انتهت وحان الوقت لأقوم أنا بشيء مّا. لا أعرف بالضبط، وأيًّا كان الوضع فقد كنت أعيش في جحيم حقيقي.

قال لي مرّة: «يمكنني أن أجعل النّاس يستمعون إليَّ من لندن إلى اليابان، ولا يمكنني أن أجبر ولدي على أن يسمع كلمة واحدة ممّا أقول». أجبته: «لن تجبره على سماعك عندما تقول كلامًا فارغًا من هذا القبيل». أعني أنّ هذه الأشياء تتجاوز مداركك. لا تأخذ نفسك على محمل الجدّ، يا جوس مودي. لم يكن يعجبه الوضع عندما أقول اسمه بهذه الطريقة. كان جوس مودي يدرك أنّني أسخر منه. لطالما كان يُدرك ذلك. ثم قلت له بصوتي اللافت للأنظار على طريقة الجاز:

«دعنا ننسى هذا الأمر برمّته»، ثمّ صفقت الباب بعنف لأمنح تأثيرًا خاصًّا لكلامي وخرجت. لم أكن صبيًّا لطيفًا بالفعل، ولكن ما من شخص إلّا ومرّ بهذه المرحلة في حياته، أليس كذلك؟ يحتاج الجميع إلى مساحة خاصّة في هذه السنّ. كنت هائجًا طيلة الوقت، دون أن أعرف دواعي ذلك. كنت غاضبًا فقط من بداية الشتاء إلى نهاية الربيع.

كنت شخصاً بغيضًا عمومًا، يمكنني اليوم أن أدرك ذلك. وكانت الأبواب في بيتنا تنفكّ عن مفصلاتها اللعينة. لذلك كانوا يتّصلون بالعامل البارع الضخم بوب ليصلح الأبواب. نظر بوب في وجهي مرّة وقال: «ما الذي تفعله، هل تلاعب الأبواب؟» حدّقت فيه ببرود، وقلت: «نعم، هذا صحيح. أعتقد أنّني طرزان». ضحك بوب ضحكة أشبه بضحكات البالغين العارفين ورمق أمّي بنظرة، فأشاحت بوجهها ممتعضة، حتّى أنّها كانت أحيانا على وشك أن ترفع يديها، وكأنّها تريد أن تقول: «لا يمكنني فعل شيء حياله». لم أعد اليوم فخورًا بكلّ تلك الأفعال.

اعتدت على استخدام نصف زجاجة من الشامبو في كلّ مرّة أغسل فيها شعري. وكنت آكل علبة كاملة من رقائق الذرة يوميًّا. وأتناول شريحة من اللحم مع البطاطا المقليّة كلّ مساء. كنت أقضّي فترات طويلة في الحمّام، وغالبًا ما كنت أترك حلقات من الأوساخ على حوضه الداخلي لتنظّفها أمّي. وكنت أترك جميع ملابسي القذرة في كافّة أنحاء البيت. غرفتي عبارة عن صندوق قمامة. كما كنت أدخّن عند نافذة الحمّام، حتّى لا يكتشفوا أنّني أدخّن.

لم أكن أتحدث إليهما حول أيّ موضوع. أُحتجِزتُ مرّة في مركز الشرطة حتى الساعة الرابعة صباحًا. لم أفعل أيّ شيء، ولم أتّصل بهما. أعتقد أنّهما لا يعرفان حتّى نصف ما مررت به. أثرت الكثير من المشاكل والضجيج حول الطعام، وخصوصًا رقائق الذرة. أتيتُ عليها كلّها وفقًا لوالدتي، ووضعت شريحة سمك ضخمة على كتفي. أمّا وفقا لوالدي، فإنّها لم تكن مجرّد شريحة، بل وجبة السمك بأكملها. كنت عابسًا، ومتجهّم الوجه، وأنانيًّا، ووقحًا. هذا صحيح، كنت مجرّد حيوان.

أتذكّر مرّة أخرى عندما أردت الذهاب إلى تلك الحفلة ومنعني والدي. قال إنّ لديّ الكثير من الواجبات المدرسيّة التي عليّ إنجازها. أجبته: «منذ متى صرت تزعج نفسك بواجباتي المدرسيّة؟ ففي جميع الحالات لا أنجز شيئًا، وكلّ هذا بسببك لأنّك كنت تدور حول العالم تعزف على بوقك، أليس كذلك؟».أمسك بي وقد غالبه الغضب، حتّى كاد الدخان يخرج من أنفه، وصرخ: «أظهر بعض الاحترام لوالدك عندما تتكلّم». أزحتُ يديه عنّي، وقلت: «هيّا كن واقعيًّا». أجد ذلك مضحكًا بالفعل عندما أفكّر فيه. تصوّروا أنا أطلب منه أن يكون واقعيًّا.

عندما غادرت المنزل صارت علاقتي أفضل بوالدي، بل يمكنني القول إنّ علاقتي به كانت جيّدة قبل وفاته. لقد أحبّ أحدنا الآخر. كان يشعر بخيبة أمل دائمًا ويغمره الشعور بالذنب من أنّني لم أنجح في حياتي. ولكن من هو القادر فعلا على النجاح في الحياة مع والد كهذا؟

أقصد أنّني مهما فعلت فلن أكون أفضل منه. لذلك لم أفكّر في ذلك مطلقًا. نحتاج إلى شخص واحد ناجح في كلّ أسرة لا أكثر، هذا ما افترضته بالفعل. وكان من الصعب امتلاك والد شهير كوالدي. ولكنّه لم يفهم هذا بتاتًا؛ الكثير من النّاس في العالم فشلوا بسبب آبائهم المشاهير. وكان عليَّ أن أتمتّع بموهبة أفضل من موهبته لأتمكّن من النجاح في أيّ مجال.

هو موهوب بالفعل. عليَّ أن أعترف له بذلك. لا يغيّر كلّ هذا من الطريقة البديعة التي كان يعزف بها على الترومبيت. أقصد أنّني لا بدّ من أن أعترف له بهذا. كان وغدًا في قمّة الموهبة. وحتى عندما كنت أجهل الكثير عن الجاز كنت أحبّ الطريقة التي يعزف بها على الترومبيت. وما إن أسمعه يشرع في العزف حتّى أرى نفسي صبيًّا صغيرًا مرّة أخرى. الأمر شبيه باستعادة شيء مّا قد فقدته من قبل. هل استمعت يومًا إلى موسيقى الجاز حقًّا؟

عندما كنت طفلاً صغيرًا كنت أفتخر بأنّني ابن جوس مودي. أحببت قبّعة فيدورا الصفراء التي كان يعتمرها، وطريقته في وضعها على رأسه إذ يميلها قليلاً إلى جانب واحد. أحببت الذهاب إلى الحفلات الصغيرة معه وسماع النّاس يقولون: «هذا هو ابنه». أحببت نظرات معجبي والدي إليّ. كان رائعًا حقًّا أن أكون ولده. وقد كان الجميع يعرف ذلك، وعليّ أن أتحدّث عن هذا في المدرسة، عن والدي الموسيقي عازف الجاز. فقد كان ضمن مجموعة «الآباء الاستثنائيّين». كتبت يومًا قصّة عن ذلك احتفظت بها أمّي.

ولكنه أرادني أن أكون موهوبًا. وأحبّ أن أعزف على آلة مّا، ليس على الترومبيت بل على آلة أخرى، على البيانو مثلا. كان يقول دائما إنّ يديّ مناسبتان لعزف البيانو، بل ومناسبتان للعزف السريع على البيانو لأنّ أصابعي مرنة. ثم قال إنّه لا يمانع إذا كنت موهوبًا في الموسيقى أو الرياضة أو العلوم، لا يهمّ. طالما لديّ شغف وهوس بشيء مّا، فسيكون هذا جيّدًا بالنسبة إليّ. أرادني أن أكون أكثر ذكاء منه، ولكنّني أعتقد الآن أنّ كلّ جيل اليوم أسوأ من الذي سبقه. فالنّاس أصبحوا أكثر غباءً اليوم ممّا كانوا عليه من قبل. ولهذا نسمعهم يقولون أشياء مثل: «لم تعد الأمور كما كانت عليه من قبل». كل شيء اختلف، الأحذية الجيّدة، الملابس، وكلّ شيء تقريباً. ما الذي حدث للإسكافيّين؟ لقد أثّر الإنتاج الضخم في الموهبة، هذا ما أعتقد بالفعل. ذهبت جميع المواهب وغاصت عميقًا في البحر. هذا هو العصر اللعين المضادّ للتطوّر. لم يعد هناك ذلك العدد من الأوغاد الأذكياء كما كانوا من قبل. حتى عازفو الجاز اليوم لا يشبهون موسيقيي الجاز في جيل والدي. أين صار كلّ أولئك الدوقات والكونتيسات اليوم؟ أين أولئك العازفون العظام؟

ولدت في العام نفسه الذي ظهر فيه كابتن سكارليت لأوّل مرّة على التلفاز. وكان من القواسم المشتركة بيني وبين والدي أنّ كلينا يحبّ ستار تريك وهذا النوع من البرامج. أحبّ والدي كابتن كيرك وأحببت سبوك. تعاطفت مع سبوك وأذنيه الكبيرتين الغريبتين وما حصل مع والدته. كان جميع العازفين في فرقة مودي يأتون أحيانًا إلى منزلنا لنشاهد البرنامج مع بعضنا البعض، يمضغون كيسًا كبيرًا من

شيبس البطاطا المقرمشة ويغطّسونها في المربى. ثمّ يتجرّؤون أكثر لتهزّ موسيقى الجاز البيت بأكمله مثل القطار.

صار والدي لاحقًا مهووسًا بفترة الستينيّات. فلكلّ شخص عقد زمني مفضّل. قال إنّه العقد الذي يضمّ كلّ الأشياء المهمّة في الحياة. أطلقوا عليه اسم العقد المترع بالحماس. موسيقى الجاز والسياسة والجنس والخيال العلمي والسلام. كان يجلس حتّى ساعات متأخّرة من الليل يصرخ على أيّ شخص قد يستمع إليه، ليشرح كيف يعقب العقد السيّئ عقد جيّد. (معه حقّ، أليس كذلك؟ كان محقًّا بالفعل). كنت أقول شيئًا رجعيًّا لإرضائه وحمله على إبداء المزيد من آرائه، كإعادة عقوبة الإعدام مثلا. ولم أفشل في هذا مطلقًا.

قرّرت يومًا أن أفعل ما يفعله الأبناء مع آبائهم وسألته عن الجنس. اعتقدت أنّ هذا قد يرضيه. بدأت بعبارات من قبيل: «هناك بعض الأشياء التي أودّ أن أعرفها يا أبي، فكما تعرف أصبحنا نعيش في مجتمع منفتح». كان ثملاً آتيًا من مكان مّا في وقت متأخّر، وكانت والدتي نائمة. جلس على كرسيّه، أشعل سيجارة ولم يعرض عليَّ واحدة. جلست أراقبه، يدخّن بشراهة. ثم قال: «هيّا تكلّم». ظهرت على وجهه ابتسامة ثملة تحمل طابعًا جنسيًّا أيضًا. قلت بحذر: «هل أقمت علاقة غراميّة من قبل؟» قال: «لا». نفى بصدقٍ كبير دون أن يبذل أيّ جهد على الإطلاق. استطرد: «هل تريد أن تعرف لماذا؟ لأنّني لست منجذبًا إلى أيّ امرأة أخرى غير أمّك، هي الوحيدة القادرة على إثارتي». صُدمت كثيرًا من العبارة التي استخدمها. انتبه لذلك وكرّرها

بثمالة وتلذّذ: «هي الوحيدة القادرة على إثارتي». ثمّ ابتسم ابتسامة بطيئة، فرحًا بنفسه وزفر كرة كبيرة من الدخان. سحبتُ نفسًا من تلك الكرة محاولاً الحصول على نصيبي من الدخان. وهكذا قلت له: «هل الجنس جيّد مع أمّي؟» فقال لي: «بدأت تتجاوز حدودك قليلاً يا بني؟» سكبت له كأسًا أخرى من الويسكي. فقال: «لا، انتظر، لا تفهمني بهذه الطريقة. الوضع جيّد فعلاً، جيّد حقًّا، بكلّ تأكيد، جيّد بكل تأكيد». قلت بوجل: «كم مرّة تقومان بذلك؟» فقال: «يا ولد»، كأنّه بدأ يستمتع بالمحادثة، وأشعل سيجارة جديدة. قلت: «ينبغي للآباء أن يخبروا أولادهم عن هذه الأشياء من باب الثقافة على الأقلّ». فقال: «ثلاث مرّات في الأسبوع». قلت: «هيّا أنت تبالغ». «لقد سألتني وأجبتك، ولا يهمّني إذا ما كنت تصدّق أم لا». أصدّقه فعلاً لأنّه يقول هذا، أولاً، وبسبب تلك النظرة على وجهه. سألته: «هل تفعلان ذلك دائمًا في السرير؟» وأنا أعلم أنّه سيقوم في أي لحظة بإيقاف كلّ هذا وشتمي. ضحك، وعاد برأسه إلى الوراء وقال: «توقّف عن هذا. أحبّ أنا وأمّك التنوّع، نكهة الحياة،أيّ مكان قديم سينفع، غرفة خلع الملابس...»، «غرفة خلع الملابس!» صرخت بذعر. «لِمَ لا؟ لماذا وُجدت غرف خلع الملابس أصلاً؟»

والدي لم يمارس الجنس مع أحد. لم ينتصب عضوه. لم يمارس والدي العادة السريّة. لم يدخله أو يولجه بقوّة، لم يفرغ ماءه في أحد، لم يداعب أحد عضوه. ماذا كان يخفي في سرواله؟ عضوًا تناسليًّا نسائيًّا، أليس كذلك؟ أم يضع عضوًا صناعيًّا؟ يا للقرف. لو كان لديه عضو اصطناعيّ فعلاً فلا بد من أنّه كان يولجه بقوّة، أؤكّد لكم ذلك.

مال عليّ ثملاً وقال: «لعينيك لون يشبه لون كأسي من ويسكي جاك دانييلز». حمل الكأس أمام وجهي وقرّبها جدّا. كان يبدو في غاية السرور والرضا عن نفسه كما لو أنّه قد اكتشف فيَّ شيئًا بالغ الأهمية. أصبح الوضع أفضل الآن.

أبذل جهداً كبيرًا دائمًا لأتذكّر شيئًا مّا، لذلك أعطي كولمان بعض المشروبات الجيّدة أثناء المقابلة. ومنذ تحدّثنا عن الذهاب إلى إسكتلندا بدأ يبوح بالأسرار والشائعات. وهذه الأشياء بالضبط هي التي ستساعد في بيع الكتاب. عقد التسعينيّات مهووس بالجنس والخيانة الزوجيّة والفضائح والفساد والمتحوّلين جنسيًّا. بتلك الحياة الخاصّة التي تخرج فجأة وبشكل مروّع إلى العلن. تخفي هذه الحياة الماكرة كلّ تلك القذارة والخطيئة المحضة. تلك الحياة المليئة بالاحترام التي تهتزّ من فرط النفاق. ذلك الوزير في الحكومة الذي شنق نفسه حتّى الموت ليصل إلى النشوة، كم أحبّ هذا. ذلك الكاهن الذي كان يقيم علاقات جنسيّة مع نصف رعيته، كم أحبّ هذا. نجم السينما الإنجليزي ابن الطبقات الراقية الذي التقطت له صورة مع عاهرة هوليوديّة تداعب عضوه، يا للجمال. النائب الذي يحترم «القيم العائليّة» وهو يمصّ إصبع قدم فتاة جميلة غبيّة، يا للروعة، كلّ هذا رائع. كلّما كان النّاس أكثر شهرة كان ذلك أفضل. شقيق الأميرة الذي خان زوجته اثنتي عشرة مرّة. كلّما كانوا من طبقة أعلى كان سقوطهم في الهاوية أكبر دويًّا. ولا ننسى قصص السحاقيّات أيضًا. الجميع يفضّل تلك القصّة الرائعة عن نجمة التنس الشهيرة أو الممثلة أو المغنّية السحاقيّة. وهذا بعض ما في الجعبة فقط.

أمّا الأفضل حتّى الآن، فهما هاتان السحاقيّتان اللّتان تبنّتا ولدًا، فقد لعبت إحداهما دور الأمّ والثانية دور الأب. قامت هاتان السحاقيّتان بعملية احتيال كبيرة. لا يمكن أن نحظى بقصّة أفضل من هذه القصة. لا يمكنني الانتظار حتّى يصدر هذا الكتاب، إنّه كتابي فعلاً.

سيكون قد مرّ عام على موت جوس مودي عند إصدار الكتاب. كولمان مودي والمؤلّفة الحقيقيّة لكتابه صوفي ستونز، ونكون مقرّبين جدًّا وسنحظى بالكثير من المتعة. وحتّى أختي سارّة ستحظى بالكثير من الانتباه. أنا المؤلفة التي تكتب لكولمان مودي. أنا عقله وروحه. أحببت فكرة إيجاد صوته الحقيقي، وأن أكون عقله الباطن. ولو بذلت كلّ جهدي وكلّ ذكائي، فسأصبح شهيرة قبل الألفيّة. لا بدّ من أن أخترق رأس كولمان، لن تكون هذه المرّة الأولى. لماذا ينبغي أن يكون لديّ وازع من ضمير مادام الرجال قد استغلّوني لسنوات طويلة؟ لا مانع طالما هذا ما يحتاج إليه، وهو أن نحصل على نسخة جيّدة. ألا يلعب هو اللعبة نفسها؟

أشعر بأنّه ينكمش عندما أقول: «كيف تشعر الآن بعد أن بُحتَ لي بكلّ هذا؟» وكنت أدرك أنّه يكذب عندما كان يقول: «رائع، كلّ شيء على ما يرام».

الآخرون: عاملة المنزل

المرّة الأولى التي وصلت فيها ماجي إلى منزل السيّد والسيّدة مودي أخذتها السيّدة مودي جانبًا، وقالت لها بصوت غريب وبمزيج من الهمس والفخر: «هل تعرفين من يكون زوجي؟» لم تكن ماجي تعرف بعد، فقالت السيّدة مودي: «زوجي هو جوس مودي». نطقت اسم «جوس مودي» كما لو كانت تتوقّع أنّ العالم بأسره يعرف من يكون جوس مودي. فهمت ماجي أنّه لا بدّ من أن يكون من المشاهير لذلك قالت بسرعة: «أوه، حقًّا، هذا مذهل!» مُحاولةً أن تبحث في ذهنها ما إذا كان هذا الاسم ينطبق على شكل شخص مّا تعرفه. ألمْ يكن هذا اسم رجل الألعاب الجديد على شاشة التلفزيون؟

تابعت السيّدة مودي قائلة: «عندما يكون زوجي في البيت، فهو يتدرّب ابتداءً من الحادية عشرة صباحًا حتّى الساعة الثانية تقريبًا، لذلك من المهمّ أن تقومي بالتنظيف بالمكنسة الكهربائية قبل ذلك». عرفت ماجي أنّه من الأفضل أن تسأل ما الذي يتدرّب عليه السيّد مودي.

يا له من منزل عائلي جميل ورائحته لطيفة. تفوح منه دائمًا رائحة

القهوة الطازجة. كانا لطيفين معها، فعندما كانت تعاني من أيّة مشاكل مع ابنها الصغير، أو مع والدتها، أو مع الفواتير، كانا يصغيان إليها ويساعدانها. كانت السيّدة مودي تقدّم إليها دائمًا كوبًا من الشاي عندما تصل في الساعة العاشرة صباحًا. معظم النّاس يفضّلون أن يرونك تتعرّق قبل أن يعرضوا عليك كوبًا من الشاي. يقدّمون إليك كوبًا من الشاي بعد ساعتين من العمل. غالبا ما كانت السيّدة مودي متوتّرة ولطالما استفزّت ماجي، فكانت تفقدها أعصابها. ماذا لو سمحا لها بالاستماع إلى «راديو ون» مثل بقيّة المنازل التي تعمل بها؟

كانت السيّدة مودي دقيقة جدًّا في كيفيّة تسيير الأمور، ولكنّها تجعل الجميع حولها يفقدون أعصابهم. لطالما كان بعض النّاس يسبّبون الصداع للآخرين. يُطالبونك بأن تضع هذا الشيء هنا وذلك الشيء هناك، بينما تكون منهمكًا في القيام بشيء آخر. لم تكن هناك وسيلة للتعامل مع ذلك، عليك أن تقوم بما يريدونه، وأن تفعل هذا «فورًا». بالطبع لم تكن السيّدة مودي سيئة إلى هذه الدرجة. أكثر ما كانت تصرّ عليه هو قطع الزينة المبثوثة في المنزل. ذلك البيت تغمره الكثير من قطع الزينة المجلوبة من جميع أنحاء العالم. دمى «ماتريوشكا» الروسيّة الضخمة التي تدخل في جوف بعضها البعض؛ في أحد الأيّام أرتها السيّدة مودي إحدى هذه الدمى. استغرق الأمر عشر دقائق للوصول إلى الولد المختبئ في داخلها. وكلّما صغُر حجم الدمية قلّت التفاصيل الظاهرة على وجهها. قالت لها السيدة مودي: «جميعنا نحبّ هذا، أليس كذلك؟ ففي داخلنا جميعا أطفال صغار». ردّت ماجي: «هذا صحيح فعلاً، حين نفكّر في الأمر، كما تعلمين».

أعطاها السيّد مودي بعض أسطواناته. لا تزال تحتفظ حتّى اليوم، بتلك الأسطوانات؛ قرصان مدمجان، وشريط كاسيت. لم تكن هذه الموسيقى موسيقاها المفضّلة، ولكنك لن تتعرّف كلّ يوم على شخص يحقّق إنجازات كبرى. كانت تجلس في بعض الأحيان لتحتسي فنجانًا من القهوة وتُدخّن سيجارة وهي تستمع لموسيقى السيّد مودي. قالت لنفسها: «أنا أعرفه، لقد عملت عنده». فبعد أربع سنوات من العمل في تنظيف منزل عائلة مودي، شعرت ماجي بشيء من الحبّ تجاهها. وعندما توقّفت منذ عامين عن العمل لديهما، اقتنيا لها تذاكر لقضاء عطلة. ودعواها إلى اصطحاب ابنها والقيام بهذه الرحلة. كانت المرّة الأولى التي تسافر فيها إلى الخارج. كانت تفكّر من وقت إلى آخر في زيارتهما، ولكنّها الحياة كما تعلمون. تُقرّر أن تقوم بشيء، ثمّ يمرّ الوقت دون أن تتمكّن من ذلك. من الصعب عليها أن تتذكّر ما الذي حدث؟ ومتى؟

بلغها النبأ لأوّل مرّة من خلال اتصال هاتفي لجارة لها كانت تعرف أنّها عملت عند عائلة مودي. قالت الجارة: «ماجي! هل قرأت الصحف؟» ولكنّها لم تكن تقرؤها. استفهمت ماجي «لماذا؟» بدا صوت الجارة مُداهنًا، وقالت: «هل تذكرين عائلة مودي التي عملت لديها؟» صاحت ماجي: «يا إلهي، لا تقولي لي إنّ شيئًا فظيعًا قد حدث لها، ذهب بها خيالها إلى أنّ أفراد العائلة وُجدوا مقتولين في بيتهم، مربوطين إلى الكراسي أو محشورين في الخزائن مع فقدان كلّ قطع الزينة تلك، المجلوبة من جميع أنحاء العالم. شعرت بأنّها مضطرّة إلى الجلوس. ضغطت الهاتف على أذنها. «لا، لم يحصل شيء ممّا تتخيّلينه.

مات ذلك الشخص الذي كنت تظنّين أنّه رجل، واكتشفوا في النهاية أنّه لم يكن رجلاً». سألت ماجي مذهولة: «حسنًا، ماذا كان إذن؟». «كان امرأة بالطبع، ذكروا هذا في الجريدة. هل تريدين أن أحضرها إليك؟».

المرّة التالية جدّت عندما اتّصلت بها صحفيّة من جريدة «ديلي سكاي» لتطلب منها المجيء لمقابلتها. قالت ماجي إنّه ما من وسيلة ستجبرها على التحدّث عن الأشخاص الذين عملت لديهم، فقد كانوا في غاية اللطف معها. ولكنّ المرأة قالت إنّها لن تقول شيئًا عنهم وإنّها تسعى فقط إلى محاولة فهم ما حصل. ونظرًا إلى أنّ ماجي كانت مقرّبة من العائلة، فقد اعتقدت أنّ بإمكانها المساعدة في هذا الشأن. أعلمتها أيضا أنّه حتّى الابن كولمان كان يساعدها في هذا الموضوع. كما سيُخصّص لهذا الغرض أيضًا مبلغ من المال.

في اليوم التالي وعلى الساعة الحادية عشرة صباحًا كانت صوفي ستونز تجلس في الغرفة الأماميّة لمنزل ماجي بصدد ارتشاف فنجان من الشاي. كان فنجانًا جميلاً مع صحن، وكانت طاولة القهوة في غاية النظافة قبل وصولها. كما نُظّفت السجّادة بالمكنسة الكهربائيّة عدّة مرّات. لا يمكنك جعل السجّادة تبدو جديدة فعلاً ما لم تُنظّف لمرّات عديدة. قُلِّبت الوسائد على الأريكة ونُفّضت، أُنزِلت الستائر ونُظِّفت، ثمّ رُكِّبت مجدّدًا، وتغيّرت الملاءات على السرير المزدوج. (ليس لأنها كانت على وشك أن تجعل صوفي ستونز تشاهد غرفة نومها، ولكنّها كانت تُغيّر الملاءات دائمًا عندما يأتيها أيّ ضيف إلى المنزل، وهي عادة

جيّدة) أفرغت مياه الحوض أيضًا. كان مرحاض بيتها أبيضَ لامعًا، كما رشّت مُلطّفَ الجوّ، ونظّفت النوافذ من الداخل، وغسلت كذلك القطعة التي تضعها على العتبة. ومسحت أيضا كلّ أبواب المنزل من الداخل، وغسلت جميع أواني المطبخ، وكنست أرضيّته ومسحتها.

استطاعت ماجي رؤية نظرة الفتاة بطرف عينها إلى نظافة المنزل. فات الأوان الآن على أن تقول لها: «عودي من حيث أتيتِ وتوقّفي عن هدر وقتي». ولكنّها على أيّ حال، لا تحظى في كلّ يوم بصحفيّة في غرفتها الأماميّة، مع أنّ ماجي لم تقرأ اسمها في الصحف يومًا.

أخرجت الفتاة جهاز تسجيل في غاية الصغر، بل أصغر من أيّ جهاز تسجيل رأته ماجي في حياتها، كما سحبت أيضًا شريط كاسيت صغيرًا جدًا. لا تثق ماجي في كلّ هذه الأشياء الصغيرة التي يمكنك شراؤها هذه الأيّام. قالت صوفي: «هل يمكنك أن تتكلّمي قليلاً لأتأكّد فقط من أنّ الجهاز يعمل؟ أخبريني ماذا تناولت على الإفطار؟» تفاجأت ماجي بالسؤال، فأجابت بخجل وكأنّ شريط الكاسيت أشبه بكاميرا تلتقط لها صورة: «حسنًا، أنا لا أتناول الإفطار». أصبح صوتها خجولاً، ولم تتمكّن من التوقّف عن الكلام. حلّق إيقاع صوتها إلى السماء، كأنّ صوتها بالون مليء بالهيليوم، وكأنّها تركض وتدبّ على الأرض محاولة استرجاعه، لكنّها لا تتمكّن من ذلك. فكلّ شيء كان يرتفع عاليًا في نهاية المطاف، وكأنّ كلّ ذلك عبارة عن سؤال.

قالت صوفي: «تابعي الكلام، عدّي حتّى الرقم عشرين». شعرت ماجي بالسخافة لأنّها تجلس على الكرسي، وتعدّ إلى الرقم عشرين على

شريط الكاسيت في جهاز التسجيل الصغير أمام صوفي ستونز هذه. كيف ورّطت نفسها في هذا؟ لا بدّ من أنّها فقدت أعصابها. طمأنتها: «لا تقلقي، إنّها مجرّد مقابلة مصغّرة». أشرطة مصغّرة ومقابلات مصغّرة، إلى أين يذهب هذا العالم؟

قرّبت صوفي الجهاز منها أكثر وقالت: «عظيم، سأطرح عليك بضعة أسئلة فقط، ويمكنك أخذ وقتك في الإجابة عنها. لا تتعجّلي ولا تقلقي من جهاز التسجيل، تظاهري كأنّه غير موجود». كان الجهاز المصغّر يبدو أشبه بكائن شرّير على طاولة ماجي اللامعة. قالت ماجي: «حسنًا إذن لننتهي من كلّ هذا». بدا صوتها لاهثًا، وكانت قادرة على أن تسمع أنفَاسها تصعد وتهبط مع خروج كلّ كلمة.

- ماذا كنت تعملين بالضبط عند عائلة مودي وكم استمرّ هذا؟ حدّدي لي السنوات.

- عملتُ لدى أسرة مودي لمدّة أربع سنوات. وقد توقّفتُ عن العمل منذ عامين بسبب مشاكل العائلة. (كان بإمكان ماجي أن تسمع أنفاسها تعود إليها. لم تدرك أنّ صوت أنفاسها كان عاليًا. كيف يمكنها كتم أنفاسها؟ كيف يمكنها الكلام ببساطة؟).

- ماذا كان يتضمّن عملك؟

- حسنًا، كنت أنظّف البيت كلّه من أوّله إلى آخره. كان منزلًا كبيرًا حقًّا. أربع غرف نوم وحمّامان. كان بيتًا لطيفًا، لطالما أحببت رؤية المكان نظيفًا ومرتّبًا. (سمعت هذا بنفسها، سمعت زيف

الصوت الذي كانت تتحدّث به). وأضافت: «لم يكن المنزل نظيفًا ومرتّبًا لفترة طويلة بطبيعة الحال لأنّني عندما أعود في الأسبوع التالي كنت أجد المنزل في حالة مغايرة تمامًا، لم يكونوا أشخاصاً مرتّبين مطلقًا». ندمت ماجي على ما قالته، وفي نفس اللحظة بالضبط، لم تكن تعرف ما الذي دفعها إلى قول ذلك.

- هل ساورك الشكّ يومًا بخصوص جوس مودي؟ هل بدا شابًّا عاديًّا بالنسبة إليك؟

- إذا كنت تسألين ما إذا كان شخصًا عاديًّا، فلا. لم يكن شخصًا عاديًّا. كان الرجل موسيقيًّا عبقريًّا. كان قادرًا على العزف على تلك الآلة! أجابت ماجي.

- أنا لست مهتمّة بالموسيقى. أعني هل كنت تعلمين أنّه كان امرأة؟

- لا. لقد تفاجأت للغاية.

- حقًّا!

- مازلت لا أصدّق حتّى الآن، ألا تظنّين أنّهم ارتكبوا خطأً مّا؟

- ماذا؟ لا أبدًا! هذا حقيقيّ بالفعل.

- لا بدّ من أنّك سمعت عن الحانوتيّين الذين يرتكبون أخطاء. انظري إلى تلك المرأة التي أعلنوا عن وفاتها ودفنوها تقريبا، وعند ذلك فقط اكتشفوا أنّها لا تزال على قيد الحياة.

- انظري، كلّ هذا حقيقيّ بالفعل. كان اسمها جوزفين مور.

- وتلك العائلة التي اضطرّت إلى إقامة جنازة مرّتين لأنهّم نسوا وضع الجثمان في النعش! هل أنت متأكّدة من أنّه لم يكن هناك جثّتان في الصالة، واحدة لامرأة وأخرى لرجل يشبهها وأنّهم ارتكبوا مجرّد غلطة؟ يحدث أحيانا بالخطأ خلط بين الأطفال في المستشفى، فلماذا تعتقدين أنّهم لا يمكن أن يخلطوا بين الأموات؟

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

- إذن لم يكن لديك أدنى فكرة؟

- بتاتًا.

- وماذا عن ملابسه؟ هل كنت تغسلين ملابسه؟

- كانوا متعاقدين مع خدمة غسيل الملابس، يأتون إليهم ويأخذون قمصانه ويعيدونها نظيفة، ومطويّة بواسطة دبابيس صغيرة ومغطّاة بالسيلوفان.

- إذن، لم يكن هناك أيّ شيء غريب مطلقًا يمكنك أن تخبريني به.

بادرت ماجي: «كان هناك شيء واحد غريب». انحنت صوفي إلى الأمام بتوتّر كقطة، سائلة إيّاها: «ما هو؟» فقالت ماجي: «في أحد الأيّام، بينما كنت أنظّف غرفة عمله التي كانت غرفة مذهلة، إذا سمحت أن أقول ذلك. غرفة مليئة بالصور الفوتوغرافيّة لموسيقيّين مثله، يعزفون على الآلات الموسيقية. لا أعرف أسماءهم جميعاً». قالت صوفي ستونز بعد أن فرغ صبرها: «نعم نعم. تابعي». فاستطردت: «لديه مكتب

كبير في تلك الغرفة. كنت دائمًا أعيد الأوراق كما كانت بالضبط حيث وجدتها، ولكن عليَّ رفعها لأمسح تحتها. كان خطّه صغيرًا ومتعرّجًا وفي غاية الغرابة. وهناك دائمًا الكثير من الملاحظات الخاصّة التي يكتبها لنفسه في كلّ مكان عن الموسيقى. التقطت عيناي رسالة مّا، مع أنّني لم أكن أقرأ رسائله عادةً. ولكنّ مقدّمة الرسالة أثارت اهتمامي. كانت تبدأ هكذا «أمّي العزيزة»، وكان هذا غريبًا بالفعل، لاسيّما وأنّ السيّد مودي قد أخبرني بأنّ والدته قد توفّيت منذ زمن طويل».

اعتدلت صوفي على كرسيّها وقالت: «حقًّا». قالت كلمة «حقًّا»، كأنّها قد فازت باليانصيب لتوّها. «ماذا تقول الرسالة أيضًا؟ هل يمكنك أن تتذكّري؟» قالت ماجي: «نعم. أمّي العزيزة، لقد أرسلت إليك مع الرسالة بعض المال. اشتقت إليك للغاية، أنا مشغولة جدًّا»، وأشياء كهذه. ولكن أغرب ما في الأمر ذلك التوقيع في أسفل الرسالة. كان التوقيع باسم جوزفين. قالت صوفي: «يا إلهي! إذن، هذا ما جعلك تتساءلين؟ أجابت ماجي: لا، عمَّ سأتساءل؟ قلت لنفسي، لا بدّ من أنّ السيّد مودي قد كتب الرسالة نيابة عن شخص آخر، ربما. ولكنّني تذكّرت هذه الرسالة الآن.» ابتسمت صوفي ستونز ابتسامة عريضة. وسألتها: «لا أعتقد أنّك مازلت تحتفظين بمفاتيح منزل عائلة مودي؟». فردّت: «لا، أعدتها إليهم منذ زمن بعيد». فاستنكرت صوفي: «يا للأسف!».

فتحت ماجي الباب وغادرت صوفي ستونز منزلها النظيف. أمسكت صوفي يد ماجي وصافحتها بحرارة. «لقد كنت رائعة». لم

تقل ماجي شيئا. لقد راقبتها تنزل الدرجات الثلاث وتركب سيّارة الأجرة التي تنتظرها، دون أن تُلوّح مودّعة. وعندما أوشكت على العودة إلى منزلها رأت جارتها التي اتّصلت بها في ذلك اليوم لتخبرها عن عناوين الصحف، واقفة أمام نافذة منزلها.

بقي المال على طاولتها. خمسمائة جنيه إسترليني عدًّا ونقدًا. لم تستطع ماجي أن تمنع نفسها. إنّها أوّل مرّة في حياتها تحصل فيها على خمسمائة جنيه إسترليني مرّة واحدة. لا بدّ من أن تعدّ النقود. عدّتها مرارًا، وعندما انتهت من عدّها للمرة الثالثة شعرت بالتعب والإرهاق. قالت في نفسها: «ربّما هذا ما تشعر به عندما تكون غنيًّا. ربّما يتعب الأغنياء حقًّا في كلّ مرّة يعدّون النقود ويفكّرون فيها». تساءلت ماذا يمكنها أن تفعل بهذه الأموال؟ قامت بسرعة كما لو أنّها قد سرقت لتوّها أحد البنوك، ووضعت المال في كيس قماشي، وصعدت السلالم، وأخفته في خزانة ملابسها وراء الأحذية في الأسفل. لن ينفع هذا، أخذت الكيس من خزانة الملابس ووضعته في الدرج العلوي بين سراويلها. تنهّدت، سحبت المال من ملابسها الداخليّة ووضعته تحت فراشها. خطرت لها الفكرة للمرّة الألف. لماذا فعلت ما فعلت؟ ما الذي كانت تفكّر فيه؟ تركت المال تحت فراشها في الوقت الحاضر. هذا ليس مكانًا مناسبًا، ستضطرّ حتمًا إلى إيجاد مكان أفضل. ستنام على هذا الفراش.

نزلت السلالم وشغّلت الغلّاية. ونظرت إلى مفاتيح منزل مودي التي لا تزال معلّقة كالعادة على الخطاف عند باب مطبخها!

السفر: لندن

يعيش كولمان مودي في شقّة في الطابق الأرضي في توتنهام، شمال شرق لندن. دفع والده في البداية، نصف الرهن العقاري الكبير البالغ ستين ألفًا عندما اشتراه. ورغم ذلك، لم يتمكّن من التعامل مع الرهن العقاري الصغير نسبيًّا ولا يزال غارقًا في الدَّيْن حتى هذه اللحظة. وبعد كلّ ما دفعه من مبالغ ودفعات، لا يزال يتلقّى تهديدات بوضع اليد على البيت. أصبحت شقّة عفنة، مليئة بالفئران الصغيرة والنمل والحيوانات الأخرى، فصارت أقلّ قيمة بحوالي عشرين ألف جنيه عن السعر الذي دفعه في تلك الأيّام التي شجّعت فيها الحكومة أشخاصا مثله على الشراء.

كان محاصرًا في هذه الشقّة؛ الكثير من الحيوانات، مع الكهرباء التي تعاني من خلل كبير وتلتهم المصابيح الكهربائيّة، إضافة إلى رائحة تعفّن الفئران تحت ألواح الأرضيّة، والطلاء الرطب المتساقط على شبكة التبريد التي تسرّب الماء، وخزائن المطبخ مع أدراجها المتهالكة على المشمّع المثقوب، مع المضخّات الغريبة التي لا يمكن

التعامل معها. سيظلّ محاصرًا هناك ما لم يتمكّن من الحصول على المال لإصلاح كلّ تلك الأعطال. نصحه والده بأن يتعلّم إدارة أمواله وألّا يبذّرها سدى، ولكن كولمان لم يتعلّم إدارة أمواله مطلقًا. توقّف والده عن إعطائه المال، وأخبره بوضوح بأنّه لن يساعده مستقبلا، وبأنّ عليه أن يعتمد على نفسه ليقف على قدميه.

يستيقظ كولمان صباح كلّ يوم ويمشي مترنّحًا إلى الحمّام. الدشّ اللعين لا يعمل جيّدا. وكان ذلك أكثر ما يستفزّ كولمان ويصيبه بالجنون في كلّ مرّة يستخدمه فيها. فإمّا أن يجمّد خصيتيه أو يحرق ظهره. كان يفرك جسمه بالصابون لينطلق عليه وابل من الماء الساخن للغاية أو المتناهي البرودة، فيبدأ بكيل الشتائم ويحرّك الصنبور ويهزّه محاولاً الوصول إلى المزيج المناسب بين الساخن والبارد. ظلّ يفكّر طيلة الوقت في إنجاز هذا الكتاب. عُرض عليه ستون ألف جنيه مقدّمًا، ما سيجعله قادرًا على تفريغ هذه الكومة من الشقّة والخروج من البلد. كانت الحاجة إلى الهروب والذهاب إلى مكان لم يسمع فيه أحد عن جوس مودي، وحيث لا يعرفه أحد، تتزايد يومًا بعد يوم. لا يمكنه تصوّر الحصول على المزيد من المال، على الرغم من تلقّيه الكثير من المكالمات من جميع أنواع الأشخاص اللعينين الذين يعرضون عليه الكثير من المال ليروي قصّته. من الأفضل التعامل مع من يعرفه.

صوفي ستونز جيّدة تحت ذلك القناع الماكر الذي تستخدمه، ولكنّها لا تخدعه، فهي ضعيفة تمامًا مثله.

إسكتلندا هي مسقط رأس والده، وفيها ولد كولمان أيضا. إنّه

ذاهب اليوم إلى إسكتلندا بالقطار. سافرت صوفي ستونز في أوّل المساء. لم يكن كولمان يذهب بالطائرة إلّا حين يضطرّ إلى ذلك. فمنذ أن قرأ أنّ غالبيّة الكوارث الجويّة تحدث إمّا خلال الدقائق الثلاث الأولى من إقلاع الطائرة أو عند الهبوط، لم يعد يطيق لحظات الإقلاع في الطائرة. تلك اللحظة اللعينة التي تكون فيها الطائرة في زاوية خاطئة تمامًا مع الأرض.

خرج من الحمّام، جفّف جسمه ونظر إلى نفسه في المرآة. لم يتمكّن بتاتًا من معرفة ما إذا كان وسيمًا جدًّا أو في غاية القبح. هناك شخصان في المرآة اسمهما كولمان مودي؛ ذلك الصبيّ الآتي من الماضي الذي يرتدي نظّارات، والرجل الذي أصبح عليه اليوم. لا شك في أنّ الرجل يتمتّع اليوم بجسد رائع، وبعضو بقياسٍ جيّد، وذارعين طويلتين، وكتفين عريضتين، ومعدة مسطّحة، وسيقان طويلة. لا يعرف ما الذي سيقوله عن الوجه وهذا ما يحيّره. يبدو الأمر كما لو أنّه غير قادر على رؤية نفسه بشكل صحيح حقًّا، كأنّ رؤيته لنفسه في كلّ مرّة تصدمه صدمة غريبة. نظر مباشرة في عينيه الداكنتين. الهالات السوداء تحت عينيه دليل على الأرق الذي يعانيه وكميّة الكحول الهائلة التي يشربها كلّ ليلة.

لم يكن قادرًا على شرب الويسكي. بدت عيناه أصغر حجمًا كأنّهما تطبقان عليه. لطالما كانتا أوسع وأضخم. وكان النّاس يتحدّثون دائمًا عن عينيه الكبيرتين البنيّتين الجميلتين، ورموشه الطويلة للغاية بالنسبة إلى رجل. أمّا اليوم فلم تعد رموشه مقلوبة بطبيعتها مثلما كانت، كما أصبح محجر عينيه أصغر فعلاً وجفونه أكثر سمكًا. اللعنة،

الشيء الوحيد الذي يمتلكه يضيق على خناقه. تأمّل نفسه في المرآة مرّة أخرى، واضعًا المنشفة الخضراء على كتفيه وشعره الرطب. قال لنفسه وهو يدلك شعره برقّة أمام المرآة: «هيّا يا رجل ارتدِ ملابسك واخرج من البيت»، محاولاً أن يكون الصديق الصدوق لنفسه.

لا بد من التفكير في المال. المال سيرفع مستواه، سيمكّنه من إغلاق أفواه أصحاب قضيّة تملّك المنزل، وسيشتري لنفسه نظامَ صوت جديدًا، وسيذهب في عطلة، ويدفع فواتير الغاز، والكهرباء، والهاتف، ويشتري بعض سراويل الجينز السوداء الجديدة. قريبا لن يكون هنا، سيسافر في قارب، وسيمتطي بعد ذلك القطار، ثمّ سيقود سيّارة مستأجرة.

سيذهب بعيدًا، كما كان والده يقول. أراك لاحقًا. مشى كولمان بخطى سريعة في شارع «ويست جرين رود» في اتّجاه قطار الأنفاق. كان يمشي بخطوات فضفاضة وطويلة، حتّى أنّه كان يقفز أحيانًا. يبدو أنّه يحاول ألّا يجهد نفسه، كأنّه يمشي مشية طبيعيّة بطيئة، ولكنّه في الحقيقة كان يغطّي مساحة كبيرة من الأرض بخطواته الطويلة للغاية، ويسرع في السير.

يضمّ شارع ويست غرين رود نوعين من المحلّات التجاريّة؛ محلّات الحلّاقين ومحلّات الأسماك. هذا كلّ ما يفعله الرجال في توتنهام، يحصلون على تسريحات رائعة لشعرهم ويأكلون السمك. مرّ كولمان بجانب بضعة شباب يعرفهم، فنادوا عليه من محلّ الحلّاق. كانوا جميعهم يجلسون في صفّ واحد ينتظرون أدوارهم لحلاقة جزء

من شعرهم. وكان الشعر يتطاير خلف آذانهم، ليستقرّ على رقابهم. وماكينة الحلاقة الطنّانة تتحرّك ذهابًا وإيابًا على المنطقة نفسها. فكّر كولمان متسائلا: «لماذا كلّ هذا الاهتمام بالشعر؟» كان يرى في حدود علمه أنّ الرجال البيض لا يهتمّون كثيرًا بالشعر. أمّا الرجال السود فيعيدون اختراع أنفسهم من خلال تسريحات الشعر. تظهر التسريحات الجديدة، وبعد لحظة واحدة تغدو قديمة.

كان والده يحبّ الذهاب إلى حلّاق بارع في قصّ شعر السود، وكان كلّ زبائنه تقريبًا من السود حصرًا. كان يحبّ أن يجلس بصمت وينتظر، وأن يشاهد نفسه في المرآة بينما يقوم الحلاق بقصّ خصلة من شعره، ثمّ تتساقط هذه الخصلات على الأرض. لطالما ذهب كولمان إلى الحلّاق مع والده عندما كان صبيًّا. كانا يحلقان في الوقت نفسه. وكان ذلك أشبه بالاحتفالات وبطقوس التنسيب. امتلك والده جرأة كافية ليجلس في محلّ حلاقة مليء بالرجال السود، ليحصل على تسريحة شعر رجاليّة دائمًا مع أنّه كان امرأة. تحتاج إلى الكثير من الجرأة بالفعل للقيام بذلك. ربّما كان يستمتع بهذا حقًّا. وربّما أعجبته فكرة المخاطرة. وفي النهاية ربّما لم يشعر بالخطر على الإطلاق. لو حظي بفرصة لإخراج والده من ذلك القبر الرطب الموحل، لو حظي بفرصة لفتح ذلك النعش الخشبي والجلوس معه لمدّة عشر دقائق، فإن أوّل سؤال سيسأله لوالده هو هل كان يستمتع بالذهاب إلى الحلّاق؟

تأمّل الأسماك في واجهة أحد المحلّات أثناء مروره. يا له من منظر شنيع. أفواه مفتوحة ميتة ومعلّقة، عيون هلاميّة، حراشف زلقة،

سمك البوري الأحمر، سمكة الببغاء، سمك البوري الرمادي، أسماك غريبة وضخمة بأشكال عجيبة، كما لو أنّ شخصًا من قصص الأطفال التقطها من قاع البحر في العالم القديم، وجلبها إلى هنا ليراها النّاس في العالم الجديد. تحدق فيه تلك العيون الخالية من أيّ تعبير ومن أيّ ذكرى أيضًا، كما لو أنها قد نسيت فعلا أنها كانت أسماكًا في يوم مّا. يحدّق بعض الرجال في محلّ الحلّاق وعلى وجوههم تلك النظرة نفسها، تلك العيون الفاغرة، كما لو أنّهم نسوا من هم وهبطوا للتوّ في مكان مّا دون أيّ ماض. عيون الأسماك وعيون الرجال. نظر كولمان إلى الأمام مباشرة، إلى نهاية الشارع. مرّ القطار فوق جسر السكّة الحديديّة.

كانت السماء تشكّل عبءًا على نفسها، رماديّة وثقيلة ومثقلة بالمطر. يعدّ هذا أغرب صيف بوسعه تذكّره. كلّ يوم يحمل معه طقسًا جديدًا، فحتّى الطقس اللعين غير قادر على الاستقرار على رأي واحد.

ثلاث خطوات في وقت واحد، نزل ذلك السلّم القذر لقطار الأنفاق، نزل إلى ذلك العالم السفلي المليء بالقمامة والرائحة الكريهة والبول وأولئك الفقراء الذين يتسوّلون مع أطفالهم وأولئك الرجال الذين يرفعون لافتات من الورق المقوّى البنّي كتب عليها كلمة «مشرّد».

أخذ تذكرته من إحدى ماكينات التذاكر التي تخيف السيّاح. تعمّد أن يأخذ بطاقة ذهاب فقط لأنّه لن يعود. ربَّت قليلاً على حقيبته القماشيّة. وضع فيها زوجًا من سراويل الجينز السوداء، وقميصين طويلين، وحذاءً رياضيًّا جديدًا اشتراه بواسطة بطاقته البنكيّة، وأربعة

سراويل داخليّة نظيفة كان أحدها من الحرير، لاستخدامه عند الحاجة، وزوجين من البلوزات والقمصان الأمريكيّة، وبذلة أنيقة.

مرَّ بشخص جالس أسفل السلالم بين لافتتين تقولان: «هل لديك فكّة؟» (Any change). تساءل: تغيير (Change) في ماذا؟ تغيير في الطقس أم تغيير في الحكومة. ما الذي تقصده؟ عن أيّ تغيير تتحدّث؟ هل يعني هذا أنّك تريد المال؟ حسنًا، لماذا لا تطلب المال؟ إذا طلبت المال سأعطيك البعض منه أيّها المغفّل. تعلَّم أن تطلب ما تريد بالضبط.

لم يقل أيّ شيء، بل ظلّ يفكر في الأمر، ولكنّ الرجل تراجع قليلاً عندما مرّ بقربه كما لو أنه قرأ أفكاره. تفحّص منظر الرجل الفقير بأظافره الوسخة وشعره القذر الطويل المعقود، ولحيته القذرة، وعينيه البليدتين، والمنظر البائس لفكّيه، وملايين الخرق التي لفّها على نفسه، وكلبه الهجين الغبيّ الذي يبدو مهزومًا مثله، ولكنّه أكثر تحفّزًا منه. أثار كلّ هذا وذاك حنق كولمان. من المزعج للغاية رؤية أناس ممرّغين في الفاقة مثل هذا الرجل.

كان يشعر بنوع من الحياد إزاءه، ولم تأخذه به أيّ شفقة أو رحمة، بل مجرّد سخط مستعر لعين. لم يكن يريد رؤيته أمامه، لم يرغب في مشاهدة هذا المنظر أمام عينيه. كانت والدته ووالده متعاطفين دائمًا مع الفقراء، وأولئك المحرومين من المال والضعفاء، ولكنّه لم يكن كذلك حتّى عندما كان صبيًّا صغيرًا. لا يزال يحمل الكثير من الضغينة حيال الأشخاص الذين يشبهون هذا الرجل، وتلك الأفكار السلبيّة التي تتدافع في رأسه لتنبح وتنبح.

كانت هذه النوعيّة من الأفكار تتبادر إلى ذهنه كلّ يوم. هيّا اذهب من هنا واحصل على وظيفة، يا كومة القرف الخالية من أيّ فائدة. تلك الأفكار المناقضة تمامًا للأفكار التي تربّى عليها. أيّها المتسوّل، أيّها السفيه، أيّها الطفيلي انهض واحصل على وظيفة بحقّ الجحيم.

شعر بالذعر لوهلة. هل جلب معه التذاكر التي أرسلتها إليه صوفي؟ تذاكر جلاسكو. هل نسي التذاكر بجانب جهاز الهاتف؟ لقد رآها آخر مرّة بجانب الهاتف. يا لك من غبيّ أبله. كان يطلق على نفسه أسماء عديدة. اعتاد القيام بهذا مؤخرًا، ينعت نفسه بصفات عديدة. سحب محفظته ليبحث فيها. كان رأسه يطنّ بشكل حادّ مسببًا ضوضاء عالية في أذنيه. وجد التذاكر، الحمد لله. خاطب نفسه بصوت عالٍ، الحمد لله. اعتاد والده استخدام هذه العبارة دائمًا وكان يحبّ نغمتها. نظر في عيني الرجل الذي يطلب الفكّة. توقّع الرجل أنّه يسحب محفظته ليعطيه بعض المال. سحب ورقة من فئة خمسة جنيهات من محفظته ورماها في صندوق الرجل الفارغ وقال: «والآن كفاك تحديقًا في وجهي».

ركب كولمان القطار واستدار لينظر إلى الرجل المشرّد الذي لفَّ الورقة النقديّة في يده، وأخذ يحدّق فيها، ثمّ نهض وجمع أكياسه البلاستيكيّة مع كلبه المحزن. سيخرج إلى الجزّار ليشتري عظمة لهذا الكلب المهجّن اللعين. تصوّر كولمان منظر الكلب الحزين عندما يضعون له العظمة على الأرض ليأخذها ويشدّها بقوّة ويطحنها بأسنانه ويمتصّها في رقصة طويلة رائعة مع العظمة في ليلة تشرّد لندنيّة.

كان لدى المرأة السوداء الجالسة أمامه ابن يبدو نسخة منها. حدّق الطفل اللطيف في كولمان. غمز كولمان للولد الصغير. واستمرّ الصبيّ محدقًا فيه بفرح. وهكذا غمزه كولمان مرارًا وتكرارًا. يبدو الولد في الثانية من عمره تقريبًا. همس كولمان لنفسه: «اللعنة، لا يمكنني قضاء الطريق اللعين إلى غاية يوستون أغمز لهذا الولد»، ثمّ حوّل نظره بعيدًا. شعر بالارتياح لرؤيتهما ينهضان لينزلا في محطة كينغز كروس. أومأ للولد، فابتسم له ابتسامة رائعة. فكّر كولمان، هذا أرخص بكثير، لن يكلّفك شيئًا أن تومئ للرجل الصغير لتجعله يشعر بالسعادة.

لم يكن كولمان يقرأ أيّ كتاب أو جريدة عندما يركب قطار الأنفاق. يفضّل دائمًا أن يبقي ذهنه صاحيًا في حال حاول أحد مّا ضربه. هذه مدينة وضيعة، لا بدّ من أن تبقى حذرًا دائمًا. لم تعد لندن كما كانت من قبل، تغيّرت تمامًا. هُزمت هذه المدينة وأصبحت مدينة نتنة. شعر بالارتياح لأنّه سيتخلّص منها، وسيذهب إلى مكان آخر على متن القطار. سيهرب منها بالفعل. أخيرًا سيخرج من هذه المدينة اللعينة. شعر بشيء مّا داخله يرتفع ويطفو، شيء خفيف ورقيق. أصبح الوقت كساعة الهندباء البريّة. يمكنه أن يطيّر كلّ ساعة على حدة ليجعل الوقت يمشي بسرعة أكبر.

كانت لوحة المغادرين الكبيرة في يوستون تومض أمامه بتلك القائمة المرعبة من المدن والمواقيت الخاطئة. حدّق في اللوحة بهلع. مرّ وقت طويل منذ أن قام بذلك لآخر مرّة، أن يركب قطارًا لوحده. نظر

مليًّا في المدن الخاطئة وكان يتعرّق. أين جلاسكو؟ لماذا لم يأتِ قطار جلاسكو؟

أدرك أخيرًا أنّ عليه البحث في قائمة الواصلين، لا في قائمة المغادرين. أيّها الأحمق، هذه هي الرحلة. جلاسكو 11.15، ولكن أين رقم الرصيف الذي سيصعد منه. لماذا لم يضعوا رقم الرصيف؟ من الشخص الذي ينبغي أن يسأله؟ كلّ ما يتوجّب عليه هو أن يقف محدّقًا في اللوحة السوداء الكبيرة حتى يظهر الرقم. اللعنة، سيظهر الرقم في اللحظة اللعينة الأخيرة وسيتحرّك كلّ الركّاب اللعينين بسرعة ليصلوا إلى الرصيف، مثيرين الفوضى ودافعين عرباتهم فوق أقدام الآخرين، باذلين أقصى جهدهم للوصول إلى طابور العربات الضيّق ليستعيدوا الجنيه الذي وضعوه. كارلايل، سيتوقّف القطار في كارلايل. تقع هذه المحطة عند الحدود. كان والده يقول «في اللحظة التي أصل فيها إلى كارلايل، أدرك تمامًا أنّني صرتُ في موطني، ويبدأ قلبي بالخفقان في اللحظة التي أعبر فيها الحدود». سأله كولمان: «إذن لماذا لا نعود لنعيش هناك؟» فاكتفى بهزّ رأسه.

فرص العمل ليست كافية. فرص العمل ليست كافية! تبًّا لا أصدّق هذا. لذلك لم يكن يعيش هناك. كانت والدته على قيد الحياة. هل عرفت والدة جوزفين مور أنّ ابنتها قد ماتت؟ هل عليه أن يخبرها؟ تبًّا. اندفع مسرعًا لشراء سندوتش تونة وعلبة مشروب غازي خالية من السكّر. لا يوجد حتى الآن رقم للرصيف. أسرع إلى مينزيس ليقتني أحد كتب الألغاز من تلك التي تتضمّن كلمات بشكل مائل أو أفقي أو

عمودي. يجعله هذا النوع من الألغاز يشعر بأنّه ذكي لأنّه لا يستطيع أن يحلّ الكلمات المتقاطعة، إضافة إلى أنّه يكره الأشخاص الذين يُقبلون على حلّ الكلمات المتقاطعة: ياالأولئك الأوباش المغرورين، يتمتمون دائما لأنفسهم ويفكّرون، ثمّ يفكّرون حتى تظهر جميع تلك الأفكار على وجوههم. يجلسون مسلّحين بأقلام الرصاص المبرية أو أقلام الحبر الجافّة الفاخرة، ويحاولون بمكر شديد فكّ رموز اللغز. وفجأة يصرخ أحدهم «آه» بفخر وشعور عارم بالنصر عندما يجد حرفًا آخر من حروف حلّ الأحجية. كانت أمّه ماهرة في حلّ الكلمات المتقاطعة. وقد حاولت والدته طيلة تلك السنوات أن تعلّمه أسرار هذه اللعبة. رغبت والدته بشدّة في أن يكون ابنها من هذا النوع من الأطفال، ذلك النوع الذي يستمع ويدرك ويستطيع خلال فترة وجيزة من الزمن أن يحلّ الألغاز الخاصّة في صحيفة الغارديان.

أخذ كولمان يتحرّك جيئة وذهابًا في طابور الانتظار. لا يستطيع أن يصبر حتى يذهب. ما هو الشيء المتعلّق بالسفر الذي يجعله قلقًا جدًّا؟ إنّه يرى الآخرين متضايقين ومجروحين، يتصارخون. إلى الأعلى، سيذهب الجميع إلى الأعلى، باستثناء عدد قليل من رجال الأعمال الحمقى ببزّاتهم، فمن الأرجح أن يجلسوا في الدرجة الأولى، رائع فعلاً، كالخيار اللعين. حسناً، إنّه رائع حقًّا. حصل على تذكرته، على سندوتش، وعلى حجزه. ليس هناك أيّ مشكلة، ليس هناك أي مشكلة على الإطلاق.

يخطو إلى الأسفل في اتّجاه الرصيف، بخطوات أطول من المعتاد.

يتجاوز بكلّ سهولة كبار السنّ والنساء والأطفال. فهو يبحث عن المقصورة. لم يستطع مطلقًا أن يفهم ترتيب هذه المقصورات التجارية. فهي لا تبدو بتاتًا بالترتيب الألفبائي الصحيح. عليه عمليًّا أن يذرع القطار بطوله قبل أن يرى أمله، المقصورة. وكان يتمنّى ألّا يسبقه شخص آخر إلى أخذ مكانه فيها. سبق أن حدث له ذلك. كان دائمًا ما يخسر معركة الحصول على المقعد الخاص به على الرغم من أنّ تذكرته معه. كان يخسر دائماً. وكثيرا ما كان يدخل في شجار مع مفتّش القطار ومع مسافر آخر أو مع الآخرين الذين ينتظرون القطار. فليس من السهل عليه أن يسافر في هذا البلد.

غالبًا ما يعتقد النّاس هنا بأنّ الرجال السود أمثاله سيرتكبون جرمًا أو سبق أن فعلوا ذلك، أو أنهم يكذبون أو سوف يكذبون، ربّما سرقوا أو على وشك القيام بسرقة مّا. إنّها ليست نكتة مضحكة أن تحاول الذهاب إلى مكان مّا مع أناس لا يفكّرون طوال الوقت إلّا بالسوء. هو يعلم أنّهم يفكّرون بهذه الطريقة حياله. لا يخدعونه بنظراتهم المفاجئة المليئة بالادّعاء، فذلك ظاهر على وجوههم. إنّهم منزعجون منه، خائفون، متوتّرون. فكم من مرّة اضطرّ إلى أن يرفع يديه ويقول لهم لا تقلقوا فأنا لا أعضّ. إنّه فقط لا يريد أن يزعج نفسه، فكلّ مرّة يعاملونه كأنّه لا يملك الحقّ في أن يجلس في مكانه على الإطلاق. خارج النافذة قطار آخر يتحرّك ببطء ما يعطيه الانطباع بأنّ قطاره هو الذي بدأ بالتحرّك. مجرّد هذا الإحساس وحده يخيفه. إنّه مذعور، وهو يتساءل إن كان على متن القطار الصحيح أو عليه أن

يكون في ذلك القطار الآخر مع هؤلاء النّاس الذاهبين، لكنّه شعر بالارتياح بمجرّد أن سمع كلمة جلاسكو.

هل يجب أن يتناول سندوتشه الآن؟ معدته فارغة، وتتصرّف بغرابة. كثيرا ما ينسى الأكل. منذ وفاة والده وهو يأكل بطريقة غير منتظمة وعشوائيّة، لذلك صارت معدته تصدر أصواتًا غريبة في كلّ مرّة يتذكّر الطعام. تذكّره هذه الأصوات بتجربة علميّة قام بها في المدرسة، تجربة الغربلة والفقاعات. وهو ما يزال محتاجًا إلى أنّ يتجشأ أو يطلق ريحًا، حتّى يحصل على الراحة، ودائما ما يفعلها بطريقة علنيّة كأن لا أحد يجلس بجواره. قرّر أن يأكل سندوتشه في ميلتون كينز.

منذ متى كان يعيش في إسكتلندا؟ خمسة وعشرين عامًا؟ كان والده كثيرا ما يقول له: «أنت إسكتلندي، ولدت في إسكتلندا وهذا ما يجعلك إسكتلنديًّا». ولكنه لا يشعر بأنّه إسكتلندي. فهو لا يتحدّث باللكنة الإسكتلنديّة. يستطيع أن يتحدّث بهذه اللكنة مثله مثل جميع الأطفال الذين ينحدرون من أصول إسكتلندية، ولكنّه يشعر بأنّها ليست هويّته، إنّها لا تشبهه. ما هي هويّته؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه على نفسه دائمًا. هذا كلّه خطأ، القطار؛ هناك شيء مّا حول الطريقة التي تتحرّك بها الأرض من خلال النافذة. حول عبور الحدود، حول رؤية بقرة تهزّ ذيلها مرارًا للتخلّص من ذبابة تحوم حول فخذها. ثمّ لماذا يمتطي هذا القطار تحديدًا؟ إنّه ذاهب لمعرفة المزيد عن والده. صحيح، أليس كذلك؟ إنّه ذاهب للقاء المرأة التي يفترض أنّها متوفّاة، ليتعرّف على حياة والده الحقيقيّة.

بدا جديرًا بما فيه الكفاية ليعزف على البوق في تلك النوادي المليئة بالدخان. بدا حقيقيًا وغير حقيقيّ في الوقت ذاته، وكأنّه نسخة خياليّة من نفسه. كلّ عازفي الجاز نسخ خياليّة من أنفسهم. يعيدون خلق الكونتات والدوقات وآل أرمسترونج ويقلّدونهم. «كانت الموسيقى الطريقة الوحيدة لإبقاء الماضي على قيد الحياة»، قال له والده يومًا. هناك المزيد من المستقبل في الماضي، أكثر ممّا هو عليه في المستقبل ذاته. قال له أيضًا: «الرجال السود والموسيقى، ماذا سيكون العالم من دون الرجال السود والموسيقى؟».

أغاني العبيد، أغاني العمّال، الترانيم، الإنجيل، موسيقى البلوز، موسيقى الريجي، الجاز، (الراب)؟ سيسأل كولمان: «ماذا عن موسيقى الراب؟»، وسيجيبه: «لا، هذا عبارة عن الكثير من القمامة». كان والده سيقول بلهجة جادّة: «هناك الكثير من الهراء، الراب ليس موسيقى». الراب هو حماقة. أين هي القصّة؟ «القصص موجودة في البلوز». جميع أغاني البلوز قصص؛ قصصنا، تاريخنا. لا يمكنك فهم تاريخ العبوديّة من دون أن تعرف أغاني العبيد. كولمان لا يشعر بأنّ له أيّ تاريخ. لا يشعر بالراحة عندما يخرج مع أصدقائه، ويبدؤون بالتحدّث عن إفريقيا. يشعر بأنّها كذبة عندما يرى أصدقاءه يرتدون الثياب الإفريقيّة ويتفاخرون بأنّهم من هناك، وعندما يبدؤون التحدّث بلكنة كوكني الإفريقيّة. العودة إلى إفريقيا عبارة عن شيء خيالي بالنسبة إلى كولمان. لم يسبق له أن ذهب إلى إفريقيا. فكيف يمكن أن يذهب هذه المرّة؟

من أين يُفترض به أن يبدأ؟ مع من يجب أن يتحدّث أوّلاً؟

تقول صوفي ستونز إنّها ستبحث عن أصدقاء المدرسة القدامى، عن الجيران. قالت أيضًا إنّ النّاس يخرجون ما في جعبتهم من أسرار إذا أعطيتهم القليل من المال.

جعلته فكرة أن يتحدّث مع أيّ شخص عرف والده عندما كان طفلة صغيرة يشعر بالدوار. نظر من النافذة إلى خارج القطار، وابتلع ريقه بصعوبة، فلا تزال حنجرته تؤلمه بشدّة. رأى حصانًا أسود يعدو بسرعة يسابق القطار، ثمّ يختفي بعيدًا. حاول كولمان تخيّل نفسه في الماضي، في هذا المكان عندما كان طفلاً، في جلاسكو، يمشي في شارع أكسيدنت ستريت، ثمّ ينعطف عند الناصية. هناك إلى متجر الحلوى، ذلك المتجر الذي يحبّ صاحبه الغريب الأطفال كثيرًا، ما اسمه؟ لطالما كان يقدم إلينا المزيد من حلوى (pokes). ملأته فكرة وصوله إلى محطة جلاسكو سنترال بالإثارة. لم يتخيّل يومًا أن يشعر بهذا الحماس. لم يتخيّل أنّه قادر على الشعور بأيّ شيء على الإطلاق. لا يمكنه المرور بهذه المشاعر، ولا يمكنه الذهاب والتحدّث مع كلّ هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يعرفون والده. هذا مستحيل، بل إنّه جنون مطلق. لطالما كان كولمان مجنونًا بالفعل، ولكن ليس إلى هذه الدرجة. عليه أن يخبرها، أن يخبرها فحسب. ما الذي ستفعله؟ لن تتمكّن من إجباره على القيام بذلك. سيزور والدة والده. عليه أن يقوم بذلك. عليه مقابلتها ليرى إذا ما كانت تشبه والده بالفعل.

لم يتحدّث والده كثيرًا عن والدته البيضاء. ولم يكن يحبّ إثارة هذا الموضوع. ينبغي أن تعرف من أنت، ولا يهمّ مطلقًا المكان الذي

جاء منه والدك أو والدتك. هل قال هذا؟ هل قال هذا بالفعل؟ كيف سيفعل ذلك إذا لم يكن يعرف أصلاً إذا ما كان رجلاً أو امرأة؟

كان والده يقول إنّه لا بدّ للرجال السود من أن يصبحوا أكثر لطفًا. يمكنهم أن يتعلّموا الكثير من النساء. يا لتلك الضحكة! يا لتلك الضحكة التي لا بدّ من أنّه كان يضحكها لنفسه في الفراش ليلاً. يقهقه ضاحكًا، يا لتلك الصرخة اللعينة. يحبّ كولمان الحديث عن الأشخاص البيض. ويحبّ الحديث عن الأصحاب السود والبيض، وكيف يتوافقون مع بعضهم البعض. لطالما أحبّ والده الحديث عن الماضي. قال له كولمان مرّة، لماذا تفكّر في الماضي دائماً يا والدي؟ ما الذي يقدّمه إليك اليوم مارتن لوثر كينغ؟ هل سيساعدك في بيع ألبومك الجديد؟ كان هذا النوع من الكلام يشعر والده بغضب شديد. كيف يكون ولدي بهذا الغباء؟ ما الذي فعلته لأستحقّ هذا؟ جميع الأشخاص السود الذين أحبَّ والده الحديث عنهم كانوا أمريكيّين، أمريكيّين من ذوي البشرة السوداء. كان كولمان يسميهم اليانكيّين السود. أمضيت حياتك كلّها في عشق اليانكيّين السود: مارتن لوثر كينغ، لويس أرمسترونغ، فاتس والر، كونت باسي، ديوك إلينغتون، مايلز ديفيس. جميع أولئك يانكيّون سود، أنت لست أمريكيًّا، أليس كذلك؟ كشّر كولمان وهو يمضغ ساندوتش التونة، ويتذكّر. «لم أقل إنّني أمريكي، ما بالك؟»، لا، هذا صحيح، أنت إسكتلندي، أليس كذلك؟ «أنا فخور بكوني إسكتلنديًا». لماذا لا ترتدي تنّورة إسكتلندية وتعزف على ترومبيتك مرتديًا التنّورة؟ سيفرح النّاس في عالم الجاز بذلك، ولكنّك تعرف أنّه يمنع ارتداء أيّ شيء تحت التنّورة، أليس

كذلك؟ سيحظى الشباب في فرقة «بوجي ووجي مودي مين» بأوقات رائعة وهم يختلسون النظر إلى تنّورتك.

استسلم للنوم الغريب مع أحلام اليقظة، ذلك النوم الذي يداهمنا في القطارات. كان نصفه نائمًا يحلم بإسكتلندا، ونصفه الآخر يصرخ، اخرس! قالها لأحد الأولاد الذي استمرّ في الصراخ مرارًا وتكرارًا: «اشتري لي هذا»، وصوت الأمّ التي تكرّر: «إيوان، لن أعيد كلامي مرّة أخرى». وصوت رجل وراءه يقول: «اسمعني جيّدًا. هذا المكان قد تدمّر بالكامل، ولكنّهم لم يعرفوا أنّني كنت هناك». وامرأة في مكان مّا من القطار كانت تتحدّث في الهاتف المحمول، بل كانت تصرخ: «مرحبًا، مرحبًا، لقد جئت لوحدي، مرحبًا؟ ألو، ألو، ألو». قال كولمان لنفسه «اخرسوا جميعًا»، في محاولة للعودة إلى حلمه ليستغرق فيه تمامًا. إنّه هناك في الحلم، بركبتين عاريتين، وسراويل قصيرة يركض في أحد الحقول، حقل قشّ كبير في مزرعة مّا.

تلاشى الحلم تمامًا. تأكّد من رسالة والده في حقيبته القماشيّة في الجيب الجانبي. لم يعطِ هذه الرسالة لصوفي ستونز بعد، واستمر بالتظاهر بأنّه قد نسي ذلك. نظر إلى الرسالة مرّة أخرى، «تفتح بعد وفاتي». تساءل إذا ما كان عليه أن يفتحها الآن. وهل هذا هو الوقت المناسب؟ ولكنّه لا يستطيع القيام بذلك. أعادها مرّة أخرى إلى الجيب الجانبي وأغلق عليها السحّاب. كان يتفقّد الرسالة ليرى إذا كانت ما تزال موجودة في مكانها، على الأقلّ مرّتين أو ثلاث مرّات في اليوم.

كان الرجل الأسود يحمل كوبين من الشاي ويتمايل من جانب

إلى آخر برشاقة كبيرة. لم يصطدم بأيّ شخص ولم يدس على قدم أحد. راقبه كولمان آتيًا على طول الممر وفجأة تبيّن أنّه والده. أخذ يتعرّق بالفعل. كان يرتدي معطفًا، المعطف الداكن نفسه لوالده. والقميص، القميص نفسه. إنّه قادم باتجاهه مبتسمًا. يا إلهي، إنه يبتسم فعلاً. أخذ الرجل يحدّق مباشرة في كولمان، متمايلاً مع كوب الشاي من جانب إلى آخر، مُقبِلاً عليه. كان يسير في القطار بفخر في غاية التوازن، وظهره منتصب، وعيناه تنظران إلى الأمام مباشرة. لم تكن عيناه تشعّان باللطف ولا بالقسوة أيضًا. كان يسير في القطار كما لو أنّ هذا كلّ ما لديه ليفعله يومها، يذرع القطار جيئة وذهابًا، كأنّ هذا عمله الوحيد في حياته كلّها. حدّق كولمان في الرجل غير مصدّق.

مرَّ الرجل بجانبه، استدار كولمان ليرى وجهته. تابع الرجل المشي. نهض كولمان للعثور على الرجل. مشى في الممرّ متعثّرًا. داس على أقدام بعض الأشخاص اللعينين وكاد يطير. لم يجد الرجل، إلى أين ذهب؟ لم يجده. ربّما كان في حمّام الرجال. تقول الإشارة إنّ هناك شخصا في الداخل، ربما دخل ليتبوّل. انتظر كولمان في الخارج، ولكنّ الإشارات على بقيّة الحمّامات الأخرى تقول إنّ هناك شخصًا في الداخل. ربّما يكون في الحمّام الآخر. وعندما قرّر كولمان العودة إلى مقعده خرج الرجل من الحمّام. لم يكن والده، بالطبع لم يكن والده. أصبح قريبًا منه الآن، لم يكن يشبهه أصلا. عاد كولمان إلى مقعده، مرَّ بجانبه، ثمّ استدار وعاد مرّة أخرى ليجد المقعد. قال لنفسه، لقد جننت. لم أعد أسيطر على نفسي. لقد فقدت السيطرة تمامًا. أخرج كتاب الألغاز وحلّ أحدها على الفور. وضع دائرة حوله، هذا أفضل.

اتّصل كولمان هذا الصباح بسامي. أراد شخصًا مّا ليهتمّ بشقّته، ولكنّه أراد أكثر أن يقول لأيّ شخص إنّه ذاهب بعيدًا. لطالما أحبّ أن يخبر شخصا مّا عندما يسافر بعيدًا. تفاجأ سامي بسماع صوته. قال له: «كول، أين أنت؟» لم يكن كولمان متأكدًا إذا ما كان هذا من وحي خياله أم لا، ولكنّه شعر بأنّ سامي يشعر بالإحراج الشديد. قال لسامي إنّه ذاهب إلى إسكتلندا لإنجاز كتاب.

- أي نوع من الكتب؟

- سترى فيما بعد. سأهديك نسخة موقّعة منه عندما أنتهي من كتابته.

- لا تقم بأيّ شيء قد تندم عليه بعد خمس سنوات. أجابه سامي.

سحب حقيبته من الدرج العلوي فوق المقعد بسرعة. وفتح السحّاب وأخرج معطفه الأسود، وخرج من القطار. أخبر سائق سيارة الأجرة عن اسم الفندق وجلس في الخلف يتأمّل شوارع جلاسكو، علّه يتذكّر شيئا منها. ولكنّه لم يتعرّف على أي مكان في جلاسكو. لا شيء مطلقًا. تبدو ألوان المباني مختلفة تمامًا. كانت جملة سامي لا تزال ترنّ في أذنيه: «لا تقم بأيّ شيء قد تندم عليه بعد خمس سنوات».

البيت والوطن

لطالما أحببت قضاء أيّام الأحد مع جوس، لاسيما تلك التي يقضّيها في البيت حين لا يسافر مع الفرقة. كان يقضّي معي تلك الأيّام في المنزل. كنّا نستيقظ، ثمّ نعود إلى النوم معًا عدّة مرّات قبل أن ننهض من السرير مجدّدًا. وكلّما استيقظنا كنّا نبتسم لبعضنا البعض بلطف، ابتسامة ملؤها الحبّ المتناوم. كانت آثار الأحلام تظهر واضحة على وجهينا. وكانت وسادة جوس رطبة بما ينضح من عرقه وهو نائم. رطوبة نديّة تجعلني أنظر إليه بعطف شديد. كنت أستيقظ أحيانًا لوحدي وأستلقي لأراقبه وهو نائم. لطالما أحببت مراقبته نائمًا. في كثير من الأحيان كان وجهه يبدو متقلّبًا عندما يكون نائمًا، وهو ما يضحكني حقًّا. يستلقي مقابلا إيّاي على جنبه، ويلفّ إحدى ذراعيه حول رأسه ويضع الأخرى على وركي. يمسّد وركي في نومه، إذ يعتبر تلك الانحناءة مكانه المفضّل، تلك الانحناءة حيث يلتقي الورك بالخصر. يحبّني في نومه حبًّا رهيبًا، ويتذكّرني سواء كان واعيًا أو غير واعٍ. يعرف كلّ جزء من جسدي. وإذا كنت حزينة كان

يستيقظ ويسألني عن سبب حزني. ثمّ أعود إلى النوم معه لمدة عشر دقائق أخرى، عشر دقائق أخرى فقط.

يستيقظ جوس ليقبّلني برفق على خديّ. يمرّر شفتيه على خدّي بصبر مرارًا وتكرارًا. ويمرّر يديه على جسدي وعلى صدري. أحدّق فيه طويلاً. يا لتلك النظرة على وجهه. تبدو عيناه جدّيّتين وكثيفتين وداكنتين. كلّه رغبة فيّ. أعلم جيّدًا أنّه يرغب فيّ، يريدني بشدّة، وقد يُجنّ إن لم يمتلكني. تأخّر الوقت، ونمنا لفترة طويلة. علينا النهوض من السرير والبدء بيومنا. علينا أن نذهب في نزهة طويلة. تذكّرَ على الفور، نزهة طويلة. تغيّر نفَسه، أصبح يتنفّس بسرعة. أثارتني أنفاسه. قال لي: هيّا تعالي. باعد بين ساقيّ ومدّ يده إلى الأسفل. أخذت أصابعه تتحرّك ببطء أوّلاً، ثمّ أصبحت أسرع ودخلت فيّ عميقًا وبقوّة من الخلف. شعرت بأنّني قد طرت بعيدًا، إلى زمان آخر، وإلى مكان آخر تمامًا. لا أكاد أدرك ما الذي يحدث حولي. يمكنني سماع الأصوات التي تصدر عنّي من خلال هذه الغشاوة. لا أعرف إن كانت أصواتًا صاخبةً أم خفيفةً. أشعر بفمي مفتوحًا ليصدر تلك الأصوات. أشعر بأنّني أستدير على الجانب الآخر. مدّدني واستلقى فوقي. أدارني إلى الجانب الآخر مجدّدًا وقبّلني، قبّلني في كلّ مكان من جسمي متمتمًا بكلمات غريبة. أخذ يداعبني بقوّة، وأخذت سرعته تزداد شيئًا فشيئًا، حتى ارتجفت من النشوة والحاجة إلى الطيران، إلى الطيران عاليًا إلى أعلى قمّة ممكنة كي أحلّق بعيدًا. أشعر بأنّني أسقط مرهقة دامعة ومنتشية. ضممته، فحملني وأخذ يهزّني ذهابًا وإيابًا، قائلاً مرارًا إنّه يحبّني. كان يبتسم، شاعراً بالثقة

الكاملة في نفسه، وأشعر بأنّني في منتهى الضعف، وبأنّني محبوبة تمامًا وبكلّ معنى الكلمة.

أحبّ أيّام الأحد. أحبّ ممارسة الجنس أوّلاً، ثمّ قراءة الصحف. كانت الصحف تنشر أحيانًا مقابلة مع جوس في أحد الملاحق أو مقالة عن إحدى حفلاته الصغيرة أو إصداراته الجديدة أو بعض الشائعات حول الثلاثي. غالبًا ما كنت أضحك من كلّ قلبي ممّا هو منشور. أمّا جوس فكثيرًا ما كان مزاجه يتعكّر من هذه الأشياء أو يتحسّس أو يصبح في منتهى الغرور، ولكنّني أتقبّل منه أيّام الأحد كلّ هذه التصرّفات، وخاصّة عندما يكون قد أخذني إلى عالمنا الآخر. يبقى عالمنا السرّي بيني وبينه وحسب. لا أحد آخر يعرفه. أنا وهو فقط.

نهضنا من السرير. حضّر جوس وجبة الإفطار. كان جيّدًا وموهوبًا في تحضير الإفطار. لطالما حظينا بالبيض المخفوق والمقلي، -لم يكن قاسيًا ولا ليّنًا، دسمًا وأصفرَ-، والخبز المحمّص، ولحم الخنزير المقدّد، والطماطم المشويّة، والبودنغ الأسود (كان جوس يقول: «ما الذي يعنيه الإفطار دون القليل من دم الغنم؟» ليضايق كولمان)، والقهوة الطازجة. كان جوس يحبّ القهوة، يحبّ رائحة محلات بيع القهوة واختيار حبوب القهوة بنفسه؛ القهوة المغربية، الكينية، والقهوة متوسّطة التحميص والداكنة. أحبّ أيضًا وصف الحبوب في المحلّ. وكان يقول ضاحكًا إنّها مثل شخصيّات النّاس. يعود إلى المنزل ليطحن الحبوب في مطحنة البنّ التي اشتراها حديثًا، ثمّ أصبحت لعبته المفضّلة.

القهوة الطازجة والحليب الساخن الذي يسخّنه في الطاسة ويصفّيه حتّى يصبح رقيقًا وجاهزًا، وعصير البرتقال الطازج، والمزيد من الصحف. لم نكن نفوّت وجبتي الإفطار والغداء عندما نكون في المنزل أيّام الأحد. كان جوس يهتف دائمًا: «غداء الأحد!»، كما لو كنّا في مطعم، ويعدّد محتويات قائمة الطعام للزبائن. «وجبة جوس مودي لغداء الأحد». نادرًا ما أعجب كولمان بكلّ هذا. كان جوس يغنّي لنا كلّما وضع طبقًا على الطاولة بسعادة. دا دا دا دا دا الداه دي، دا ديدي بوم بوم بوم باااااااد براااب براااب برااب. كان يرتجل الكلمات والألحان، ويخترعها.

وإذا تضايق كولمان أحيانا، يصرخ في وجهه قائلاً: «أبي توقّف عن هذا.» أو يقول حرفيًّا: «اسكت»، فيبدأ جوس بالغناء بصوتٍ أعلى وأعلى وينقر بقدميه ويحرّك الأطباق على إيقاع رقصه على أرضيّة المطبخ. قال كولمان ذات أحد: «أعطني فطوري وحسب». فنظرت إليه مؤنّبة وسألته: «لماذا تفسد كلّ شيء دائمًا؟ يحاول والدك أن يستمتع بوقته وحسب، ما المشكلة؟ كن لطيفًا». فقال كولمان: «أنا لطيف، ولا أريد سوى وجبة فطوري». وهكذا كنّا نجلس لتناول الطعام. لم يكن جوس يتضايق من النكات السيئة التي كان كولمان يطلقها. أمّا أنا فكنت أحاول تجاوزها والتعامل معه بلطف، ولكنّني كنت غالبا ما أشعر بغضب رهيب في داخلي، يأتي من مكان لا أعرفه.

لم أشعر في حياتي كلّها بالغضب تجاه أيّ شخص مثل الغضب الذي ينتابني إزاء ابني، وهذا ما كان يخيفني حقًّا. قلت بصوت يحمل

نبرة من التهديد: «حسنًا، دعونا نحظى بإفطار لطيف دون مشاكل». كان كلامي يعني بعبارة أخرى أنّني سأعاقبه في الوقت المناسب إذا لم يظهر أفضل ما فيه بالفعل.

قال لي يومًا: «تعرفين أنّني لا أحبّ البيض المقلي». كم كان عمره عندها؟ ربّما في التاسعة أو العاشرة من عمره. على أيّ حال مهما كان عمره حينها، فقد أمضى كلّ تلك السنوات يتناول البيض المقلي بسعادة بالغة. نهضت وجذبته بعنف من على طاولة الطعام، وسحبته إلى غرفته. رميته في الغرفة وقلت: «ابقَ في الغرفة حتّى تحبّ البيض المقلي». كنت أعلم وأنا أقوم بذلك أنّه ليس تصرّفا عادلاً تمامًا، ولكنّ تعامله لم يكن بدوره عادلاً، ولقد تضايقت للغاية لأنّه كان يحاول إفساد عطلتي. تضايقت كثيرًا من أسلوبه المشاغب غالبًا.

سمعته يرمي بعض الأشياء في غرفته. وقاومت إغراء أن أفتح الباب مجدّدًا لأنهال عليه بالضرب. كانت الطاولة لا تزال مرتّبة تمامًا. بقي مفرش المائدة الأصفر البرّاق وصحن الفاكهة والقهوة كلّها على حالها. دخلت الشمس من النافذة لتضيء التفّاح في الطبق. أشاح جوس بنظره عن الجريدة التي كان يقرؤها وقال: «لا حاجة إلى هذا، ستجعلينه أسوأ بكثير عندما تتصرّفين هكذا. كيف تقولين له «ابقَ في الغرفة حتى تحبّ البيض المقلي»؟! هل فقدت عقلك؟» ضحكتُ وضممته من الخلف وقبّلت رقبته وهمست في أذنه «لقد آلمتني»، فابتسم بخجل. انحنيت عليه وقبّلته من شفتيه الناعمتين. قلت له «ادخل إليه لتحضره إلى هنا» وجلست على مائدة غداء الأحد. وعندما

عاد كولمان إلى الطاولة وحاول جاهدًا تناول البيض شعرت بالذنب مرّة أخرى. يا لطفلي المحبوب، كم يبدو جميلاً. قلت لنفسي: «جيّد أن يكون الولد أكولا. لماذا قسوت عليه؟ إنّه مجرّد صبيّ، الرجل الجيّد يُعرف من الصبيّ الجيّد».

لماذا أسمح له بأن يزعجني إلى هذه الدرجة؟ ينبغي أن أكون أفضل من ذلك. لا بدّ من أن أصبح أمًّا أفضل بالفعل. أقول له مبتسمة: «يا لهذا الصبي اللطيف. تبدو عيناه مليئتين بالحبّ والألم، وحاله تدعو إلى الشفقة مثل أوديب صغير». ركبنا السيّارة وذهبنا باتجاه هيث. لطالما أحببنا النزهات الطويلة يوم الأحد. إنّه المكان الوحيد في لندن الذي يجعلنا نشعر بأنّنا لسنا حقًّا في لندن.

تزهر الأشجار بخجل وتشرق شمس مايو على وجوهنا من خلال الأوراق. يتمشّى كلّ من جوس وكولمان، ثمّ يركضان يدًا بيد. كنّا نمارس الكثير من الألعاب ونحن نتمشّى، ونؤلّف القصص. أنظر إليهما بحذر، ستخسر إنْ قلت لا. نؤلّف أغانيَ تحتوي كلمة «سيّارة»، أغنية أخرى تضمّ كلمة «سان فرانسيسكو»، وأغنية ثالثة فيها كلمة «سخرية». لم نكن قادرين على الإيقاع بجوس ومجاراته، مهما كانت الكلمات صعبة. تحدّيته أن يضع كلمة شكسبير فاستطاع. وبدأ يغنّي: «تذكّر شكسبير القابع فيك»، متظاهرًا بأنّه يكنس هيث بمكنسة كبيرة.

يا لأيّام الأحد. تلك الأيّام العاديّة الرائعة. اليوم الأحد. مرّت عليَّ خمسة أيّام أحد دون جوس، خمسة. توفّي يوم أحد. لكم تمنّيت لو أنّه توفّي في يوم آخر. لم تكن أيّام الأحد القليلة التي مرّت علينا قبل وفاته

مثل أيّام الأحد السابقة على الإطلاق. كان مريضًا جدًّا، وكلانا يعلم أنّه يُحتضر، لكنّنا لم نكن نعلم تمامًا متى سيأتي الموت. أتذكّر كلّ يوم تلك اللحظات التي مرّت في يوم الأحد الذي توفّي فيه جوس. أشياء كثيرة لا أريد تذكّرها. مرّت مدّة طويلة قبل أن أتّصل بأيّ شخص. جلست معه منتظرة أن تغادره الروح. لم أكن أؤمن بهذه الأشياء في السابق، حتّى جاءت اللحظة التي مات فيها جوس. ولكنّني أؤمن بها الآن لأنّه كان بإمكاني أن أشعر بوجود شخصين منفصلين في تلك الغرفة عندما كان جوس يُحتضر. أحدهما شخص مريض مستلق على سريره يصدر أصواتًا مستمرّة بفمه الجّاف تقريبًا عندما يفتحه ويغلقه محاولاً ترطيبه. والآخر كان من غير جسم، بل كان أشبه بروح تحوم في الغرفة. تمكّنت تلك الروح بأعجوبة من مغادرة جسده منذ البداية لتريحني ولتطلب منّي أن أحرّرها، وتقول لي إنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، كلّ ما كان عليَّ فعله هو أن أحرّرها، وهكذا سيتمكّن هو بدوره من ذلك.

تصارعت للحظات مع صوت هذه الروح، لم أكن أريد أن أحرّرها. فقد كنت إلى آخر لحظة أؤمن بالمعجزات. آمنت بأنّه سيجتاز كلّ هذا وسيصبح في حال أفضل. لطالما سمعنا عن أشخاص كانوا على وشك الموت، ثمّ عادوا من جديد إلى الحياة. كنت أنتظر، وكان أقصى ما أرغب فيه في هذا العالم وأكثر من أيّ شيء آخر أن يعود جوس إلى الحياة، أن يتحسّن فقط. صلّيت كثيرًا. شبكت كفّيّ ببعضهما كطفلة، وركعت على ركبتيّ وصلّيت. لست متديّنة حقًّا، ولكنّني صلّيت، صلّيت كثيرًا، ساعدني يا الله.

لم أكن أريد أن أترك جوس يذهب من بين يدي. تشبّثت بيد المريض، وشعرت بأنّني مجنونة، وبأنّني ضعيفة من قلّة النوم ومن هذا الرعب الرهيب. لم يسبق لي أن عاينت في حياتي ذلك النوع من الرعب، رعب رهيب ومفزع يسري بجسدك ويتملّكه. يلهب الرعب صدغيك، ويظهر في رائحة عرقك، ويتذوّقه فمك ويشعر بطعمه المعدني السّام. تصافحه كفّاك، ويرتجف صوتك لو حاولت أن يظهر صوتك هادئًا، مطمئنًّا، مريحًا، يرتجف حتى لا يعود صوتك نفسه الذي تعرفه، بل صوت الرعب الرهيب، وتعلم ذلك في قرارة نفسك. تعلم ذلك عندما تحاول بصوتك القديم المألوف، فيخرج منك هذا الصوت الجديد، صوت جديد يقول أرجوك، أرجوك، أرجوك. ليس الآن، لا تذهب الآن. حتّى أدركت أن هذا يعذّبني حقّا، وأنّ جوس الأوّل وجوس الثاني كلاهما يريدان الذهاب، وأنّ جوس الروح كان لطيفًا ولكنّه بدوره في النزع الأخير.

كانت السيّارة جاهزة تنتظر، لم يعد بإمكانها الانتظار أكثر إذا ما كان عليها أن تأخذ جوس إلى حيث يحتاج أن يذهب، لذلك قبّلت يده وأخذت زمام المبادرة. قلت له: «كلّ شيء على ما يرام الآن يا حبيبي، يمكنك أن تذهب. يمكنك الذهاب الآن. كلّ شيء على ما يرام. اذهب الآن». ظللت أمسّد يده وأمسدها برقّة باتّجاه واحد. شعرت بأنّ نبض الشبح لا يزال يدقّ. غادرت الغرفة، ذهبت إلى المرحاض. وعندما رجعت كان النبض قد سكت. سقطت يده على الملاءة وعلقت فوق السرير. طويتها إلى الداخل. كان مستلقيًا هناك نصف مغطّى في ملاءة بيضاء، ومرتديا بيجامته البيضاء، وشعره لا يزال رطبًا وجلده لا يزال

نديًّا. ولا تزال يداه كما هما وكما كانتا دائمًا. لم أتمكّن من أن أشيح بنظري عنه. كان يبدو مختلفًا. سمعت أنّ الناس يسحبون الملاءة فوق الميت ليغطّوا وجهه، ولكنني لم أتمكّن من القيام بذلك مع جوس. حدّثني، قبل أيّام قليلة من وفاته، حول الحياة كامرأة أكثر ممّا أخبرني به طيلة فترة زواجنا. طلب منّي طلبًا غريبًا قبل يومين من وفاته: «علبة من حلوى الأرز بالكريمة أمبروسيا». هي الحلوى المفضّلة بالنسبة إليه عندما كان فتاة صغيرة. قال هذه الكلمات للمرّة الأولى في حياته معي: «عندما كنت طفلة كانت حلوى الأرز بالكريمة أمبروسيا حلواي المفضّلة». أطعمته عدّة ملاعق من الأرز وكانت هذه وجبته الأخيرة.

ذكّرني بالضمادات، وطلب منّي ألا أنسى أن أضع له الضمادات مرّة أخرى. لذلك فتحت أزرار سترة البيجامة لأخلعها عنه، كانت عمليّة صعبة. لففت الضمادات حول صدره للمرّة الأخيرة. تلك الضمادات التي لطالما كانت جزءًا من حياتنا معًا، لففتها بإحكام مرّة تلو أخرى حتّى اختفى الثديان الصغيران تحت الضمادات البيضاء. لم أبكِ عندما كنت أقوم بذلك. لم يكن لديّ أيّ طريقة للتعبير عن هذا الشعور الذي استبدّ بي. إنّه أسوأ شعور مرّ بي في حياتي كلّها. ولا يزال يتملّكني ذلك الشعور المقزّز نفسه.

تملّكني الشعور نفسه أيضًا هذا الصباح عندما استيقظت وفكّرت للحظة في أنّ جوس كان على قيد الحياة. ألبسته سترة البيجامة وأغلقت أزرارها. استغرق كلّ هذا وقتًا طويلاً للغاية. وضعت فوقه ملاءة جديدة وبطّانية أخرى. وكان عليَّ أن أتّصل بالطبيب وبالحانوتي

لينقلاه من هنا، ولكن عليَّ أن أخبر كولمان أوّلاً. أردت أن أغسل يديّ على الفور. غسلت يديّ ووجهي بالماء البارد. كنت لا أزال أشعر بوجود جوس الآخر يحوم في الغرفة، جوس الروح. تلك الروح المتفهّمة اللطيفة. وقفت على قدمي، وذهبت إلى الصالة وحدّقت في الهاتف الأسود. تأمّلت الهاتف لفترة طويلة محاولة تذكّر رقم كولمان. تذكّرته لاحقًا.

علمت أنّ وقتًا طويلاً قد مرّ لأنّ الظلال الداكنة للظلام خيّمت على المكان. نظرت إلى ساعتي عندما مات جوس. كانت تشير إلى الساعة 01:12 صباحًا عندما عدت إلى الغرفة ووجدته ميتًا. كنت قد سمعت بأنّ إدارة المستشفيات تكون في منتهى الصرامة في تحديد توقيت الوفاة، مثلما هي صارمة في توقيت الولادة. رغبت في معرفة التوقيت الصحيح. في تلك الليلة التي سبقت وفاته غادرت الغرفة لبضع ثوان واتصلت برقم 123 لأتأكّد من أنّ ساعتي صحيحة ومتوافقة مع توقيت البلاد. أخبرني ذلك الصوت المجهول بأنّ الساعة هي التاسعة والنصف وعشرون ثانية. الساعة الآن الثانية والنصف.

تذكّرت رقم كولمان كاملاً: 8020464. أمسكتُ سمّاعة الهاتف، وأخبرت الروح التي أعلم أنّها لا تزال هنا: سأتّصل بابننا، سأتّصل بابننا. بدأتُ بنقر الأرقام. كانت أصابعي في غاية الضعف، وتمكّنت بمنتهى الصعوبة من النقر على الأرقام. سمعت المجيب الآلي لكولمان. لطالما كرهت مجيبه الآلي. كيف يمكن أن يشغّل المجيب الآلي في مثل هذه الأيّام التي يحتضر فيها والده؟ انتظرت سماع الصفّارة التي يخبرك

الجميع بأن عليك انتظارها. وعندما سمعتها شعرت بالرعب، كان صوتها عاليًا جدًّا ونزقًا. قلت: «كولمان؟ كولمان هل أنت موجود؟» وردّ كولمان الحقيقي بلحمه ودمه على الهاتف. قلت له: «لقد مات والدك منذ ساعة أو أكثر. أرجوك، هل يمكنك أن تأتي؟» لم أعرف ما الذي سأفعله من دونه. جاء إليَّ وبسرعة على ما أعتقد، ولكنّه لم يرغب في رؤية والده. قال إنّه يرغب في تذكّره وهو على قيد الحياة. ماذا لو أنّه لم يغيّر رأيه لاحقًا. ماذا لو أنّه لم يذهب إلى صالة الجنازات تلك. أعتقد بأنّ هذا لن يشكّل أيّ فرق يذكر. أعتقد أنّه لا بدّ من أن يعلم في النهاية.

عندما جاء كولمان بدأ يتصرّف بطريقة غريبة لم أعهدها فيه من قبل؛ أصبح فائق الكفاءة ومنظّمًا ومتفهّمًا. أجرى مئات المكالمات الهاتفيّة. وحضّر لي العديد من أكواب الشاي. أردت الاتصال بنفسي بالحانوتي. كان عليَّ أن أفكّر الآن في ذلك الشخص الذي يرقد في تلك الغرفة في جسد جوس. أتذكّر أنّني لاحظت الكثير من الأشياء السخيفة. كان أحد الجيران الذي لم تكن تجمعنا به أيّ علاقة وديّة يبكي في الشارع عندما أخرجنا الجسد خارج المنزل صباح يوم الاثنين. لقد شاهدت الجثمان يخرج من المدخل. واضطررت إلى رؤيتهم يأخذونه بعيدًا. كان عليَّ أن أتماسك. جاءني طفل صغير يسكن على بعد منزلين من منزلنا، نسيت اسمه الآن، راكضاً نحوي. سألني: هل مات زوجك؟ هل مات زوجك؟ حتى جاءت أمّه مندفعة وأسكتته. حدّقتُ في وجهه للحظة، ثم قلت: «نعم، لقد توفّي زوجي».

توفّي زوجي، وأصبحت أرملة الآن. هذا ما سأقوله للنّاس إذا جاؤوا وسألوني. لقد توفّي زوجي. لقد أصبحت أرملة الآن. لماذا لا يفهمون إلى أيّ مدى يعدّ هذا الأمر عادياً؟ فالكثير من النساء يصبحنَ أرامل. مرّت العديد من النساء بما مررت به من قبل. والكثير من النساء يعرفنَ بدقّة لون خسارة الأحباء ورائحتها وشكلها. قضّت الكثير من النساء أعمارهنَّ يُعانين الفقد والخسارة. وقد غيّر الحزن وجوه الكثير والكثير من النساء. لست الوحيدة على الإطلاق. عليَّ أن أقول هذا لنفسي دائمًا، لست الوحيدة على الإطلاق. أنا أكذب على نفسي، أنا أكذب على نفسي دائمًا ولا بد من أن أتوقّف بالفعل عن هذا. أنا وحيدة.

لم يعد أصدقائي يعرفون كيف يكلّمونني أو كيف يكتبون إليّ بعد اليوم. يشعرون بالحرج والارتباك والصدمة، وربّما بالغضب، لا أعرف. ربّما يكون أصدقائي غاضبين مثل كولمان، لا أعرف بالضبط. ربّما يرغبون في معرفة كيف تمكّنت من ذلك. تمكّنت من أن أحبّ زوجي منذ اللحظة التي وقعت عيناي عليه حتّى لحظة وفاته. وتمكّنت من اشتهائه طيلة حياتنا الزوجيّة. وتمكّنت من احترام موسيقاه وحبّها. تمكّنت دائمًا من حبّ طريقته في تناول الطعام. وتمكّنت من أن أكون مخلصة له وألّا أهتمّ بأيّ رجل آخر. تمكّنت من أن أبقى مخلصة، وأن أُبقي -كما يجب- على حياتنا الخاصّة لنا وحسب، وألّا أخبر أيّ شخص في العالم بما في ذلك ابني عن حياتنا الحميميّة.

تمكّنت من القيام بكلّ هذا. أعرف أنّني قادرة على المحبّة بكامل طاقتي، وعدم الخوف من إغداق المحبّة أكثر ممّا ينبغي، وأن أمنح من

نفسي أكثر وأكثر. أدرك أنّني قد أحببت فكرة أنّني زوجة جوس مودي. استطعت العيش مع هذا العبقري. ولم يكن هذا سهلاً صدّقوني. ربّما تشعر جميع الأرامل بأن لا أحد يتفهّمهن كما يجب. لا تقوم تلك الأرملة التي تذهب إلى سريرها وتسدل الستائر بالشيء الصحيح، تستجمع نفسها وترتدي قناع الشجاعة، ربّما كانت تشعر بمثل شعوري. أنا أضع الآن قناع الشجاعة، بل استجمعت كلّ قوّتي.

اليوم الأحد. إنّه خامس يوم أحد يمرّ دون جوس. حضّرت الغداء لنفسي. لم يكن البيض المقليّ الذي حضّرته جيّدًا كما في العادة. ولطالما كانت القهوة التي أحضّرها خفيفة للغاية، ولحم الخنزير ناضجًا زيادة عن اللزوم. جلست إلى طاولة خشبيّة في تور وتناولت الطعام. سيوافق جوس على تحضيري وجبة غداء الأحد على شرفه، وفي غيابه. سأخرج لاحقًا لأحضر الجريدة. منذ زمن لم أقرأ صحيفة كاملة بكلّ محتوياتها. كانت تلك المقالات المثيرة للاشمئزاز تخيفني، ولكنّني أتخيّل اليوم بضعة أيام من أيام الأحد التي كنّا نقضّيها سويّا.

إذا جاؤوا إليّ سأكون مستعدة لاستقبالهم. سأخبرهم بكل شيء عن أرملة جوس مودي. لن أشعر بالخجل على الإطلاق. بدأت الآن بالتفكير فيهم، وأدركت أنّني أريدهم أن يأتوا فعلاً. أنا متأكّدة من أنّني إذا رأيت كولمان بالفعل وهو يُحدّق في عينيّ مباشرة، فلن يكون قادرًا على المشاركة في تأليف هذا الكتاب. هذا غير ممكن. عندما يأتون إليّ في الصباح، أو في الصباح التالي، أو في المساء التالي أو في الأسبوع التالي، سأكون جاهزة لاستقبالهم.

النعي

جوس مودي

- 1958 أغنية ميلي (Center)
- 1960 ليلة الاختفاء (ACR)
- 1963 الابن الضال (ACR)
- 1966 خيالات إفريقيا (Heygana)
- 1967 أنين مودي (Power Label)
- 1968 الطائر الأزرق الصغير (Sugar)
- 1972 تور (Sugar)
- 1975 العواصف الماطرة في إيطاليا (كولومبيا)
- 1979 البلوز في بحر هائج (كولومبيا)
- 1982 روبرك (كولومبيا)
- 1985 مودي البطيء (كولومبيا)
- 1987 وجبة الأحد (كولومبيا)

- 1991 جوس مودي (كولومبيا)
- 1994 روائع جوس مودي (كولومبيا)

جوس مودي، عازف الترومبيت، من مواليد عام 1927، توفّي في 27 يوليو 1997.

الفنادق الفخمة

كان عليه أن يسافر مع والده لِما لا يقلّ عن سبع مرّات أو ثمانٍ في السنوات الخمس الماضية. ذهب معه في بعض الرحلات الصغيرة وأمضيا معًا بضعة أيّام مع الفرقة. إذا كان هناك توبليرون في الميني بار، فسيحظى الفندق بأعلى الدرجات. وإذا كان هناك رداء أبيض مغلّف في خزانة الملابس، فسيحصل أيضًا على أعلى العلامات.

المرّة الوحيدة التي ارتدى فيها كولمان رداء أبيض كانت أثناء جولة مع والده. وكان ذلك رائعًا. كان والده يصرّ دائمًا على أن يحظى كولمان بغرفة انفراديّة خاصّة به. وإذا كانت قائمة الطعام لدى خدمة الغرف تتضمّن الهامبرغر بالخبز المرشوش بالسمسم أو شطيرة اللحم، فذلك يعني أنّ الفندق جيّد نوعًا مّا. وإذا ما تضمّن الفندق عروضًا لمحطّة سكاي التلفزيونيّة وقناة أفلام، فهذا هو المطلوب بالضبط. أمّا إذا لم يكن الفندق يضمّ أيّ شيء من هذه الكماليّات، يعدّ عندها فندقًا مقرفًا. يضمّ هذا الفندق في جلاسكو الكثير من الكماليّات، باقة تلفزيونيّة بأكملها. عندما تأكّد كولمان من وجود كلّ هذه الخدمات

داهمه شعور بالإحباط. لم يعرف لماذا خيّم عليه هذا الشعور. أحسّ بأنّه يغرق. لن يكون والده ذلك الرجل العجوز في انتظاره على البار لاحتساء كأس.

سألَتْهُ صوفي: «ماذا تريد أن تشرب؟» وهي تسحب الفوطة البيضاء لتفردها على فستانها الأسود. «ما رأيك أن نبدأ بالجن والصودا، كبداية؟» أجابها كولمان وهو ينظر في عينيها: «اطلبي لي أنت؟» كانت عيناها كبيرتين، ورموشها طويلة، وشعرها أشقر مشدود إلى الأعلى. انسدلت بضع خصلات طويلة من الشعر على خدّها. كانت وجنتاها بارزتين وحادّتين. أمالت رأسها إلى أحد الجانبين وأخذت تنظر في قائمة الطعام. كانت شفتاها مفتوحتين قليلاً وهي تفكّر. تضع أحمرَ شفاهٍ لامعًا، أحمرَ مذهلًا. لم تكن شفتاها ممتلئتين ولم تكونا رقيقتين. تبدو الشفة السفلى كما لو أنّها لفم آخر مختلف عن الشفة العليا. رفعت صوفي نظرها عن قائمة الطعام وسألته: «هل أنت متأكّد من أنّك تريدني أن أطلب لك؟» أجابها كولمان: «نعم متأكّد».

جاء النادل، فطلبت طبقين من سمك موسى وزجاجة نبيذ شابلي. قالت صوفي: «ها نحن إذن». لم يعرف كولمان بماذا سيردّ. استرخى قليلاً عندما وصلت أطباق السمك، إذْ وجد شيئًا ينشغل به. أخذ ينزع الأشواك بعناية. من الممتع تنظيف السمك من الأشواك حتّى يصير تناوله آمنًا. وضع الأشواك على جانب الطبق، وكانت السمكة ممتازة.

ظلّت صوفي ستونز تتحدّث باستمرار عن الكتاب. وكانت تطلق عليه اسم «كتابنا». وقد بدأ هذا يضايقه فعلاً، «كتابنا».

عندما كنتُ في غرفتي لوحدي، فكّرت في كولمان مرارًا. جرّدته من ملابسه، وتخيّلت ظهره العاري تمامًا، ومؤخّرته وفخذيه وما بين فخذيه وخصيتيه وعضوه. تخيّلته كلّه. لم يعد الأمر مجرّد لعبة، ولم يعد مجرّد كتاب. لقد شعرتُ هذه الليلة لأوّل مرّة بالأسف عليه، شعرت فعلا بالأسف الشديد عليه. وزاد شعوري نحوه بالأسف من رغبتي فيه. اللعنة كم يحبّ كولمان والده. إنّه يحبّ والده حقًّا. دفعني هذا إلى اكتشاف أنها العاطفة الحقيقيّة الكامنة داخله، بدلاً من الكراهيّة أو الغضب أو التقزّز أو النفور. وقد رأيتها واضحة على وجنتي كولمان مودي البارزتين على خدّيه، كانت الحبّ، الحبّ! بدا كأنّني أرى هذا النوع من العاطفة لأوّل مرّة في حياتي حقًّا.

خلعت فستاني الحريريّ الأسود وعلّقته. وارتديت ثوب الحمّام الأبيض. شغّلت صنبور الحمّام، وصببت فيه فقاعات الصابون. انزلقت تحت رغوة الفقاعات، وأغمضت عينيّ. هناك شيء غير صحيح على الإطلاق، ينبغي أن أسأله ما الأمر. الليلة على العشاء قال إنّه غير قادر على مقابلة هؤلاء النّاس، وإنّ ذلك قد أربكه وأحزنه، وإنّه كان مضطرًا لفعل ذلك، وإنّه يرغب في مقابلة السيّدة مور بنفسه. لو كنت قادرة على الاستسلام لهذا! حدّثته عن ذلك البيت في تور فأوشك على الانفجار. رفض أن يذهب لزيارة والدته، بل رفض حتّى أن يدلّني على الطريق إلى تور. لم يتمكّن من ذلك مطلقًا. قال كولمان: «لن آخذك إلى هناك!» كما لو أنّني ملوّثة أو شيء من هذا القبيل. تسبّب ذلك في جرح مشاعري. كما لو أنّني أنتمي إلى عالم الصحافة الرخيصة. ربّما كنت أكتب لصحيفة

ديلي سكاي، ولكنّني صحافية مستقلة. يزعجني للغاية أن يفترض النّاس أنّنا ننتمي إلى العالم نفسه.

لم ينتبه كولمان حتى إلى نظرة التأثّر على وجهي. قال إنّه يحبّ ذلك المكان، تور، بطرقاته التي تضربها الرياح، وتلك النسائم القويّة فوق التلال، والممرّ الواسع للوصول إلى الميناء، والقوارب. يحبّ كذلك أولئك الصيادين الذين يصطادون هناك السمك بصبر أزلي. رائحة السمك والمطر، وذلك المقهى الصغير الذي يعرفه منذ كان طفلاً؛ تور مقدّسة بالنسبة إليه، لا يمكن لمسها مطلقًا. ولا يمكن الاقتراب من أمّه. كانت تحتاج إلى أن يتركها النّاس لتعيش بسلام. قال إنّها، بغض النظر عمّا تفعله هناك، لا بدّ من أن تكون حزينة، كما لو أنّه يحدث لأوّل مرّة أن تغرق والدته في الحزن. قال: «الحزن سيّئ حقًّا». لم أكن أعلم ما الذي عليَّ أن أفعله. أردت أن أقول له: «انتبه، لقد فهمتني بشكل خاطئ تمامًا»، ولكنّني لم أكن أريد أن أخاطر بقول هذا، أن أخاطر باستعدائه. عليَّ أن أتعامل ببرود أكثر. يُصاب النّاس بفزع شديد في كثير من الأحيان قبل أن يبوحوا بأسرارهم. هذا قاسم مشترك بين جميع النّاس. وهذه ليست المرّة الأولى التي تفلت قصّة عظيمة منّي، ويبدأ السبق الصحافي بالتسرّب من بين أصابعي. لم أفكّر بتاتًا في أنّني سأعاني من أيّ مشاكل مع كولمان مودي. قلت له: «انظر، سيكون هذا الكتاب رائعًا. إنّه عبارة عن مجرّد محاولة لشرح ظاهرة والدك، سيساعد الآخرين على تفهّمه». قال كولمان «كلّ هذا مجرّد هراء وأنت تعرفين ذلك. ظاهرة والدك!» لذلك حاولت أن أهدّئ من روعه وأخفّف من حدّته، ولكنّه عندما يفقد أعصابه تثور ثائرته تمامًا. قلت

لنفسي: «اللعنة، لا بدّ من أنّه كان ولدًا مشاكسًا للغاية». شعرت للحظة عابرة بالتعاطف مع جوس وميل مودي. قلت: «لنذهب إلى النوم ولنتحدّث عن هذا غدًا صباحًا. هدّئ أعصابك».

عندما كتبت لميليسنت مودي لأوّل مرّة، كان كولمان قد وعدني بزيارة تور معًا. وعندما أرسلت الرسالة الثانية كان كولمان يبدو أقلّ ثقة في أنّنا سنقوم حقًّا بهذه الزيارة. قال لي إنّ والدته لن تتعاون مع كتاب كهذا، ولو مرّ قرن من الزمن. ثمّ تساءل للحظة: «ما الذي يمكن أن يعنيه قرن من الزمن حقًّا؟» هذا ما كان يفعله دائمًا، يغيّر الموضوع برمّته.

استيقظ كولمان في الغرفة 310. دخّن السجائر واحتسى كأس ويسكي من الميني بار، جلينفيديك Glenfiddich. مات والده الآن، ويمكنه أن يشرب مشروبات الشعير (الملت) دائمًا. وبعد سنوات من كرهه للطعم الحادّ والحارّ لمشروبات الشعير اللاذعة، يجد كولمان نفسه اليوم يتلذّذ بها. أليس غريبًا قدرة الفم على تغيير ولاءاته فجأة. سيرتشف من الآن فصاعدًا الكثير من الرشفات الصغيرة واحدة إثر أخرى. يعرف كولمان أسماء جميع هذه المشروبات. كان والده مهووسًا بمشروبات الشعير. Glenfiddich (إذا لم يكن هناك علامة تجارية أفضل)، جلينمورونجي Glenmorangie، لافرويج Laphroaig، جورا Jura، لاجافولين Lagavulin، بورت إلين Port Ellen، تالاسكر Talisker، كاردو Cardhu، بريز أوف جلينفيت Braes of Glenlivet، أردبيغ Ardberg، كولايلا Caol Ila. مرتفع الكثافة، منخفض الحلاوة.

لم يعد يشرب المزيد من جاك دانييلز أو بيلز أو تيتشرز أو أيّة مشروبات أخرى معروفة. ارتشف كولمان عدّة رشفات مبتسمًا لنفسه؛ مرتفع الكثافة، منخفض الحلاوة.

تمكّنت صوفي ستونز من الحصول على عنوان إيديت مور. نظر كولمان الثمل لوهلة في الورقة التي أعطته إيّاها صوفي. ها هو العنوان، شارع لارتشيز المنزل رقم 12. مشروع بيوت المسنّين الذي يعد أحد تلك الأماكن، حيث لا يضطرّ كبار السنّ إلى الاستلقاء موتى لعدّة أيّام دون أن يلاحظهم أحد، وحيث يمكنهم قرع جرس الإنذار الأحمر ليروا أيّ شخص قبل أن يغمضوا أعينهم وقد فارقوا الحياة.

كيف سيشعر إذا ما كانت امرأة عجوزًا تعيش لوحدها في منزل مع جرس طوارئ، إذا ما ظهر أمامها فجأة شخص غريب وصحافيّة شقراء يطرحان عليها الأسئلة عن ابنتها المنفصلة عنها جوزفين مور. ربّما كان ينبغي تركها لحالها، وترك عشّ الدبابير ساكنًا. وربّما لم يكن ينبغي له أن يزورها مطلقًا. إنّه يدرك مدى الصدمة التي قد يُسبّبها لها. اللعنة، قد تصاب بنوبة قلبيّة أو شيء من هذا القبيل.

تبادرت إلى ذهنه فجأة فكرة ألّا يكون من الضروري أن يقول أيّ شيء للسيّدة مور عن والده. يمكنه القول ببساطة إنّه كان صديقًا لابنتها أو أيّ شيء من هذا القبيل. ألن يكون هذا أكثر لطفًا من الحقيقة؟ ولكنه سيخدعها في هذه الحالة، وسيكذب عليها. كيف يمكن للأكاذيب أن تكون أفضل من الحقيقة؟ يطلقون على الأكاذيب الجيّدة اسم «الكذبة البيضاء». تلك الأكاذيب غير المؤذية، البريئة التي

تتلفّظ بها أفواه البيض الأبرياء غير المضرّين. ولكنه ليس مثل هؤلاء الأشخاص، أليس كذلك؟ هل يمكن لرجل أسود مثله أن يكذب كذبة بيضاء؟ إذا قال إنّ جوزفين مور والدته، فستتوقّف المرأة العجوز عن سماع كلّ الأشياء الأخرى المتعلّقة بالتخنّث. لقد تسبّبت له كلّ تلك الأمور المتعلّقة بالتحوّل الجنسي في الإغماء ذات يوم، فما الذي ستفعله بامرأة مسنّة؟

ما الذي سيقوله لإيديت مور؟ كان والدي رجلاً أسود عندما كنت طفلاً صغيرًا. كان رجلاً أسود شهيرًا يتمتّع بوجه جميل وضحكة عالية. كان أبي يعزف على الترومبيت. وكان ممتازًا للغاية في ذلك، إلى درجة أنّ العالم كلّه كان يعشق صوت ترومبيته. كان يعزف ببراعة تجعل النّاس الذين يستمعون إليه يتذكّرون فجأة كلّ الأشياء التي ظنّوا يومًا أنّها باتت طيّ النسيان. لطالما قال إنّ ترومبيته يروي القصص. تلك القصص القديمة المغرقة في القدم. كان ذلك كلّ ما قاله، ولم يقل يومًا ما الذي كانت تدور حوله تلك القصص بالضبط. كان يقول: «أخبروني أنتم». وكهدية صغيرة كان في بعض الأحيان يطلب إضافة بعض المكوّنات لقصّته. وسيتوجّب على جميع الحاضرين أن يقولوا شيئًا مّا. لا يهمّ ما يمكنك إضافته. اخترع شيئًا مّا؛ فراشة، صندوقًا، فتاة صغيرة تنظر من ثقب الباب، شَعرًا، قردًا صغيرًا، امرأة عجوزًا في منزل على شاطئ البحر. وهكذا يؤلّف أغنيته على الترومبيت، أغنية تحكي قصّة تضمّ كلّ هذه الأشياء معا. وكان من الممكن في بعض الأحيان أن يتعرّف كلّ شخص على موسيقى الفراشة أو البيت الخشبي أو الفتاة الصغيرة. كان والدي عازف ترومبيت معروفًا عالميًّا.

ترك في رصيده عند وفاته أربعة عشر ألبومًا. وفاز بالعديد من الجوائز وعزف مع مشاهير الموسيقيّين الآخرين في عصره. نشأ والدي في بلدة إسكتلندية صغيرة تدعى غرينوك. وكانت أمّه بيضاء ووالده أسود، وكان هذا استثنائيًا إلى حدّ كبير في أيّامهم. هل يذكّرك هذا بأيّ شيء؟ أبي هو ابنتك. صبّ كولمان مودي الكأس الأخيرة من زجاجة Glenfiddich الثالثة في كأسه. يجعله السكْرُ دائمًا يشعر بطبول تدقّ في رأسه. وكان يحبّ ذلك كثيرًا. يعدّ كولمان واحدًا من أولئك الرجال الذين يُمْسون أكثر وضوحًا، على الأقلّ أمام أنفسهم، عندما يسكرون.

قال لنفسه: «هذا غير منطقي بتاتًا». لا يمكنني قول كلّ هذه الحماقات لامرأة مسنّة. ربّما كلّ هذا لا يهمّ، هناك احتمال كبير ألّا تكون إيديت مور هناك أصلاً أو ربّما كانت تعاني من خرف الشيخوخة أو الزهايمر أو أيّ مرض آخر. نعم، هناك احتمال كبير ألا تكون في أفضل حالاتها. ولكن لا بدّ من أن يكون لديها عدّة صور فوتوغرافية. صورة واحدة تكفي، صورة واحدة لجوزفين مور.

التلفاز اليوم

تستيقظ إيديت مور صباح كلّ يوم على الساعة السادسة. وإن حالفها الحظّ فقد تخلد إلى النوم بين الساعة الثانية والسادسة صباحًا. تنام معظم الليل نومًا متقطّعًا، نوم شخص مصاب بالأرق لا يمكنه حتّى وهو نائم أن يثق تمامًا في أنّه نائم بالفعل. كلّما تقدّمتَ في السنّ أمسى قضاء ليلة نومٍ جيّدة أمرًا أكثر صعوبة. تتخيّل نفسها تمشي في غابات طفولتها بالقرب من منزلها القديم، وتستمع للأصوات المجلجلة لرجال أقوياء بالقرب من الحوض المعدني الذي كانت تفرك فيه ظهور أعمامها، بالقرب من تلك السلسلة الطويلة من الأحذية والجزَم التي تمتدّ على طول الصالة في منزل طفولتها. تعود هذه الأيام سواء في يقظتها أو في منامها إلى ذلك البيت. لا يزال ماضيها حيًّا، وحاضرها مملاًّ للغاية.

في تمام الساعة السادسة من صباح اليوم أشرق ضوء النهار أخيرًا. شاهدته إيديت يدخل لبعض الوقت. نهضت من السرير يملؤها شعور بالامتنان. إنّه يوم حياة جديد لهذا الجسد العجوز المُنْهَك. هناك حياة

بالفعل خارج منزلها الصغير، كانت تستمع لهذه الأصوات؛ صوت صبيّ توزيع الصحف، وشاحنة الحليب. ستأتي المراقِبة في غضون ساعات قليلة لتقوم بجولاتها ولتتأكّد من أنّهم لا يزالون جميعًا على قيد الحياة!

أدارت ساقيها باتّجاه الأرض قبل أن تثق في أنّ قدميها قادرتان على حمل وزنها، وارتدت ثوب نومها القطني. مشت إلى حمّامها وغسلت وجهها بالماء البارد المتجمّد. عندما كانت صغيرة لم تحظَ مطلقًا بالماء الساخن، ولا تزال تعتبر غسل وجهها بالماء الساخن رفاهية حقًا. تكره إيديت مور التبذير، لطالما اعتادت الحياة الشاقّة، فلن تسمح للحياة أن تمرّ بسهولة عليها. كانت تعيش على معاشها ولم تقترب قطّ من مدّخراتها. لم تكن تحتاج إلى المال، ولكنّها كانت قلقة بخصوص فواتيرها، وخاصّة فواتير الغاز والكهرباء. تشعر بالقلق من نظام تسخين المياه الذي يعمل في هذا المنزل. لم تجد مطلقًا المفتاح الذي يشغّل المياه الساخنة، ولكنّها عندما تغسل الأطباق أو تستحمّ تجد مياهًا ساخنة. وعندما تغسل بيديها سراويلها أو قميصها أو حمّالة صدرها أو منامتها، فإنّها تجد المزيد من المياه الساخنة. سألت مراقبتها عن المياه الساخنة، فقالت إنّها متوفّرة دائمًا بفضل هذا النظام. تساءلت إيديت: «ولكن أين هو الخزان ومفتاح التشغيل؟» فأجابت المراقبة الضخمة الجثّة: «لا تشغلي رأسك الجميل بهذا!» انزعجت إيديت كثيرًا، فغالبا ما راق للمراقبة أن توجّه إليها الكثير من الانتقادات دون أدنى خجل أو حياء. كانت تلك المراقبة السمينة خاملة إلى درجة تجعلها غير قادرة على تكبّد عناء اكتشاف ما تحتاج إيديت إلى

معرفته. فهي دائما على عجلة من أمرها للعودة إلى أطباق النودلز الضخمة التي شاهدتها إيديت تتناولها سرًّا. تفضّل إيديت الطعام العادي؛ لحم الخنزير المسلوق، والدجاج البارد، وشريحة من اللسان، والخضار، ووعاء من النخالة، وموزة لذيذة. هناك الكثير من الأطعمة التي تتجنّبها تمامًا اليوم. فقد أصبحت في السابعة والثمانين من عمرها. ليست مغرمة كثيرا بتناول السمك. فطعم السمك ورائحته يعْلقان بها لفترة طويلة. ذات مرّة أكلت بضع قطع من السمك، فظلّت رائحتها عالقة بها. نسيت الكثير من أنواع الطعام، ولكنّ الأسماك لا تزال وجبة لا تنسى. يا لتلك الرائحة الكريهة. لن تأكل سمكًا مرّة أخرى. كانت تكره الأطعمة التي تتكرّر باستمرار، تمامًا مثلما تكره النّاس الذين يكرّرون أنفسهم أو الذين تعتاد عليهم. انتابها شعور غريب بأنّها ربّما تكرّر نفسها، ولكنّها ليست متأكّدة تمامًا إذا ما قالت شيئًا مّا من قبل أم لم تقله. كلّما واتتها فرصة للحديث، ولو مع المراقبة، تلاحظ إيديت أنّها لا تتمكّن من التوقّف عن الكلام، ثمّ لا تمتلك فيما بعد أدنى فكرة عمّا قالته. ولكن ذلك الشعور الحزين في كلماتها يلازمها ويمكنها الشعور به إذا ما حرّكت لسانها إلى سقف فمها. البصل المخلّل، الشمندر المخلّل، الخيار المخلّل، البصل، والبصل الأخضر، الجبنة الزرقاء، أيّ طعام بالكاري، وأيّ طعام حارّ بالبهارات؛ كانت تتجنّب كلّ هذه الأطعمة، كلّ الأطعمة التي تكرّر نفسها.

في آخر مرّة رأت فيها إيديت ابنتها جوزفين أحضرت معها وجبة كاري جاهزة. لم تتذوّق إيديت وجبة بالكاري من قبل. لديها العديد من الرسائل في حوزتها من ابنتها، لا تزال سليمة في حقيبة قديمة تحت

سريرها. لا تزال تمثّل هذه الرسائل الصورة الحيّة لخطّ ابنتها المتعرّج. لم تصلها أيّ رسالة من ابنتها منذ أكثر من أربعة أشهر حتّى اليوم، لذلك تخشى أسوأ الاحتمالات. لديها شيء واحد لتقوله لجوزفين: «لمْ تتوقّفي عن إرسال الشيكات في كلّ أسبوع. كلّ أسبوع، على مدى السنوات الثلاثين الماضية». رصّت الرسائل في الجيب المطّاطي للحقيبة الذي كان يستخدم عادة للحفاظ على الملابس سليمة دون أن تتجعّد أثناء الرحلات، لتبقيها في أمان.

كانت الوجبة عبارة عن دجاج مطبوخ بالكاري. أكّدت لها جوزفين أنّ نكهة الكاري «خفيفة»، ما أعطاها انطباعًا خاطئًا تمامًا. كيف يمكن لنكهة الكاري أن تكون خفيفة؟ لطالما كانت الأطعمة المطبوخة بالكاري أطعمة قويّة حارّة للثرثرة والاستعراض، وتصلح خصوصا لأشخاص في غاية الجرأة. كان الدجاج مغطّى بصلصة التوابل الصفراء التي لا تتوافق مع معدتها.

تتذكّر إيديت ذلك اللون الأصفر اللامع الغريب للصلصة، والخبز الغريب المنتفخ الدسم الذي يأتي مع الوجبة، خبزًا مبالغًا فيه أطلق عليه اسم الجدة. ماذا كان اسمه؟ هل كنت تتوقّعين تمزيق قطع صغيرة من هذا الخبز العملاق وتغميسه في تلك الصلصة الصفراء التي يعوم فيها الدجاج. جلست جوزفين هناك على ذلك الكرسي، تقوم بنفس الشيء تمامًا، تغمّس ثمّ تلعق أصابعها، متباهية. في أيّ بيت كانوا يعيشون حينها؟ 20 شارع أبيردوير؟ 26 جراهام رود؟ 35 لاكور رود؟ 18 دنكان درايف؟

كانت تغمس قطع الدجاج الضخمة التي سمّيت على اسم جدّ مّا، لا أذكر اسمه بالضبط. لم يعد بإمكان إيديت أن تتذكّر الأسماء مطلقًا. كانت تذكر أغنية الأطفال: «بوب جوس ذا ويسل» Pop goes the weasel. كلما كثّفت المحاولة انكشف لها المزيد. في تلك الليلة التي جلبت فيها جوزفين وجبة الدجاج بالكاري الجاهزة، كانت ترتدي بذلة رجاليّة. لا تزال إيديت تتساءل عن هذا الموضوع. لماذا جلبت لها وجبة الكاري، وهي ترتدي بذلة رجاليّة؟ ولماذا جلبت لها وجبة الكاري، رغم علمها بأنّها لا تحبّ الأطعمة الأجنبية؟

هناك الكثير من الكلمات القديمة التي لا يمكنها تذكّرها، والكثير من العبارات القديمة التي لا تستطيع استخدامها، والكثير من الذكريات القديمة التي تتلاشى بعيدًا عنها، كأنّ كلّ يوم يتقلّص قياسًا إلى اليوم الذي سبقه. تخيّلت نفسها على الجانب الآخر من الشاطئ تلوّح لتلك الفتاة الصغيرة التي كانت عليها يومًا مّا، حين كانت هناك تسير في مياه البحر رافعةً تنورتها بحذرٍ شديد.

أمست بعض الذكريات أكثر وضوحًا مع مرور الوقت. صدمتها بعضها حين طافت بالقرب منها، مثل الكنز العظيم غير المتوقّع الذي يأتي به المدّ البحريّ إلى ضفّة الشاطئ. عندما كانت تلك الذكريات تعود إلى منزل إيديت، تُعاودها في الثالثة بعد الظهر عند جلوسها لتناول كأس شاي. اعتادت أن تغمس حينها كعكة الزنجبيل في الشاي لتجعلها أكثر هشاشة على لثّتها. وعندما تسلّلت هذه الذكريات عبر الباب الخلفي صُدمت إيديت صدمة كبيرة، ولا تزال تعاني من أثر هذه الصدمة،

ولكنّها كانت سعيدة. تشبه الذكريات القديمة الأقارب القدامى. أمسكت قطع عرق السوس، دفعتها بشغف إلى فمها، وانطلقت نافورة الجرعات.

قضّت إيديت مور الكثير من وقتها تتذكّر زوجها جون مور. كان يظهر في بعض الأحيان في ذهنها، ويتجسّد أمامها تمامًا. تحاول في أحيان أخرى أن تمسك به. كان جون مور يختلف عن أيّ رجل عرفته إيديت من قبل. بشرته داكنة للغاية، وعيناه أكثر عينين غامقتين داكنتين رأتهما في حياتها. كانت ترى عيني جون مور في عيني ابنتها الصغيرة. مات جون مور منذ زمن طويل للغاية. لقد مرّ عمر بأكمله، عمر طويل لم يعد بإمكانها أن تتذكّره. لا تتذكّر سوى وجوده هناك، بالقرب من الموقد مبتسمًا مرتديًا بذلته الرمادية.

جاءت مساعدة جديدة إلى الدار. كانت كاثي فتاة لطيفة، ولكنّها تطرح الكثير من الأسئلة. أمسكت صورة جون مور وقالت: «يا إلهي! ياله من شخص وسيم للغاية! من يكون؟» وعندما أجابتها إيديت: «كان هذا زوجي»، أصيبت كاثي بذهول شديد. نعم، لا بدّ من أنّها حاولت إخفاء صدمتها، ولكن إيديت أدركت ذلك تمامًا. صُدمت من هذه المرأة العجوز الطاعنة في السنّ، كانت على وشك أن تسألها: «لا، هل تزوّجت رجلاً أسود؟» كانت الصدمة واضحة للعيان على وجهها وملامحها.

شاهدتها إيديت سارحة تفكّر في الكثير من الأشياء. شاهدتها تمسح الغبار عن آنية إيديت الصينيّة، مستغرقة في التفكير. كانت مُتزلّفة، ولكن ليس بالقدر الكافي بالنسبة إلى إيديت. فقد كانت

إيديت حادّة كمسمار. ربّما لم تكن «صاحية تمامًا»، ولكنّها لا تزال فطنة وحادّة كمسمار في أشياء معيّنة. لم تكن تسترجع الكثير من الذكريات. ظلّت صورة جون مور ولفترة طويلة محفوظة هناك في الخزانة، ولكنّها افتقدته. افتقدت وجوده في الغرفة وفي بذلته الرماديّة. لا يتعلّق الموضوع بالبذلة فقط. (لا يزال بإمكانها رؤية تلك البذلة، كانت بذلة داكنة من الكتّان مع طيّات واسعة للسترة، بذلة أنيقة للغاية، لا شكّ في ذلك. كانت بذلة غالية للغاية). يتعلّق الموضوع بربطة العنق، ربطة عنق حريريّة مصبوغة يدويًّا. كانت تبدو مشجّرَة تقريبًا، ألوانها زهريّة وزرقاء عجيبة. الآن، لماذا ذهبت وارتدت هذه الملابس وما الذي كانت تقوله لها؟ لا يمكن لإيديت أن تتذكّر ولو كلمة واحدة. كانت ذكرى صامتة، كفيلم صامت. وقد كانت جوزفين هناك تتناول وجبة الكاري بعد أن طوت أكمام قميصها ولفّت ربطة العنق على كتفها كيلا تتلطّخ بتلك الصلصة الصفراء البرّاقة.

كانت ابنتها تتحرّك في تلك الذكرى بطريقة متشنّجة وغير متّسقة، مثلما كان الممثلون يتحرّكون في الأفلام الصامتة القديمة. كانت ذراعاها كبيرتين ومرفقاها نحيلين بالنسبة إلى جسدها، حسبما يبدو. وعيناها تتحرّكان بسرعة كبيرة. كانت سترة البذلة موضوعة على ظهر الكرسي الخشبي.

قالت إيديت لنفسها، لا أحد يمكنه أن يقدّر متى تأتي تلك اللحظة. عندما تكونين أمًّا، فلن تعرفي اللحظة التي سيتركك فيها طفلك ليذهب ليقوم بأيّ شيء غريب بأتمّ معنى الكلمة ليصبح في

عداد المفقودين. كانت جوزفين كلّ ما لديها. لم تكتب جوزفين أيّ رسالة منذ وقت طويل، ولم ترسل تلك الأموال الأسبوعيّة التي ظلّت ترسلها إليها دائمًا، تلك الأموال التي لم تتمكّن إيديت من إنفاقها، ولكنّها كانت تحتفظ بها مع مدّخراتها لوقت الحاجة.

ربّما سافرت إلى الخارج لفترة قصيرة أو ربّما هي مشغولة جدًّا. لماذا لم تأتِ لزيارتها كما اعتادت أن تفعل؟ لا أحد يعرفها، مثلما كانت جوزفين تعرفها. وإذا لم يكن هناك أحد يعرفك، فهل يمكن أن تكون نفسك حقًّا؟ يمكن لإيديت أن تكون شخصًا مختلفًا في كلّ يوم. وعلى الأرجح لن يلاحظ أحد ذلك، حتّى طبيبها لن يلاحظ شيئًا. فهو يرى العديد من النساء المسنّات المتذمّرات، وربّما يخلط بينهنّ جميعًا. كان على إيديت رؤية الدكتور فيرجسون، صباح اليوم التالي، ليُعاين آلام الذبحة الصدريّة التي تعاني منها. قال لها الطبيب: «حسناً سيّدة مور، أنت لم تعودي صغيرة في السنّ بعد اليوم». قالت إيديت: «نعم لم أعد صغيرة في السنّ يا دكتور».

فتحت إيديت جريدتها لترى ما الذي يعرض على التلفاز اليوم. صار التلفاز صديقها الصدوق اليوم أكثر من أيّ شخص آخر. اليوم يوم جيّد في التلفاز لأنّهم كانوا يبثّون مباراة للعبة سنوكر، وكانت إيديت تعشق مشاهدة لعبة السنوكر. وفي الساعة الثامنة والنصف سيُعرض على قناة بي بي سي 2 فيلم رومانسي تاريخي. تستمتع إيديت كثيرًا بمشاهدة الممثلين في هذه الأفلام وهم يرتدون تلك الملابس وكلّ تلك الأزياء المبهرجة لتلك الأيّام.

البيوت من الداخل

كانت ساعة كولمان مودي الرقميّة تشير إلى الساعة 9:27. استيقظ وأخذ يترنّح متّجهًا إلى الحمّام. انهمرت المياه عليه من دشّ الحمام، وهطلت عليه بقوّة لتوقظه. ماذا لو كان دشّ حمّامه يعمل هكذا؟ من المؤكّد أنّه سيكون في منتهى السعادة. لا بدّ من أن يكون واعيًا اليوم، ومستيقظاً تمامًا، ومسؤولاً عن نفسه. أخذ يصفّر في الحمام.

أصبحت الساعة 10:47. كان في غاية التوتّر وهو يستعدّ للخروج. لم يتمكّن من تناول المزيد من بوفيه الإفطار الكبير في الطابق السفلي أو التفكير في شيء آخر غير العنوان. كان يرتدي سروالاً نظيفًا وقميصًا قطنيًّا. قال كولمان مخاطبًا نفسه بصوت عالٍ: «12 لارتشيز، 12 لارتشيز».

الساعة الآن 11:18. هناك صفّ من البيوت ذات الطابق الواحد في محيط المكان مع أجمة من أشجار الصنوبر في الوسط. ارتفعت بعض الستائر من المنازل المحيطة، وظهر في كلّ منها وجه من تلك الوجوه المرتابة. لم يكن هناك أيّ وجه وراء ستائر الدانتيل للمنزل رقم 12.

ربّما ليست في المنزل، اللعنة. كان من المفترض أن يصل إلى المنزل مبكّرًا. اللعنة على الميني بار. ربّما كان سيكون على ما يرام لو لم يكن ذلك البرّاد القزم المشؤوم بانتظاره في الغرفة عندما عاد، فاتحًا بابه الصغير وعارضًا نفسه عليه.

طرق الباب بحذر، ثمّ دفعه بقوّة أكبر. لم يكن يستخدم كلمة «غلام» عندما يتحدّث بازدراء عن أيّ شخص، ولكنّه يصبح يومًا بعد يوم أشبه بوالده. يا إلهي، إنه يتحوّل إلى شخص شبيه بوالده بالفعل. كان والده في كثير من الأحيان يقول: «من هذا الغلام على الباب؟». من أين أتى بهذه الكلمة؟ هل يعود ذلك إلى أنّ الرجال فقط من يطرقون الأبواب على الآخرين؟ دفع الباب مجدّدًا وأخذ يمعن النظر بالقرب من صندوق البريد. ربّما كانت ميتة مستلقية على الأرضيّة. لم يرد أحد، طرق الباب بقوّة أكبر. ربّما تكون صمّاء، كم عمر تلك المرأة الثرثارة؟ إنّها في السابعة والثمانين؟ ربّما كانت في الثامنة والثمانين من عمرها، أليس كذلك؟ ربّما وصلت إلى هذا العمر على الأقلّ. لا يزال الباب الأزرق للمنزل رقم 12 مغلقًا. حاول كولمان تخيّل الباب يُفتح وتظهر امرأة من ورائه، تنظر إليه من الأعلى إلى الأسفل كأنّه على وشك أن يسرقها، أو يهاجمها، أو يقتلها ويقفل عليها في خزانتها لعدّة أيام، أو يربطها إلى كرسيّها لينقضّ على صندوق مدّخراتها الذي تخبّئه تحت سريرها، ويسحب فراشها وينثر مدّخراتها فوقه.

تعجّ نشرات الأخبار بأشخاص يبدون مثل كولمان بالضبط. زعم بعض كبار ضبّاط الشرطة الأوغاد مؤخّرًا أنّ الرجال السود

كانوا أكثر نزوعا إلى القيام بالسطو المسلّح من الرجال البيض. هناك احتمال كبير أن تكون إيديت مور في مكان مّا في هذا البيت الصغير تتجسّس عليه، مرعوبة من أنّه ربّما جاء ليسطو عليها. لذلك قال شيئًا مّا بصوتٍ عالٍ لعلّها تكون هناك، بالقرب من صندوق البريد: «سيدة مور؟ سيدة مور، أعرف ابنتك. سيدة مور، سيدة مور، هل أنت في البيت؟» كان كولمان على وشك أن يبكي. ربّما كان ذلك من تأثير بقايا الكحول، ولكنّه ظلّ يصرخ وصوته مكسور تقريبًا: «لن أسبّب لك أيّ أذى».

فُتحت الستائر في المنازل المجاورة في شارع لارتشيز الآن. أطلّت السيدة تويدي قليلاً من حديقتها الأماميّة، السيّد هاريسون على باب بيته، والسيّدة سكوت على نافذة منزلها. وقفت كلّ من السيّدة سافيور والسيّدة إينيس تتفرّجان. كان بقيّة النّاس هناك معتلّين، ولم يتمكّنوا من الوصول إلى نوافذهم بسهولة، ولكنّهم كانوا يستمعون. السيّدة ميسون، المراقبة، في طريقها لمعرفة من هو الشابّ الذي يطرق باب إيديت مور. من النادر أن يحضر أيّ شخص لم يره أحد من قبل مطلقًا إلى شارع لارتشيز. يعلم الجميع أنّ ابنة السيّد هاريسون تأتي مرّتين في الأسبوع. وبنات السيّدة سينكلير يأتينَ وراء بعضهن البعض. أمّا السيّدة تويدي فلم يكن لديها أحد. والسيّدة إينيس لديها صديقتان تزورانها أحيانًا، والسيدة سافيور يزورها كلّ من الكاهن والطبيب بانتظام. أمّا هذا الشاب فلم يره أحد من قبل.

سألت السيدة ميسون: «هل يمكنني مساعدتك؟».

- «أبحث عن السيّدة مور. هذا منزلها، أليس كذلك؟»

- «نعم، السيّدة مور تعيش هنا. ولكنّها ليست في المنزل على الأرجح. إنّها تخرج أكثر من أيّ شخص آخر هنا. تخرج لتستلم رسائلها. تحبّ أن تستلم رسائلها طازجة كلّ بضعة أيّام».

تساءل كولمان حول الطريقة التي سيثبت فيها هويّته. كانت الأخبار تطنّ في رأسه. ربّما كانوا يعتقدون أنّه مجرم. وإلا لماذا كانوا جميعهم يحدّقون في وجهه؟ قالت السيّدة ميسون: «إنّها الوحيدة هنا التي لا تزال تخرج لتشتري أغراضها من البقالة». لن يعني اسم كولمان مودي أيّ شيء لهم. لذلك قال: «لا تقلقي، سأحاول مرّة أخرى.»

- «عزيزي، يا عزيزي، يبدو من لهجتك أنّك قد جئت من مكان بعيد، أليس كذلك؟» قال كولمان: «من لندن». كانت المراقبة على وشك أن تدعو كولمان لتناول كوب من الشاي في بيتها بينما هو ينتظر لأنّ إيديت لا تقضّي وقتًا طويلاً خارج المنزل.

- «لماذا لا تذهب إلى تلك المحلّات التجاريّة لتبحث عنها. فإذا ذهبت يمينًا ستجد في أوّل الشارع...».

قال كولمان: «لا أعرفها شخصيًّا، لا أعرف كيف تبدو؟»، قبل أن يتمكّن من لجم نفسه ويسكت.

سألت السيدة سافيور «ماذا قال؟».

قال السيّد هاريسون الذي كان سمعه جيّداً تماماً: «قال إنه لا يعرف شكلها. لا يعرف كيف تبدو».

كلّما تقدّمت إيديت مور في السنّ، شكّت في أنّ الآخرين يريدون التطفّل والتدخّل في أمور تعدّها من صميم حياتها الخاصّة. كلّما تقدّمت في السنّ تيقّنت أكثر من أنّ جميع النّاس في لارتشيز يريدون أن يقضّوا وقتهم يشربون من شاي إيديت، ويأكلون من كيك إيديت الخفيف، وينقّبون في ماضي إيديت. يمكن لكبار السنّ في شارع لارتشيز أن يستولوا على حياتك. لم يدعُها أيّ منهم مرّة إلى بيته. كلّ ما يريدونه فعلاً أن يأتوا إلى بيتها ليقضّوا ساعات طويلة من فترات بعض الظهر يومًا بعد يوم على حساب وقتها. تعدّ حالتها الصحيّة جيّدة مقارنة بالكثير من المسنّين الآخرين عديمي الفائدة، بصرف النظر عن آلام الذبحة الصدريّة التي تعاني منها.

أخبرها أحد أطبّاء المستشفى مؤخرًا بأنّ قلبها ورئتيها من أكثر الأعضاء التي رآها في حياته شبابًا بالنسبة إلى أشخاص في مثل سنّها. قال لها مغتبطًا: «هذا رائع، يالها من أعضاء مثاليّة». شعرت إيديت بفخر كبير، لا يزال بإمكانها أن تمشي. كانت ترتجف قليلاً عندما تمشي على ساقيها العجوزين، ولكنّها قادرة على الذهاب والعودة إلى ذلك الصفّ من المحلّات التجاريّة على الشارع الرئيسي.

خرجت صباح اليوم من منزلها للتسوّق. اشترت نصف لتر من الحليب المنزوع الدسم جزئيًّا، وأربعة أونصات من جبن الإيدام، وثلاث شرائح من لحم اللسان، وحبّة لفت صغيرة، وصحيفة ديلي ريكورد، وبعض الخبز من الخبّاز. تكره إيديت محلات السوبر ماركت. كانت راضية لفترة وجيزة بالتعامل مع محلّات «بيغ شوب Big Shop»،

إذ يستأجرون حافلة صغيرة مرّة كلّ أسبوعين ويذهبون جميعًا إلى محلّات (سيف وويز- Safeways).

ياله من وقت عصيب للغاية بالنسبة إليها. لم تكن إيديت قادرة على استحضار كلّ ما كانت تريد اقتناءه، ما لم تخبرها جيسي إينيس ما الذي عليها أن تجرّبه وما الذي يعدّ صفقة جيّدة. كانت تُلقي في عربة تسوّق إيديت أشياء كثيرة لا تحتاج إليها مطلقًا. وفي النهاية تتفحّص كلّ منهم عربة تسوّق الأخرى عند صندوق الاستخلاص. يتّبع السيّد هاريسون نظامًا غذائيًّا في غاية السوء. لا وجود للخضار أو الفاكهة الطازجة. ولهذا لا غرابة في أن تكون السيّدة تويدي سمينة، فقد كانت الكميّة التي تستهلكها من الكيك والبسكويت والكعكات والفطائر لمدّة أسبوعين تفوق الخيال.

لم تكن السيدة تويدي تستقبل الكثير من الزوّار. وعندما يتوقّف التمويل وتتوقّف الحافلة الصغيرة عن الذهاب إلى Safeways، كانت إيديت تشعر براحة كبيرة للغاية. أمّا بقيّة المسنّين فكانوا محطّمين. تتمتع إيديت مور باقتناء ما يكفيها فقط، ولم تكن تشتري الكثير بالفعل. كانت نحيلة على الدوام، وتتمتّع بلياقة بدنيّة عالية ونشاط كبير. وكانت شديدة النفور من الأشخاص الذين يعانون من زيادة الوزن. لطالما كانت تقول لهم: «ماذا، هل تريدون لحوم البقر؟» لا حاجة إلى ذلك مطلقًا.

كان أوّل شخص رأته إيديت عند بلوغها زاوية شارع لارتشيز السيّدة تويدي بجسمها الضخم. ما الذي يفعله الجميع في الخارج،

بينما يبدو أنّ المطر سينهمر في أي لحظة؟ ثمّ رأت إيديت ذلك الشابّ الأسمر الطويل القامة الذي يبدو مألوفًا على نحو غريب. اقتربت منها السيّدة ميسون: «ها أنت سيّدة مور، لقد كنّا نبحث عنك. لديك زائر هنا». لم يتخيّل كولمان أن يلتقي بها بهذه الطريقة، ولم يتصوّر وجود كلّ هؤلاء الأشخاص. لقد تخيَّلَها وراء الباب تردُّ عليه أوّلاً، ثمّ تفتح الباب بخوف وببطء حذر شديدين. كان كولمان على وشك أن يلوذ بالفرار بأقصى سرعته. لماذا لا يسمح لهؤلاء المسنّين برؤيته يركض؟ لماذا لا يعجبون بسرعته القصوى وبساقيه الضخمتين تحلّقان بجانب منازلهم الصغيرة، مثل شخص يمرّ أمامهم في دورة الألعاب الأولمبية، ليقفوا لمشاهدته ينطلق ويعلّقوا بأنّهم لم يروا شيئًا مثل هذا من قبل، ليقولوا إنّه يشبه لينفورد كريستي أو سيباستيان كو أو أيّ عدّاء شهير آتٍ من الماضي أو بعض الرياضيّين العظماء ممّن صنعوا التاريخ بالطريقة التي يتخيّل فيها كولمان أنّه قادر فعلا في هذه اللحظة بالذات على صنع التاريخ. ولكنّه كان متسمّرًا في مكانه، يبحث عن أيّ شيء في وجه إيديت مور الوقور، الفخور، والحذر قليلاً قد يذكّره بوالده.

تزايد هطول المطر في تلك اللحظات. كان دفقًا غزيرًا من الأمطار يهطل على بيوت شارع لارتشيز وعلى حجارة الرصيف الأنيقة، وعلى الحدائق الصغيرة المعتنى بها للغاية، وعلى أجمة أشجار السيّدة إينيس وورود السيّد هاريسون. قطرات دائريّة ضخمة من الأمطار، مثل دموع عملاقة. شعر جميع قاطني شارع لارتشيز بالبرد، يمكن للبرد في هذه السنّ أن يقتلك بالفعل. هذا كلّ ما يتطلّبه الأمر، يمكنك أن

تشهق شهقة واحدة فقط لينتهي الأمر. لذلك أخذوا يدخلون بخطى بطيئة وعلى مضض إلى منازلهم. قالت إيديت لكولمان: «تفضّل من هنا يا بني».

تدرك إيديت مور جيّدًا أنّ هؤلاء المسنّين المزعجين يتلصّصون عليهما الآن من نوافذهم. منذ سنين لم يحدث أيّ أمر في حياة إيديت مور يدفع هؤلاء النّاس إلى الاهتمام بها. كانت مستمتعة حقّا. وكان هذا اكتشافًا مذهلاً بالنسبة إليها؛ العيون الثرثارة الحارقة للسيّدة سافيور، والفضول الهائل للسيّد هاريسون، وهو يتظاهر بأنّه يسقي نباتاته، والغيرة الحادّة للمراقبة السمينة التي لا تزال تقف خارجًا تحت المطر، لتتأكّد فقط. لا شيء من كلّ هذا قد يجعل إيديت مور تهرب. لِمَ لا؟ لطالما كانوا يتفرّجون على شيء مّا، أولئك المسنّون المزعجون، فلمَ لا تمنحهم شيئًا ليشاهدوه. سيجلسون عند نوافذهم حتّى يرونه يغادر منزلها. على الأقلّ أولئك الذين كانوا يتباهون خلال فصل الشتاء، بزيارة أبنائهم وبناتهم الطيّبين ليجرفوا لهم الثلج من أمام بيوتهم، وينظرون بعجرفة إلى الممرّ الثلجي لبيت إيديت.

هكذا حصلت إيديت في النهاية على فرصة للانتقام. يا لذلك العار الذي كانت تعاني منه في فصل الشتاء. كلّ الممرّات الأخرى كان تُنظّف إلّا ممرّ بيتها، وحتّى ممرّ البيت الملاصق لبيتها كان يُنظّف ممّا يتراكم أمامه من ثلج، رغم أنّ جارتها لم تخط خطوة واحدة خارج البيت منذ وفاة زوجها في الصيف الماضي. كانت اثنتان من بناتها تأتيان دائمًا إلى البيت لتقوما بكلّ شؤونه. ربّما كانت إحدى الفتاتين

ستحمل المجرفة وتنظّف ممرّ بيت إيديت لو علمت بأن ليس لديها أحد في العالم.

صرخت إيديت مور في وجه كولمان: «من أنت؟» أصبحت الآن أمام باب بيتها بالضبط. «من أنت؟» قال كولمان: «أنا أعرف ابنتك». صرخت إيديت: «من؟ هيا تحدّث يا بني». قال كولمان مغيّرًا وضع قدميه بطريقة غير مريحة: «لقد عرفت جوزفين مور».

- «هل أنت صديق جوزفين؟».

قال كولمان بحرج: «يمكنك أن تقولي هذا». قالت إيديت: «ماذا قلت؟ هل أنت صديق لجوزفين؟» قال كولمان: «نعم، نعم أنا صديق جوزفين».

قالت إيديت: «إذن»، وهي تبحث في حقيبة يدها عن مفاتيحها. فعلى الرغم من أنّها تضعها في سلسلة، فإنّ المفاتيح لا تزال تجد أماكن تختبئ فيها في حقيبة يدها السوداء الكبيرة. صرخت إيديت في أذن كولمان: «حسنا، أيّ صديق لجوزفين يعدّ صديقًا لي. آه، لقد وجدت المفاتيح». وأخذت تركّز على فتح الباب. فتحت قفل «تشب» أوّلاً، ثمّ قفل «يال». قالت للفتى: «قد يعلق قفل «يال» هذا في بعض الأحيان. وأحيانًا يصير سيّئًا ومريعًا. عليك الانتظار قليلاً حتّى أتمكّن من التركيز». دفعت إيديت بابها لتفتحه، وقالت بزهو: «ها قد فُتح الباب، تفضَّل بالدخول، تفضَّل بالدخول!» دائمًا ما كانت إيديت تعيد الكلام ثلاث مرّات على الأقل. كان كولمان يشعر بشعور غريب، كأنّ قلبه يرفرف، ما جعل أضلاعه ترتفع وتنخفض، كما أحسّ بجفاف في فمه

وفي شفتيه، وكانت يداه ترتجفان، وعيناه تختلجان، بل وحتّى حاجبه السخيف أخذ يرتفع إلى الأعلى.

- «لم أرَ جوزفين لسنوات، هل تصدّق هذا؟ لسنوات! هل هي بخير؟».

لم يعرف كولمان ما الذي سيقوله: «هذه قصّة طويلة نوعًا مّا».

قاطعته إيديت. لم ترغب في أن تسمع الكثير. لم يأتِ الوقت المناسب بعد. ليس بعد. أوه، أرجوك يا إلهي لم يأتِ الوقت المناسب بعد. «بإمكانك أن تخبرني بكلّ شيء عن نفسك وأنت تشرب كوبًا من الشاي الساخن. لست أنا من يترك زوّاره يشعرون بالعطش. هناك الكثير منهم هناك»، وأشارت إلى شارع لارتشيز «أولئك الذين لا يقدّمون شيئاً لزوّارهم، أمّا أنا فلا».

هي في المطبخ حاليًّا. فتحت الصنبور وملأت الغلّاية. كانت أقلّ ضجّة تُحدثها في البيت تجعله يقفز من مكانه. يا إلهي، كم يتمنّى لو لم يكن يعاني من آثار الكحول. ما الذي يحدث؟ ما الذي ورّط نفسه فيه؟ هل هي مجنونة أم ماذا؟ يمكنه سماع الكثير من الضجيج المستمرّ وفتح وإغلاق الأبواب وفتح العلب. لقد أمضت وقتًا طويلاً في المطبخ.

من المثير جدًّا أن تحظى بضيفٍ غير متوقّع لتقوم إيديت مور بكلّ ما في وسعها لتغتنم هذه الفرصة. ألقت نظرة على ساعة المطبخ، إنّه وقت الغداء. لماذا لا تُعدُّ لهذا الشابّ إحدى شطائر اللحم الرائعة، لاسيما أنّها قد اقتنت كلّ مستلزماتها هذا الصباح من المحلّات التجاريّة؟ لماذا لا

تعطيه قطعة من كيكتها الخفيفة ليتناولها، وحبّة عنب أو اثنتين، والقليل من الجبن على الخبز المحمّص؟ لا بدّ من أن تسرع في ما تفعل وإلا سيذهب. هذا ما يفعله الشباب هذه الأيام. لا يستطيعون الجلوس لمدّة دقيقة واحدة. كلّ ما يفعلونه هو أن يستيقظوا ويذهبوا. لم ينتظر السبّاك الشابّ في ذلك اليوم ليشرب كوب الشاي، ولا ذلك الشاب اللطيف الذي جاء لتجديد الأسلاك الكهربائيّة. كلّهم يفتقرون دائمًا إلى الصبر. لاحظت إيديت ذلك، فكلّما جاءها شخص ليقوم بشيء مّا، ليصلح عطبًا أو ليُعلّق شيئًا مّا، أو ليقرأ عدّاد الغاز، إلّا وبدا في عجلة من أمره، أكثر من اللزوم.

لا أحد لديه الوقت لشرب فنجان من الشاي. كانت تأمل أن يُعجب الشاب الذي يعرف جوزفين بالكلاب الخزفيّة، والمزهريّات الصينية، وخزانتها المصنوعة من خشب الماهوجاني. لقد اشترت بعض القطع الرائعة. لم يحصل شيء لجوزفين. لا، جوزفين تتمتّع بصحّة جيّدة. وحتّى إن بلغت السبعين من عمرها اليوم، هي لا تزال فتاة إيديت الصغيرة الحبيبة. لم تفقد إيديت الأمل في ابنتها خلال كلّ تلك السنوات. ففي يوم مّا، وفجأة دون أيّ توقع، ستفتح إيديت بابها لتجد جوزفين واقفة على عتبة الباب.

نظر كولمان إلى ساعته. كانت تشير إلى الساعة الثانية عشرة. لم يكن جائعًا. لم يكن في حالة تسمح له بتناول الطعام في مثل هذا الوقت. حاول التفكير في ما سيقوله. لماذا لم يحفظ ما ينبغي أن يقوله عن ظهر قلب؟ يعرف أنّه مهما كان ما سيقوله، فسيفسد كلّ شيء، وهذا طبيعي.

ما الذي تفعله؟ تمنّى ألّا تكون قد بدأت بخبز شيء مّا. يا إلهي، تمنّى ألّا تكون بصدد خبز كعكة كبيرة مزيّنة. تبدو من طينة النساء المسنّات اللواتي يرغبن في تسمين رجل مثله. ما الذي سيقوله؟ صرخت إيديت من المطبخ: «أقوم فقط بتفريغ رسائلي يا بني، سأكون معك خلال لحظة».

الأناقة

لطالما كان التسوّق أحد أنشطتي المفضّلة، ولطالما أحببت أن أطلق عليه اسم «الهواية الهمجيّة». يمكن أن تراني في غرف تبديل الملابس لمحلّات الملابس الراقية أضع ريشًا حول فمي ودمًا على وجهي. التسوّق عبارة عن رياضة دمويّة. «هيّا!» هذا ما كنت أقوله لنفسي عندما تنغمس صوفي في إحدى نوبات التسوّق المحمومة. «هيّا!» فلتخرج كلّ امرأة لتمتّع نفسها، لتبحث عن الأزياء الراقية البسيطة الأنيقة. هيّا إلى الصيد، عليكنّ بجون روشا، نيكول فارحي، كليمنتس ريبيرو. وعندما أطلق العنان لجرأتي أرغب في أن أتبختر بالتصاميم الجامحة وأتباهى بالأخضر الليموني والبرتقالي والفيروزي. حان موعد الأناقة. دار دي.كي.ان.واي DKNY للأزياء. كانت دائما تلقي نظرة شاملة على كلّ ما هو جديد ومذهل تمامًا ومختلف. جوارب الشبك النسائيّة؛ ألقت صوفي ستونز مجرّد نظرة واحدة. إذا رغبت في أن أظهر بمظهر أنيق وثري فسأحصل عليه بكلّ سهولة. إذا أردت بذلة رسميّة أنيقة، فسأحصل على بذلة رسميّة أنيقة. سأختار بفخر

بذلة لامعة متألّقة، ثمّ سأسحبها عن الرفّ بكل بشراسة. وعندما أجد ما أبحث عنه سأقول: «أوه غوتشي، غوتشي!».

سأنظر إلى نفسي في المرايا الخادعة لغرف تبديل الملابس العامّة. سعيدة على الأقل بقياسي الذي بلغ 10. لست نحيلة مثل سارّة، ولكنّني لا أعاني من السمنة المفرطة مثل المرأة التي بجواري. أراها تعصر نفسها في ملابس بقياس 16 بينما ربما يبلغ قياسها 22، يصل بنطلونها النسائي من ماركس آند سباركس إلى شقّ مؤخّرتها. يا لها من بقرة سمينة مسكينة.

قصدتْ هذا الصباح شارع ساتشي هول ستريت، ثمّ شارع بوكانان ستريت، لتتفرّج على دمى عرض الملابس في واجهات المحلّات بحثًا عن شيء أنيق وساحر ومثير. لا بدّ من أنّ هناك شيئًا مّا قد يجعل الجميع يقولون إنّ صوفي ستونز تتمتع بحسّ راقٍ بالموضة. كمْ أحبّ هذه الكلمة، حسّ راق بالموضة، حسّ راق بالموضة. من المثير للسخرية أنّ الحاجة إلى التسوّق لا يمكن قمعها أو إرضاؤها. أشتري المحل بأكمله. فأنا لا أتسوّق من أجل المتعة فقط، أشعر أحيانًا كأنّني أتسوّق لأنقذ حياتي. خزانة ملابس سميكة وكثيفة، مليئة بالتنانير السوداء بالفتحات، والبلوزات الذهبيّة بحمّالة تنزل من العنق، والسراويل والسترات وكنزات الدانتيل الأسود. إنّها خزانة المرأة التي أتمنّى أن أكون. أعلم أنّني لم أصبح هذه المرأة بعد، ولكنّ الملابس يمكن أن تكذب. هل هذا ما حصل مع جوس مودي؟ هل يمكن أن تكذب الملابس؟

خزانة ملابس مكتظّة بأسماء المصمّمين المشاهير. عليك أن تكون

شخصًا مّا لترتدي ملابس معيّنة تحمل توقيع مصمّم شهير. أمتلك فستانًا أسود من الحرير الثمين من تصميم سارا ستيرجين، ومعطفًا من تصميم أرماني، وكذلك قميص كالفن كلاين رجاليًا في منتهى الأناقة، حتّى أنّ أحد أصدقائي الأثرياء اشترى لي مرّة فستانا فيرساتشي، وبنطلونا دونا كاران، وأحذية. أحذية! يا إلهي كم أحبّ الأحذية. صفوف وصفوف من أحذية الكعب العالي وأحذية وصنادل بالكعب السميك العالي. يمكنني ارتكاب جريمة فعلاً للحصول على الأحذية الأنيقة.

من كان يتسوّق لجوس مودي؟ هل كانت ميلي تشتري جميع القمصان؟ هل أخذ أحد مّا قياساته؟ يمكن لأيّ خيّاط أن يعرف بالتأكيد ما هو الشيء المفقود، أليس كذلك؟ ماذا عن الأحذية؟ كم كان مقاس الحذاء كبيرًا! ربّما كان عليها أن تشتري أحذيتها بنفسها.

ما الذي أحبّه أكثر من التسوّق؟ عملي، فضح الأسرار، البحث عن الطرائد، التحذيرات، المبيعات، المنافسة، النميمة التنافسيّة، البضائع، المعلومات الداخليّة السريّة. أتعقّب المعلومات الداخليّة، الإيماءات، الغمز، والركلات من تحت الطاولة. أبقي أذني مفتوحة للقيل والقال. أحبّ معرفة كلّ شيء، أحدث المعلومات دائمًا. اعترافات كولمان مودي تمثّل اليوم السلعة والدم والأحشاء. لا يمكنني أن أمنع نفسي عنها.

يبهرني بالفعل كيف تبدو الملابس في المحلّات مجهولة، حتّى يمتلكها شخص مّا. وفي اللحظة التي تغدو فيها جزءًا من خزانتي،

تبدو قريبة جدًّا من صوفي، وكأنّها مصمّمة خصّيصًا لها، وكأنّ من صمّمها كائنًا من كان قد وضعني في مخيّلته طيلة فترة التصميم.

ليس التسوّق فقط ما يجعلني في ذروة الحماسة. كولمان في هذه اللحظة بالذات في بيت الأمّ. آمل أن يتمكّن من الحصول على الجزء المتعلّق بها من القصّة الآن، من والدة جوس مودي، إذا لم يفقد أعصابه اللعينة.

لديّ صورة صحافيّة لها في رأسي. استغرقت وقتًا طويلاً منّي لإيجادها، ولكنّني وجدتها في النهاية. كان هذا بالنسبة إلى صوفي في غاية الإثارة، كما لو أنّها تتعقّب والدة بيتر ساتكليف أو إيّان برادي أو فريد ويست. والدة المخنّث الشهير. حسنًا، حسنًا، حسناً. ذهب كولمان إلى العنوان 12 شارع لارتشيز. يا لهذا العنوان الذي يبدو في غاية البراءة! لا يمتلك هذا العنوان رنين عناوين مثل 10 ريلينجتون بليس أو 25 كرومويل ستريت. لا يمكن لهذا العنوان أن يرعبني حقًّا، ولكن لا بدّ من أنّ إيديت مور لم تعش حياتها بأكملها في مساكن إيواء المسنّين، هذا مؤكّد! ينبغي معرفة جميع العناوين الأخرى، منازل طفولة جوس مودي، ومنازل المراهقة. لا بدّ من دخول أحد هذه المنازل.

في تلك اللحظة التي أشمّ فيها رائحة اكتئاب قادمة أو أيّ نسمة طفيفة من جنون الارتياب، أخرج إلى المحلّات التجاريّة، قبل أن تفتح أبوابها في بعض الأحيان أصلا. التسوّق يصدّ قطعًا الاكتئاب. إذا اقتنيت الملابس المناسبة، قد يُعجب بي كولمان. من الأفضل ألّا

أعرّفه على أختي سارّة بتاتًا لأنّه سيعجب بها حتمًا. الرجال! لطالما أعجب الرجال بسارّة. سرَقَتْ منّي صديقي الأوّل بول روس. لم أسامحها للحظة على ذلك. أوّل صديق لي، لن أنسى أبدًا ذلك الشعور الذي تملّكني عندما شاهدته يمسك بيد سارّة ويسيران في الشارع. لطالما نظر إليها بطريقة لم ينظر إليَّ بها مطلقًا. كانت نظرة إعجاب شديد. وكان أسوأ ما في الأمر أنّه لم يكن يبدو معجبًا بجسدها. لقد كان معجبًا بشخصيّتها، هذا ما أدهشني بالفعل. ولم أحظَ حتّى اليوم بمثل هذه النظرة على وجه أيّ رجل نظر إليّ.

كولمان يحبّ الملابس غير الرسميّة، ربّما عليَّ شراء بنطلون جينز أسود له. بنطلون من الجينز الأسود، وقميص حريري أحمر. كيف سيصبح عندها؟ إنّه على وشك العودة قريبًا من بيت الأمّ مستعدًّا لقول كلّ شيء.

إنّها تمطر الآن، بدأ المطر خفيفًا، ثمّ أصبح قويًّا وثقيلاً. اختبأتُ من المطر خارج أحد المحلات، واتّصلت برقم الفندق من هاتفي المحمول. «الغرفة رقم 310، من فضلك». وضعت الهاتف بين أذني وكتفي، ووضعت أكياس الملابس الجديدة بين ساقيّ، وضغطت عليها بركبتي.

كان أهالي جلاسكو يدخلون ويخرجون من المحلّات التجاريّة. ويجلسون في المقهى المقابل لي يشربون الكابوتشينو. حدّق بعض المارّة بتجهّم في هاتفي المحمول كما لو أنّه كلب بيتبول لعين أو أيّ شيء من هذا القبيل. كولمان ليس هناك، كان رقمه يرن ويرن دون أن

يجيب أحد. تركت له رسالة على المجيب الآلي للبريد الصوتي للفندق. «مرحبًا كول، كيف سار الأمر؟ سأتّصل بك بعد نصف ساعة. ماذا عن العشاء؟ لقد وجدت مطعمًا تايلانديًّا رائعًا. آمل أنّك تحبّ الطعام التايلاندي. وداعاً الآن». هل كان ما قلته غبيًّا؟ «آمل أنّك تحبّ الطعام التايلاندي؟» كرّرتُ ما قلتُ ساخرة من نفسي. وضعتُ سلاح الجريمة الذي تكلّمت به في جرابه الجلدي الناعم ورميته في فم حقيبة يدي المفتوح المزمجر، وأغلقت ذلك الفم.

اللعنة أين هو الآن؟ أتمنّى ألّا يذكر أيّ شيء عن الكتاب. لقد قلت له أن يترك كلّ هذا لصوفي. أتمنّى ألّا يكون قد شعر بالضعف وباح بكلّ شيء. أنا لا أثق فيه. يجب أن أعود مع غنائمي.

عدت إلى الغرفة 308، جرّبت جميع الملابس مرّة أخرى. كانت جولة ثانية من قياس الملابس. تبدو هذه الملابس مختلفة هنا في مرايا غرفة الفندق. وقفت على السرير وخلعت بلوزتي الحريريّة الحمراء ببطء وبدأت بملامسة جسدي، وأنا أنظر في المرآة. جرّبت مجدّدًا الاتصال برقمه بعد أن عدت، فلم يردّ. تشير الساعة إلى السابعة والنصف مساءً الآن. ما الذي يخطّط له بالضبط؟ شغّلت الحمّام. صببت علبتين كبيرتين من فقاعات الاستحمام، وبدأت الفقاعات والرغوة بالظهور.

اتصلتُ بخدمة الغرف وطلبت الجن بالصودا. وانتظرت بفارغ الصبر تلك البذلة السوداء والقميص الأبيض لتأتي بالمشروب على صينيّة صغيرة. دخلتُ حوض الاستحمام، الجن بالصودا في يد وعصير هيلو في الأخرى. شعرت بأنّني في النعيم فعلاً، سيعود قريبًا.

ما هذا؟ هل هي منزعجة ممّا يخصّ كتاب صوفي أم بسبب كولمان نفسه؟

على الأرجح لن تسهر الأمّ لوقت متأخّر، أليس كذلك؟ ألا يخلد جميع كبار السنّ إلى النوم في وقت مبكر جدّا ومثير للسخرية؟ خمّنت وأنا أمرّر الصابون على جسمي أنّهما يتحدّثان بالتأكيد، يتحدّثان عن الماضي. حاولتُ التصرّف كالممثلات اللواتي شاهدتهنّ يتمرّغنَ في رغوة الحمّامات في الأفلام، ولكنّني لم أتمكّن من ذلك. كان الماء مزعجًا، لم أستطع الاسترخاء. كانت الفقاعات تختنق وتتلاشى. خرجتُ من حوض الاستحمام وفركتُ جسمي بقوّة. لم يلتمع ضوء الهاتف في الغرفة. فتحت هاتفي النقّال لأتأكّد من أنّه يعمل ومن أنّ البطّارية لم تنفد. لقد أعطيته كلّ الأرقام. لم تعد صوفي تحتمل فكرة ألا يرنّ الهاتف. أحتاجُ إلى مجيب آلي يصفّر أو فاكس يصدر صوتًا أو جرس رسالة بريد إلكتروني يجعلني أشعر بأنّني محبوبة. لماذا لم يتّصل بي؟ ما الذي يخطّط له؟ هل يفكّر في التلاعب بي؟ إذا كان يفكّر في أن يتلاعب بي، فيمكنني أن أقوم بذلك أيضًا. ليتّصل وسأخبره بأنّني سأنام مبكرًا.

الساعة الآن الثامنة والربع. شغّلت التلفاز. انتهيت من تجفيف شعري. وضعت عليه الجل، ووضعت أحمر الخدود. جلست على سريري المزدوج في غرفتي وبدأتُ أقلّب القنوات على التلفاز بواسطة جهاز التحكّم. كم هي رائعة أجهزة التحكّم عن بعد. كيف كان الناس يشاهدون التلفاز قبل أن توجد هذه الأجهزة؟ أحبّ تسريع

الصورة وتثبيتها لرؤية شيء مّا، ثمّ المتابعة. يضمّ التلفاز في هذا الفندق قناة سكاي وقنوات الكيبل. توقّفت عند برنامج حواري لفترة كافية لسماع أمّ تتحدّث عن الطريقة التي سلكتها لسرقة صديق ابنتها. ثمّ برنامج وورلد إن أكشن، وأخيرًا شاهدت الجزء الأخير من مسلسل إيست إينديرز. شعرت بأن عليَّ الاستلقاء في السرير، ولفّ نفسي في اللحاف، ولكنّني لم أقم بذلك. لقد استلقيت على الأغطية بكامل ملابسي.

البيت والوطن

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

كنتُ ألفُّ ضمادتين باللون الأبيض حول ثدييه كلّ صباح في وقت مبكر. كنت ألفُّهما مرارًا وأشدّهما بإحكام. لم أفكّر في أيّ شيء عدا القيام بذلك بشكل جيّد. كان يجب أن أقوم بذلك بشكل جيّد، أن ألفّهُما بشدّة. وكلّما شددت الضمادات تسطّح شكل الثديين. هذا كلّ ما كان يهمّهُ. لم يهتمّ إذا ما كان هذا يضايقه. ربّما لم تكن تلك الضمادات مريحة بالفعل. لا أتذكّر أنّنا كنّا نتحدّث أثناء قيامنا بذلك. لا أتذكّر أنّني فكّرت كثيرًا. كان عليَّ مساعدته في ارتداء ملابسه لكي يتمكّن من التمتّع بيومه والشعور بالراحة طيلة اليوم.

لطالما قمت بهذا دون أن أفكّر في ما أفعل. كان يرتدي كنزة بيضاء أوّلاً. ثمّ يرتدي فوقها كنزة أخرى. ويرتدي فوقها كذلك قميصًا بأزرار. كان يرتدي سراويله القصيرة وكنت أشيح بنظري عنه عندما يحشوها بزوجٍ من الجوارب. يرتدي بنطلونه ويحاول بعدها تعديل الوضع بين القميص والحشوة. وكان دائمًا يشعر براحة كبيرة عندما يرتدي ملابسه. ربّما كان يشعر بطريقة أو بأخرى بالمزيد من الأمان.

يا لحبيبي الوسيم الطويل القامة، كان عندها يبتسم لي بخجل. كان يسأل: «كيف أبدو؟» فأقول له: «رائع، تبدو في أحسن أحوالك».

لديّ بعض الضمادات التي كان يضعها هنا في «تور». لا أعرف ما الذي عليَّ أن أفعل بها. لا يمكنني رميها، ولا يمكنني التخلّص منها. لا يمكنني حرقها أو دفنها أو رميها في سلّة المهملات. لا تزال هذه الضمادات هناك في الدرج العلوي داخل خزانتي مع ملابسي الداخليّة القطنيّة البيضاء. تستلقي الضمادات هناك مجعّدة ونائمة مثل حيوان صغير أليف. ولا تزال تحمل رائحته، رائحة موسيقاه، تلك الرائحة المميّزة لموسيقى الجاز. لديّ الضمادات ولديّ ترومبيته الذهبي، والقطعة الخاصّة بالفم من الترومبيت، وصندوقه القديم المتهالك، والإعلان الأخير الذي يتناول عودته المظفّرة لمدّة أسبوع في بار «روني سكوت» للجاز. تعدّ هذه الأشياء أهمّ أغراضه الشخصيّة التي لا تزال بحوزتي.

نمت مرّة وأنا أضع اثنتين من الضمادات تحت وسادتي. كان ذلك منذ زمن بعيد للغاية، في اليومين الغريبين بعد موته. لا أذكر الآن أيّ يوم بالضبط لأنّ جميع تلك الأيّام كانت متشابهة إلى حدّ كبير. كنت أعيش اليوم نفسه مراراً كلّ يوم.

عندما فتحتُ صندوق الترومبيت، حدّق في وجهي، وكانت أزراره تبدو كعيون حقيقيّة. كان حزينًا لعدم العزف عليه. كان يبدو كأنّه يسألني: «إلى أين ذهبت كلّ تلك الموسيقى؟ وإلى أين ذهب الجاز؟ أين سيّدي الماهر؟» وضعت شفتيّ على فوهة الترومبيت الذهبية

الضيّقة، ولكنّني لم أتمكّن من إصدار أيّ صوت. وضعته مرّة أخرى في علبته المكسوّة بالفراء. كان هامدًا خاليًا كليّا من الحياة. وضعت تلك العلبة المتهالكة تحت سريري.

لم يكن ثدياه كبيرين للغاية، وكان من السهل جعلهما مسطّحين. لم يتوقّع أحد في يوم مّا أنّني كنت أعرف بوجودهما. لم ألمسهما يومًا، إلّا عندما كنت ألفّ حولهما الضمادات. كانت تلك أكثر المرّات التي كنت قريبة منهما، عندما ألفّهُما. كان يرفع ذراعيه في الهواء، بينما أندسُّ هناك لأضع دبوسًا على الضمادات بعناية شديدة، ولأتأكّد تمامًا من عدم إمكانيّة أن ينفصل الدبّوس عنها خلال اليوم الطويل. كان هذا كلّ ما في الأمر. وبخلاف ذلك، لم يكونا موجودين بالنسبة إليّ، لم يكونا حقيقيّين.

ملامح الوجه

غادر كولمان مودي بيت إيديث مور في الساعة التاسعة مساءً. تركها لتشاهد نشرة أخبار التاسعة. يحمل الآن صورة جوزفين بعمر سبع سنوات. أعطته إيّاها إيديث مور في مظروف داكن. إنّها هناك جوزفين مور في سنّ السابعة، تبتسم ابتسامة تظهر أسنانها، وقد فقدت سنَّيها الأماميّتين اللبنيتين معًا. كان شعرها كتلة سوداء مجعّدة، ابتسامتها كبيرة سعيدة. وترتدي بلوزة بيضاء وجوارب طويلة وحذاء أسود لامعًا وتنوّرة داكنة مثنيّة. تقف بجوار جدار المنزل الذي كانت تعيش فيه حينها. المنزل رقم 20 شارع أبردوير رود. أخبرته إيديث بعناوين جميع المنازل التي سكنت فيها. حكت له بسهولة وبرضا امرأة أمست قادرةً أخيرًا على تذكّر كلّ شيء بدقّة. كانت تتوقّف بطريقة دراميّة في نهاية كلّ عنوان.

وقف كولمان تحت مصباح الشارع، وحدّق في الصورة مرّة أخرى. لم يعد بإمكانه تجاهلها. رأى الطفلة الآن، يمكنه أن يرى شيئًا أنثويًّا في ذاكرته، ولطالما كان موجودًا هناك في وجه والده. الشوارع غارقة

في الظلمة، والضوء خافتٌ جدًّا. لم يتمكّن من رؤية الفتاة الصغيرة بوضوح، ولكنّه وقف وأمعن النظر مجدّدًا بالطريقة ذاتها. كان ينتظر حدوث شيء مّا. ظهرت صورة أخرى وراء الصورة التي يحملها بيده. كان لا بدّ من تتبّع كلّ تلك التحوّلات التي طرأت على الطفلة إلى أن صارت جوس مودي، حتّى يفهم الصورة بأكملها. أعاد الصورة إلى كيس نومها البنّي ومسّد على الورق البنّي الخفيف. دارت تلك الأغنية في رأسه، الأغنية نفسها التي كان والده يغنّيها له لينام. «*أحلام للبيع، أحلام للبيع، أنجوس ينتظر هناك، يبيع الأحلام*». حمل الصورة برفق ليتأكّد من أنّه لن يمسّها أيّ ضرر.

كان يتجوّل في شارع برايهيد رود في عجلة من أمره. أخبرَته إيديت بأنّ عليه أن يمشي حتّى برج الساعة، حيث سيجد مكتبًا لسيّارات الأجرة. قالت إنّ هذا أسرع من الاتصال هاتفيًّا لتأتيه سيّارة أجرة. كان سعيدًا بالمشي في هواء تلك الليلة. كيف استطاع والده أن يتوقّف عن رؤيتها؟ ما كلّ هذا التبذير؟ لقد تناول كولمان وجبة الغداء والعشاء في منزل إيديت مور. إنّه متأكّد من أنّ تلك المرأة المسنّة قد قامت بتسمينه. وجد أنّ محاولة رفع إحدى قدميه ثمّ القدم الأخرى، أو تحريك قدمه لأخذ خطوة إلى الأمام، أو حتى جعل ذراعه تتأرجح جيئة وذهابًا قد صار الآن عملاً مضنياً للغاية.

كان جسده ثقيلاً كلّه مع غلالة الحزن الكثيفة التي تجلّله. كان يجثم على صدره كلب ضخم نائم قرب النار، تلك النار التي تتغذّى على الفحم. وهناك، في مستودع الفحم، شخص مجهول جاء من بعيد، من

ماضي والده، يجرف الفحم ليعبّئه في دلو من الصفيح، ثمّ يرميه في النار. يمشي كولمان ببطء، يحرّك قدمًا تلو الأخرى. تفتقر خطواته إلى الخفّة. يحتاج إلى النوم لفترة طويلة للغاية. لا يمكنه مواجهة صوفي ستونز الليلة. يحتاج إلى تناول كأس، كأس من الويسكي ليغطّ بعدها في نوم عميق. لا بدّ من أن يواري نفسه في النوم، وأن يغطس حتّى قاع نفسه، حيث يفقد وعيه بذاته، وحتى يتمكّن من أن يصبح شخصًا آخر يحلم بنفسه.

فتح الباب بأكثر ما استطاع من الهدوء فربّما تكون في الداخل. لا يريد أن يراها وهو متوتّر. عليه أن يكون في أعلى درجات الاستعداد من الآن فصاعدًا. جرّبَ البطاقة البلاستيكيّة الغبيّة الصغيرة لفتح الباب، فانتابه شعور بالاشمئزاز نحوها. ما الذي حدث حقًّا لتلك المفاتيح الكبيرة، تلك المفاتيح التي تمتلك كرات حديديّة ضخمة في نهاياتها لمنع النّاس من سرقتها أو نسيانها؟ يا للقرف، لقد كانت هذه المفاتيح أفضل من هذا الهراء البلاستيكي. ضوء أحمر ثمّ ضوء أحمر مجدّدًا. حصل أخيرًا على الضوء الأخضر ودخل غرفته في الفندق بصمتٍ شديد وكأنّه لِصّ. ما الذي لديه ليخاف؟ اندفع إلى غرفته، بعد أن سمع صوتا في الخارج يبدو أنّه صوت الصحافيّة، بل صوت الصحافيّة المبتذلة، هذه تسمية أفضل. كانت الصحافيّة المبتذلة قد شغّلت جهاز التلفاز في غرفتها. يمكنه سماع الصوت من غرفته. شغّل جهاز التلفاز لديه أيضًا ليتابع البرنامج نفسه الذي تشاهده هي. مسلسل «بيردز أوف أفيذير». خفّض الصوت إلى أدنى مستوى ممكن. لمحت عينه وميض الهاتف. لا بدّ من أنّها تلك الصحافيّة المبتذلة، لن يعطي أذنه للهاتف.

عليه أن يستلقي. متى شعر بمثل هذا الشعور في حياته؟ إذا تمكّن من تذكّر متى مرَّ بهذا الشعور من قبل، فسيشعر بالراحة حقًّا، وسيعرف على الأقلّ أنّه لن يصرخ من الجنون والهذيان. لا يمكنه أن يتذكّر بالفعل. رنَّ الهاتف فقفز من فوره. هل هو الجبن الذي يجعله قلقًا؟ أم هو يعرف حقًّا كم هو ضعيف؟ بدا في مرآة نفسه أسوأ أنواع الجبناء. الجبان الذي يريد أن يُدفع له لكونه جبانًا. نعم، هذه هي الحقيقة. هيّا أجِبْ على الهاتف يا كولمان. قلْ لها أن تذهب إلى الجحيم. لو كان بإمكانه لعاد إلى بيت إيديث مور، البيت الآمن الدافئ الذي تصدر منه رائحة امرأة مسنّة، امرأة مسنّة من الجيل القديم.

رنّ الهاتف مرارًا، حتّى ردّ جهاز المجيب الآلي. أصدر المجيب الآلي صفّارته الخاصّة، ثمّ قام بتسجيل رسالتها. استمع إلى الرسالة بعد بضع دقائق، وكان يضغط الهاتف على أذنه احتياطًا. سجّل المجيب رسالتها بالضبط. كان صوتها يقطر متقطّعًا. هناك شيء آخر أيضًا، لم تكن تبدو طبيعيّة بل كانت قلقة. إذن فالصحافيّة المبتذلة متوتّرة! ابتسم لنفسه وفتح الميني بار. تبادر إلى ذهنه فجأة أنّ صوفي قد يخطر في بالها أنّه يتجنّبها، فتأتي مباشرة إلى بابه لتطرقه بشدّة بطَرْقَات سريعة. وماذا بعد؟ سيجعل من نفسه رهينة. رهينة الصحافيّة المبتذلة. هذا ما هو عليه حقًّا. ضحك بهدوء، شرب كأسه دفعة واحدة بحركة واحدة سلِسلة. حرق الكحول حنجرته ثمّ بطنه، هذا أفضل. صبَّ لنفسه كأسا أخرى. هي من سيدفع، إذن لتدفع أكثر. لماذا لا يدعها تدفع حتى تُفلس؟

الآخرون: صديقة المدرسة القديمة

في منامها ليلة أمس كانت ماي هارت أوّل شخص يظهر في موقع الحادث على الطريق السريع إم 8. حدث كلّ شيء أمام عينيها، ذلك الاصطدام العنيف وصراخ المعدن الذي عُجن ليتحوّل أخيرًا إلى كومة من الحُطام. لا تزال الأضواء المتوحّشة للشاحنة تزعق ساطعة. كان عليها أن تتوقّف. قادت سيّارتها حتى وصلت إلى موقع الحادث وخرجت من سيّارتها. ارتجفت ساقاها داخل بنطلونها، وكأنّ رياح الليل الشديدة قد نَخَرت عظامها. كانت الفتاة ملقاة على قارعة الطريق، ولكنّها لا تزال على قيد الحياة تئنّ من الألم. غيّرت وضع جسمها إلى وضعية الإفاقة الإسعافيّة التي شاهدتها كثيرًا على شاشة التلفزيون. وللحظة، أدركت في حلمها وبوضوح أنّها في عمرها الحالي نفسه. ذُهلت من عبثيّة هذا الحلم على الفور. فهي متقدّمة في السنّ، ولن تتمكّن من قيادة السيّارة والمخاطرة والتدخّل في هذا الحادث! ما الفائدة التي ستقدّمها الآن وهي في السبعين من عمرها لتخاطر بتقديم المساعدة. جلست قرب الفتاة وأمسكت يدها.

في تلك اللحظة كان هناك شرطي ينحني على الفتاة، وقد نَمَتْ شجرة كبيرة وراءه. كانت فروعها الضخمة تتمايل في الأضواء الصادرة عن الحادث. وعندها فقط أدركت ماي من تكون تلك الفتاة. إنّها جوزفين مور. لم ترَها منذ سنوات. تساءلت لماذا لم تكبر جوزفين في السنّ، اقترب الشرطي وباعد بينها وبين جوزفين. كان يحمل مجموعة من الحقن في يده رفيعة ودقيقة الرأس كالشعرة. «عليَّ أن أحقنك. كوني فتاة قويّة». تقدّمت جوزفين بصعوبة وتلوّت بألم على الطريق السريع، كانت تزحف عبر الطريق السريع إم 8 مثل حيوان جريح.

غَضِبَ الشرطي. التمعَ زيّه العسكري بسبب أضواء الشاحنة. وقال: «قلت لك كوني فتاة جيّدة»، ثمّ صرخ بأعلى صوته: «كوني فتاة جيّدة». فكّرتْ للحظة في حلمها أن تلتقط عصا الشرطي وتضربه بها على رأسه. قالت للشرطي: «أنا أعرفها، كانت تدرس معي في المدرسة». نظر إليها كما لو أنّها مجنونة: «أعتقد أنّكِ مرتبكة قليلاً»، ثمّ أمرها قائلاً: «انتظري سأقول للمُسعف في سيّارة الإسعاف أن يعطيك بعض المهدّئات».

أدركت ماي هارت أنّ حديثها مع تلك المرأة هو الذي سبّب لها تلك الكوابيس. ماتت جوزفين مور في كلّ ليلة لمدّة أربعِ ليالٍ على التوالي في أحلامها. كانت دائمًا في الحادية عشرة من عمرها. هناك حلم واحد فقط كانت فيه ماي هارت صغيرة في السنّ مثلها، ولكن هذا الحلم كان أقساها جميعًا. لا يمكنها حتّى أن تتذكّره الآن، كان حلمًا مرعبًا حقًّا.

هل قالت لها أيّ شيء مهمّ؟ منذ خمسة أيّام، في صباح الثلاثاء وصلت صوفي ستونز إلى المنزل رقم 9 الواقع في شارع ميلك ستريت، غرينوك، بعد أن اتّصلت هاتفيًّا مسبقًا لتعلمها بأنّها تكتب (مقالاً؟ كتاباً؟ نسيَتْ ماي الآن فقد كان الاتصال مُفاجئا بالنسبة إليها) حول صديقتها القديمة في المدرسة جوزفين مور. تذكّرتها ماي بالطبع. لا، لم تسمع بوفاتها، بل لم تسمع بها منذ سنوات. لقد اختفت هكذا فجأة من غرينوك. كان هذا كلّ ما في الاتّصال. لم تقل الصحافيّة أكثر من ذلك. أوه، باستثناء أنّ جوزفين قد أصبحت عازفة ترومبيت شهيرة. قالت ماي التي فزعت واندهشت قليلاً، إذ لم تكن تهتمّ كثيرًا بعالم الموسيقى: «هكذا إذن! لا أعلم. أعتقد أنّني غير مطّلعة على آخر التطوّرات في عالم الموسيقى».

أخرجت ماي النسخة الوحيدة من صورة المدرسة القديمة، كما وعدت. لم تتمكّن من تذكر أسماء الجميع الآن، ولكنّها لطالما تذكّرت جوزفين. كانت الفتاة الملوّنة الوحيدة في الصفّ، فتاة في غاية الجمال، تتمتّع بأسنان جميلة وابتسامة ودودة.

نهضت ماي في السابعة والنصف من صباح اليوم الذي تواعدت فيه مع الصحافيّة. اغتسلت وارتدت سروالا بمربّعات بيضاء وسوداء، وقميصًا أخضر. قالت لنفسها: لا تُعدّ هذه الملابس سيئة بالنسبة إلى امرأة في السبعين من عمرها. ارتدت ملابسها الأنيقة، لكنّ المرآة أظهرت علامة أو اثنتين من علامات الشيخوخة. ظهرت على بشرتها عروق مثل جذور حمراء صغيرة. استخدمت فرشاة التجعيد الحارّة

لتمنح شعرها شكلاً متماسكًا عند الغرّة. ووضعت بضعة دبابيس لتثبيت التسريحة في مكانها. رشّت بعض الرذاذ الناعم، مع أنّها تكره مثبّت الشعر الذي يجعل شعرها يبدو متحجّرًا. فركت القليل من الكريم المرطّب على خدّيها. ورشّت القليل من العطر الذي اشتراه لها ابنها من السوق الحرّة. أصبحت رائحتها زكيّة جدًّا. فركت بعض كريم الأساس على الأوردة الظاهرة. ثم وضعت القليل من أحمر الشفاه الذي أهدتها إيّاه ابنتها مع الجوارب النسائيّة في عيد الميلاد.

كانت فكرة الحديث عن طفولتها تملأها بالحنين إلى الماضي. وقد كان للماضي في ذلك الصباح الباكر نوع من ردّ الفعل المثير للحساسيّة. فقد بدأت فورًا بالعطس حين تذكّرت عراكًا حصل بينها وبين جوزفين. لم ترِد أن تخبر الصحافيّة عن تلك المشادّة.

تفحّصت أسنانها في المرآة، ضمَّت صفّي الأسنان على بعضهما البعض وأخذت تحرّك لسانها بينهما. كان صفّ الأسنان الأعلى طبيعيًّا. وهي تتباهى بامتلاك هذه الأسنان أكثر من فخرها بمدّخراتها. لطالما حاول طبيب الأسنان الشابّ إجبارها على المباعدة بين صفّي أسنانها. فقد كانت السنَّان في المنتصف تتداخلان مع بعضهما لتشكّلا تقاطعًا صغيرًا، كرهته كرها شديدا عندما كانت امرأة شابة. أمّا الآن فينتابها شغف سخيف إزاء هذا التقاطع الملتوي. أرادت في مراحل كثيرة من حياتها أن تعبث به لتحاول جعل هاتين السنَّين مستقيمتين، ولكنّها اعتقدت أنّ ذلك قد يُفقدها بعضا من شخصيّتها. خاطبت نفسها: «أنتِ عبارة عن أسنانك، أكثر من أيّ شيء آخر، أكثر من جسدك

الذي هو شخصيّتك، وأكثر من الطعام الذي تتناولينه أو حتّى العمل الذي تزاولينه، أسنانكِ هي شخصيّتك. الحياة هي مجرّد رحلة بدءًا من الأسنان اللبنيّة إلى الأسنان الاصطناعية مع الحشوات والتيجان التي توضع في ما بينها لتمنحك الراحة».

من جنّيّة الأسنان السحريّة إلى التقرّح الذي يتشكّل تحت طقم الأسنان بسبب تركيبه بشكل خاطئ، توزّعت الأسنان الاصطناعيّة في فمها دليلا على هذا التحوّل. تذكّرت ذلك اليوم المروّع عندما انتقلت عائلة غنيّة من الأسنان إلى فكّها السفلي. كانت عبارة عن صفّ من الأسنان المحتالة الخبيثة التي تتمتّع بلطف وبجاذبيّة هائلة أكثر من أسنانها الطبيعيّة الماكثة في الصفّ العلوي. كانت تلك مجموعة من الأسنان المتألّقة السخيفة، الجاهزة لكلّ شيء، ما جعلها تدرك أنّ زوجها لم يعد يحبّها. ربّما لم يكن يحبّها حقًّا. كان هو وراء الانتقال نحو الأسنان الاصطناعيّة لأنّه ركّب بعضًا منها. وكان يغار منها، هذا ما فكّرت فيه فعلاً. كان يشعر بالغيرة وهو يشاهدها تقضم وتمضغ ببراءةٍ تفّاحةً حمراءَ.

عندما تنظر إلى الوراء، إلى ذلك اليوم خلال غشاوة المخدّر التي جعلتها تتطاير وتتصاعد إلى الأعلى مثل تنّورة بيضاء في مهبّ الريح. أدركت حينها أنّ تلك اللحظة كانت نقطة تحوّل حقيقيّة في حياتها. أمست ضعيفة دون ذلك الصفّ الطبيعي السفلي من أسنانها، وكان لفظها للحروف أقلّ وضوحًا، وفي النهاية صارت أقلّ ثقة في نفسها. كان هذا صحيحًا بالفعل؛ لقد غيّر شكل أسنانها طريقة مشيها. «أنت عبارة عن أسنانك».

عندما أدخلت الصحافيّة إلى منزلها، لاحظت أنّ الفتاة الشابّة تمتلك أسنانًا رهيبة بالنسبة إلى فتاة في عمرها. كانت أسنانها كبيرة جدًّا بالنسبة إلى فمها، وقد تغيّر لون أحد الأسنان قليلاً. جعلها هذا تفكّر وتعيد النظر في الحديث معها. ما الذي كانت تفكر فيه جوزفين لتسمح لهذه الشابّة بتأليف كتاب عنها؟ لا تبدو مناسبة لهذا بتاتًا. يبدو شكلها غريبًا تمامًا. تبدو أنيقة وراقية، وترتدي ملابس من الماركات الشهيرة وتبتسم وتنضح بالسحر المزيّف. غدت المرأة المسنّة التي أصبحت عليها ماي أكثر براعة في اكتشاف الزيف في الآخرين. فات الأوان الآن على التراجع عن مقابلتها، رغم الشعور الغريب السيّئ الذي تشعر به بالفعل. ذلك الشعور الذي يُنبئ بأنّ شيئًا مّا سيحدث.

أخذت صوفي ستونز صورة المدرّسة وحدّقت فيها لوقت طويل. وهذا ما جعل ماي تنظر بنفسها مجدّدًا إلى الصورة، وتتذكّر المزيد من الأشياء. كانت عينا رونا إليوت حمراوان من البكاء. لم تكن تحبّ الذهاب إلى المدرسة بتاتًا. بدت كاثلين باكستر امرأة عجوزًا بالفعل. أمّا إيلين فوربس فقد توفّيت بعد نوبة صرع. بدأت الأسماء تعود إلى ذاكرتها بوضوح. كان بإمكانها سماع السيّدة سكريفنر تصرخ باسمها «ماي هارت». كانوا ينادون كلّ شخص باسمه في السجلّ، ولكن نصف الأشخاص في صفّها على الأقلّ لم يكونوا معروفين بتلك الأسماء. لم تكن بعض الأسماء تشبههم أصلا. كان لكلّ منهم شخصيّتان. استعادت في ذاكرتها تلك الزاوية من الملعب، حيث كانت تتسكّع مع جوزي وكاثي باكستر، عندما سمعت صوفي تقول: «هذا رائع، هذا مدهش فعلاً». قالت ماي: «كيف تقدّمنا في العمر!» كم

يبدو هذا سخيفًا، ولكنّها الحقيقة. لن تتوقّعي أن تتقدّمي في السنّ إلى هذه الدرجة. عندما تكونين صغيرة في السن، تشعرين بأنّك لا تقهرين مطلقًا». تردّدت صوفي ستونز كما لو أنّها في طريقها لتناقض كلامها. قالت ماي بثقة: «انتظري وسترَين». سألت صوفي بينما كانت لا تزال تحدّق مسحورة في الصورة: «كيف كانت جوزفين؟».

- أوه، كانت مرحة كثيرا. كانت جوزي مرحة بالفعل.

- هل كانت مسترجلة قليلاً؟

- لا، على الإطلاق.

- من أين أتى والداها؟

- حسنًا، كان هذا أقرب إلى الفضيحة آنذاك، إذ كانت والدتها من جلاسكو ولكن والدها كان رجلاً أسود.

- نعم، ولكن من أين جاء أصلاً؟

- من جزر الهند الغربية.

- من جزر الهند الغربية؟

- هذا ما قيل آنذاك.

- نعم، ولكن أين تقع هذه الجزر؟

هزّت ماي كتفيها وضحكت «كيف لي أن أعرف ذلك؟». أقاموا هنا منذ فترة طويلة على ما أذكر. وحتّى لو أخبروني بذلك فإنّني لا أتذكّر. لطالما كنت سيئة في تذكّر الأسماء. مات والد جوزفين عندما

كانت صغيرة جدًّا، ربّما في الحادية عشرة من عمرها تقريبًا. قالت صوفي ستونز بصوت أقرب إلى الصراخ: «هل مات!» أجابتها ماي فورا: «لقد مات يا إلهي! بالتأكيد!» ثمّ تساءلت بنفاد صبر: «هل كلّ هذا من أجل مقالة؟» فصحّحت صوفي كلامها: «كتاب، أكتب كتابًا طويلاً». سألت ماي: «ويتوجّب عليك أن تعرفي كلّ هذه الأشياء، أليس كذلك؟ هذا ممتع ومثير للاهتمام، أليس كذلك؟» ابتسمت صوفي ستونز ابتسامة راضية، وقالت: «بالفعل يا ماي هذا ممتع ومثير للاهتمام أكثر ممّا تظنّين بكثير. ألقِي نظرة على هذه». أعطت صوفي لماي بعض الصور لعازف جاز وسيم طويل القامة يرتدي بذلات داكنة وربطات عنق تتميّز بالكثير من النقوش. يحمل ترومبيتا في يده. «هل هذا واحد من الرجال الذين كانت جوزفين تعزف معهم؟ وهل هذا ساكسفون؟» قالت صوفي: «لا، هذا ترومبيت». ضحكت ماي: «حسنًا، أنا آسفة، لقد قلت لك إنّني جاهلة في الموسيقى». قالت صوفي: «هذا ليس أحد زملائها الموسيقيّين، هذا جوزفين بذاتها». قالت ماي وهي ما تزال تضحك: «أنت تمزحين أليس كذلك؟ لماذا ترتدي ملابس رجاليّة؟» حدّقت ماي أكثر في إحدى الصور. وتمكّنت تحت وجه الرجل، من أن ترى الفتاة التي تذكّرتها. كانت جوزي هناك في تينك العينين. في الحقيقة، إذا دقّقت قليلاً في ذلك الوجه، سترى أنّ جوزفين تغيّرت قليلاً فقط.

سندت ماي ظهرها إلى كرسيها. بدت جوزي وسيمة للغاية وهي تعزف على هذا الترومبيت! وبينما كانت تحدّق في تلك الصورة بذهول عاد إلى ذهنها كلّ ذلك الحبّ القديم. لا يوجد حبّ أمتن من

ذلك الحبّ بين الفتيات عندما يكنَّ مقتبل العمر. لا يشبه الحبّ الذي شعرت به تجاه زوجها أو أيّ شخص آخر أحبّته. لا حبَّ يضاهي ذلك الحبّ الحارق والولاء المحموم، والإخلاص الهستيري، والاستحواذ التامّ. عندما كانت ماي هارت صغيرة كانت مستعدّة للموت في سبيل جوزي. أحبّت كلّ شيء يتعلّق بها؛ شعرها، شفتيها، وكيف تنسدل تنّورتها فوق ركبتيها، ضحكتها العالية المرحة، الطريقة التي تمسك بها بيدك وتلمسك عندما كانت تتحدّث إليك، بل لعلّها أحبَّتْ حتّى صمت جوزفين مور. كان لديها طريقة مثاليّة بالفعل في الصمت! في الحقيقة لقد أحبّت لحظات الصمت أكثر من كلّ اللحظات الأخرى، ذلك الصمت الخجول السخيف والمتحرّك الذي يمكن كسره فقط من خلال الإحراج والضحك الخاصّ بالفتيات.

أدركت ماي وهي تنظر إلى جوزي ترتدي ملابس رجاليّة أنها قد افتقدتها طيلة حياتها. ألا تتمتّع بذوق مميّز في الملابس! انظر إلى تلك البذلة! لم تظهر رفيقتها بهذه الطريقة مطلقاً مرتدية بذلة. كانت على وشك أن تبكي. ذهلت صوفي ستونز. كانت ستكتب لاحقاً في دفتر ملاحظاتها الخاص بمودي: «شعرت ماي هارت بالضيق الشديد لخداع صديقة مدرستها القديمة وأجهشت بالبكاء».

انهارت ماي هارت. وانهار وراءها ستّون عامًا ونيّفًا. كانت ماي وجوزي في الغابة خلف شارع مدرسة «سانتا ماري» الإصلاحيّة، وكانت هذه الغابة بمثابة وكر يلجأ إليه الأطفال الأشقياء، حيث تنكسر أصابعهم من اللكمات، لقد وجدوا فيه مدخلاً مفتوحًا على

الأدغال. كان هناك الكثير من حبّات القرع العسلي المكسورة ملقاة في كلّ مكان. وكان بياض الأجزاء الداخليّة منها يظهر كالكمّثرى المقطّعة. وجدت جوزي وماي ذات يوم بعض القطع بحالة جيّدة وبعض حبّات القرع العسليّة غير المكسورة. كان لونها كلون الحصان البنّي الجميل. كانتا تفركان الحبّات ببعضها البعض حتى تلتمعان، يا للجمال. لقد ثقبتا الحبّات بإبرة الحياكة المعدنيّة وأخفَتاها في حقيبة المدرسة في تلك الفترة من السنة. كان الأطفال يدخلون النفق تباعا ويخرجون من جانبه الآخر وهم يتضاحكون. لقد ثقبتا إبهام كلّ منهما في تلك الأوقات، وأصبحتا أختين في الدم.

انحنت جوزي إلى الأمام وقالت لماي: «هل جرّبت التقبيل؟ ما رأيك أن نتدرّب قليلاً لنصبح جيّدين في التقبيل عندما نكبر؟» قبّلتا بعضهما البعض قليلاً. أعجبت ماي بالتجربة، لكنّها ابتعدت. «ألا نقوم بشيء خاطئ يا جوزي؟». «لا، إنّنا نتدرّب فقط».

قالت صوفي ستونز: «أعرف أنّ هذا قد صدمك فعلاً. هل تعرفين أنّه حتى ابنها لم يكن يعلم أنّها امرأة؟» نظرت ماي مباشرة إلى فم صوفي ستونز، وحدّقَتْ في أسنانها السيّئة وكأنّها مجرمة. كان عليها أن تطردها من منزلها. سألتها: «هل تعتقدين أنّ بإمكاني أن أحتفظ بواحدة من هذه الصور؟ من أجل الأيّام الخوالي». راقبت ماي الصحافيّة تركب سيّارة أجرة. لم تلوّح لها الصحافيّة مودّعة. لقد استشرفت أنّها لن تودّعها. كان عليها أن تراقبها لتتأكّد من أنّ حكمها كان صحيحًا.

لم تكن صوفي ستونز من طينة من يلوّح مودّعًا عندما يغادر. لا

لا لا. كانت تنظر أمامها مباشرة في سيّارة الأجرة السوداء الباردة. أصاب ماي شعور غامر بالغثيان من شدّة الألم في معدتها. ما الذي فعلته بحقّ صديقتها الرائعة جوزفين؟ هل تسبّبت لها في أيّ نوع من الأذى؟ لن تقبل بأن تضرّ بجوزي مهما حصل. التقطت الكأس التي شربت منها الصحافيّة. كان أحمر الشفاه عالقًا على حواف الكأس، نظّفتها جيّدًا، ومسحتها أكثر فأكثر، ثمّ ألقت بها على الأرض وراقبت القطع وهي تتهشّم.

عندما سألت الصحافيّة كيف تمكّنت جوزفين من إنجاب طفل ذكر، بينما كانت تعيش حياتها كرجل، قالت الصحافيّة إن جوزفين تزوّجت من امرأة وقد تبنّتا طفلاً. وعندما سألتها كيف تبدو هذه المرأة، أجابتها الصحافيّة إجابة أحزنت ماي هارت للغاية: «جميلة، مذهلة تمامًا. لديّ صورة لها أعطاني إيّاها ابنها، هل ترغبين في رؤيتها!». «لا، لا داعِيَ لذلك. من الأفضل ألّا أرى الصورة». لماذا سترغب في رؤية صورة زوجة جوزفين مور؟ إنّه لأمر في منتهى السخف. أخذت ماي الصورة التي أعطتها إيّاها الصحافيّة. كانت جوزفين ترتدي بذلة أنيقة، وشفتاها الجميلتان تنفخان في الترومبيت.

الافتتاحيّة

ما الذي حدث لجوزفين مور؟ انظروا إلى هذه الصورة. إنّها هنا بعينيها اللامعتين الذكيّتين والبنيّتين بلون الشكولاتة. كانت الصورة مشوّشة ولو كان لديها صوت لكان صوت الخشخشة والبصاق. إنّها هنا، واقفة بجوار منزلها في ذلك الشارع الحجري المظلم. تمسك بيد إيديث مور التي كانت أصغر سنًّا. كان واضحًا أنّ هذه الابتسامة ابتسامتها الأفضل، الابتسامة الأفضل للعينين المميّزتين للكاميرا. ما كانت لتُلتقط لها صورة في كلّ يوم. كانت ترتدي تنّورة ملوّنة، وركبتاها عاريتين، ولكنّها كانت ترتدي جوارب طويلة بيضاء وبلوزة بيضاء. لا يهمّ إلى أيّ مدى ستبقى محدّقًا في الصورة، لن تتغيّر الملابس التي ترتديها. كانتا محبوستين في زمنهما وفي ابتسامتيهما، ولكنّك في كلّ مرّة تنظر فيها إلى وجه الطفلة سترى فيه شيئًا مختلفا. أوّل مرّة سترى تلك الابتسامة العريضة، وفي المرّة الثانية سترى شيئًا يتعلّق بالعينين اللتين تحدقان فيك. ستلمح عيني تلك الفتاة التي تعرف أنّها ستكون شخصًا مميّزًا.

هل هذا ممكن؟ أم أنت تتخيّل أشياء من صنع أوهامك؟ لا، هناك تلك النظرة، نظرة تعود إلى سنوات طويلة، ومنذ ذلك الوقت وهي تنظر فقط بعينين مشرقتين ومتّقدتين. هل تنظر جميع المسترجلات بتلك العين الواثقة المشرقة، وبتلك النظرة المتوحّشة؟ لا، لا يمكننا أن نقول هذا. تبدو تمامًا مثل فتاة صغيرة، فتاة صغيرة سعيدة. لم تكن تمسك يد والدتها بإحكام. كانت اليدان تستريحان على بعضهما البعض. إحدى اليدين بمثابة مهد لليد الأخرى. انظروا إلى هذه الصورة، انظروا إليها مرّة أخرى. انظروا إليها مجدّدًا. هذه جوزفين مور عندما كانت في السابعة من عمرها. أمّا المرأة التي بجانبها وتمسك بيديها فهي والدتها إيديث مور. التُقطت هذه الصورة في غرينوك، البلدة الإسكتلندية الصغيرة حيث نشأت جوزفين مور.

الفنادق الفخمة

لم يعد لديه المزيد من ويسكي المَلْت. أمسك الهاتف وتحدّث بصوت منخفض. طلب نصف زجاجة من الملت. «ما هي أنواع الملت المتوفّرة لديكم؟» وقف على باب غرفته ينصت منتظرًا قدوم ذلك الرجل المكلّف بخدمة الغرف. عندما سمع وقع خطواته يقترب فتح الباب ووضع إصبعه على شفتيه، وطلب من الرجل أن يلتزم الهدوء. وقَّع على الورقة التي يحملها الرجل وهمس بشيء مّا عن طفله النائم. أغلق باب الغرفة بلطف. استغرق الأمر كأسين من الويسكي ليستعيد شجاعته. سيذهب حتّى بابها، وسيقول لها إنّه خارج هذا الاتفاق. لم يوقّعا أيّ عقد في جميع الأحوال، ولا وجود لأيّ صفقة لعينة.

أخذ قلبه ينبض بسرعة الآن. كان قلبه ينبض بسرعة كبيرة إلى درجة جعلته قادرًا ربّما على أن يشمّ رائحة دمه. ينبغي أن يتوقّف عن كلّ هذا. بدأ هذا الكتاب يلتهمه شيئًا فشيئًا. تخيّل صورة والده هذه، وهو طفلة صغيرة، منشورة في كتاب مع تعليق شرّير تحتها. لا تزال صورة والده تجتاح ذهنه. لن يتوقّف عن تذكّره أبدًا، لن يتركه

بمفرده. قال له: «اقترب منّي، اقترب منّي». ووضعه في سريره. أحبَّ وَقْعَ كلمات والده وكان والده يحبّ وقع هذه الكلمات أيضًا. دفّأت أصوات الكلمات سريره وأغطيته. قال مجدّدًا: «اقترب منّي، اقترب منّي». قرع على باب الغرفة 308 بصوت عالٍ بما فيه الكفاية لتسمع صوت الطّرق رغم صوت التلفاز المرتفع جدًّا.

النـجوم هذا الأسبوع

تبدو هذه الليلة مميّزة جدّا، كما لو أنّ الظلام في حدّ ذاته قلِقٌ. القمر مستدير في كبد السماء بالفعل. القمر في الخارج هناك يتحرّك في غلالة من تلك الغيوم السريعة، وينعكس على الأمواج. يظهر القمر للحظة واحدة، مشرقًا ومهيبًا، ثمّ يختفي في اللحظة التالية. القمر بدر في تمامه الليلة. والنجوم تتلألأ في وجهها. قالت لنفسها إنّها ستموت. ربّما كانت المرّة الأخيرة التي تلمع فيها النجوم ليلتها.

دخلت من عتبة بابها، وكفّت عن النظر إلى الأعلى في سماء الليل الممتدّة، وتوقّفت عن مراقبة ذلك القمر تطارده الغيوم المتدافعة. أوه، يا له من ماكر هذا القمر. يمكنه دائمًا الذهاب بعيدًا. جذبت بابها وأقفلته ووضعت السلسلة. تحقّقتْ مرّتين من أنّ كلّ شيء على ما يرام.

تنهّدت إيديت مور وهي تشغّل الغلّاية. أصاخت السمع لتتثبّت إن كانت هناك أيّ ضوضاء غريبة في الليل. ربّما يكون هذا مأوى للمسنّين، ولكن هذا بالذات ما قد يجذب في بعض الأحيان أشخاصًا

سيّئين يعرفون أنّ هذا المكان لا يضمّ سوى كبار السنّ مع مراقِبة كسولة.

جميع النّاس المسنّين في لارتشيز ضعفاء ويمثلون حقّا فريسة سهلة. جوزفين، جوزفين. خلعت نعالها أوّلاً، ثم تنّورتها وطوتها على ظهر الأريكة في غرفة نومها. خلعت ملابسها الداخليّة بسرعة. باعدت ما بين فخذيها ومدّدتهما، ووضعت أصابعها في الجوارب تريد خلعها ولكنّها شدتها إلى الأعلى مجدّدًا. يمكن للجوارب الصمود ليوم آخر. أنزلت سروالها وانحنت لتسحبه من قدميها. بات الانحناء في منتهى الألم في هذه الأيّام بالنسبة إليها. يعاني ظهرها من التهاب المفاصل، كما تعاني من هذا الالتهاب في وركيها. ارتدت قميص النوم ثمّ وضعت فوقه الرداء. ذهبت إلى الحمّام لتغسل سراويلها. هذا آخر شيء تقوم به ليلاً، تغسل سراويلها دائمًا. لا يمكن أن تبدأ يومًا جديدًا مرتدية سراويل قذرة. تعلّق سراويلها على جهاز التكييف، وتتساءل لماذا لا تزال التدفئة تعمل؟ كانت متأكّدة من أنّها قد أوقفت تشغيل التدفئة. أطلقت الغلّاية صفّارتها. حضّرتْ لنفسها فنجانًا من الشاي، وسكبت فيه القليل من الحليب. تشعر بالسعادة عندما يتطاير البخار الساخن من فنجان الشاي. هي لا تحبّ الشاي ثقيلا أكثر من اللزوم. أخذت فنجان الشاي إلى غرفة نومها وأطفأت جميع الأضواء في طريقها. جلست على طرف سريرها وارتشفت الشاي. لن تتمكّن من القراءة هذه الليلة. لن تتمكّن حتّى من فتح كتابها. ليس هناك أيّ صوت سوى الضجيج الصادر عن نظام التدفئة والتجشّؤ والغرغرة في ظلام الليل.

الفنادق الفخمة

قالت صوفي ستونز بصوت أجش: «أنا لا أصدّقك!».

كانا يجلسان في بار الطابق الثاني من الفندق في الزاوية على الأريكة الجلديّة. كانا من بين أواخر النّاس الباقين في المكان. إنّها الواحدة صباحًا. شرب كولمان كأساً من اللاجافولين. أما صوفي فكانت تشرب الكونياك.

- كيف يمكنك التراجع عن اتفاقنا بهذه الطريقة؟

- يتعلّق الموضوع بأخلاقي، لا يمكنني فعل ذلك.

- أنت؟ أصبح لديك أخلاق الآن؟

- لديّ أخلاق أكثر من وجبات العشاء الساخنة التي تناولتها في حياتك. أجابها كولمان ثملاً. ثمّ تابع محاولاً أن يقول شيئًا أكثر تعبيرًا: لن تتحدّثي عن الأخلاق إذا ما صفعتك على وجهك.

- أنا لا أرى أيّ جانب منافٍ للأخلاق في إنجاز هذا الكتاب. قالت صوفي بعد أن تجشّأت.

- نعم صحيح، ربّما هذه هي مشكلتك.

- من تظن نفسك؟ ردّت صوفي، وقد غالبتها حالة السكْر والإثارة الجنسيّة.

- من أظنّ نفسي؟ أنا كولمان مودي، ابن جوس مودي، عازف الترومبيت الشهير. سيظلّ دائمًا والدي، ولن أتوقّف عن الإحساس بذلك لمجرّد إعداد كتاب عنه.

- إعداد كتاب عنه؟ أنت سكران للغاية حقّا. لا بدّ من أنّك فقدت عقلك. من الواضح أنّنا ثملان أكثر من اللزوم. كلانا ثمل الآن. دعنا نتوقّف عن الكلام في هذا. كول، لن يسبّب هذا الكتاب أيّ ضرر لوالدك. أولاً هو ميت الآن، وثانيًا...».

- أعتقد أنّك قلتِ إنّنا ينبغي أن نتوقّف عن الحديث الآن.

- ثانيا، سيساعد النّاس على تذكّره دائمًا. ستقول الحقيقة فقط، لن نختلق أيّ شيء في ما يخصّه.

- كيف يمكنني أن آخذ حقيبة كاملة من الرسائل من إيديت مور وأضعها في كتاب؟

- لم تتحدّث أمامي عن أيّ حقيبة كاملة؟ هل هذا صحيح بالفعل؟

- أرأيت، ها أنّك تفقدين أخلاقك مرّة أخرى. هذا منافٍ للأخلاق، منافٍ للأخلاق.

- من أنت لتتّهمني بشيء كهذا؟ هذا ليس عدلاً يا كول، لا تكن قاسيًا.

- توقّفي عن مناداتي كول، أصدقائي فقط هم من ينادونني بهذا الاسم، وأنت لست صديقتي.

إيديت مور. إيديت مور أمامه على شاطئ البحر، تمسك بيد فتاة صغيرة، والده. كانت الفتاة تتمتّع بكتلة كبيرة من الشعر الأسود المجعّد، مثله. كانت الفتاة صماء. أخذت الفتاة تلعب معه بدلال. اقتادته إلى القبو. أصبحا فجأة في منزل فاخر. كانا يتحدّثان بالإشارات طيلة الوقت. بدأ المكان يغرق، يمتلئ بالماء فجأة شيئًا فشيئًا. تسرّبت المياه إلى البيت من كلّ مكان. وضع كولمان تلك الفتاة الصماء ذات الشعر المجعّد على ظهره. كان يحاول إنقاذها من الغرق.

صعد السلالم، وهو في منتهى الاضطراب. كانت السلالم الحلزونيّة تتصاعد متشابكة. وبدأت تلك السلالم الحلزونيّة تنهار تحت قدميه. صعد درجتين نصف دائريتين من السلّم بقفزة واحدة. كان يحمل تلك الفتاة الصغيرة على ظهره، وكان عليه إنقاذ حياتها. لا بدّ من أن ينقذ حياتها. لا بد من أن يقوم بذلك.

استيقظ غارقاً في عرقه. كان يرقد في السرير بجانب صوفي ستونز. اللعنة! كيف حدث هذا؟ لا يمكنه أن يتذكّر أيّ شيء. كان آخر مشهد في رأسه عندما كانا في البار. أضاء ساعته في الظلام. إنّها الساعة الرابعة صباحًا. نهض بهدوء وأخذ ملابسه من على الأرض؛ سراويله الداخليّة الحريريّة والبنطلون والقميص. وضع ملابسه تحت ذراعه على عجل وتسلّل إلى الغرفة 310. ولكنه لم يحضر بطاقته اللعينة. كان واقفًا في الممرّ عاريًا. كان عاريًا تمامًا بشكل يدعو إلى

السخرية. غطّى جسمه بيديه محاولاً أن يحمي نفسه. يا إلهي، لا يمكنه أن يبقى على هذه الحال المضطربة حتّى الصباح. ثيابه! حمد الله لأنّه قد جلب ملابسه معه. كانت الملابس هناك مكوّمة أمام باب غرفته. لا بدّ من أنّه قد رمى الثياب من يديه. التقط بنطلونه وفتّش في جيوبه باحثًا عن البطاقة، لم يجد شيئًا. ارتدى سرواله على عجل. اللعنة، ليس أمامه سوى أن يواجه عمّال الاستقبال في الساعة الرابعة صباحًا وأن يطلب منهم مفتاحًا لعينًا آخر.

الافتتاحيّة

ماذا يفعل الكاتب الذي يكتب لشخص آخر (الكاتب الشبح) عندما يحجم ذلك الشخص عن المتابعة؟ إذا تملّكت الأشباح والغيلان والخوف الشديد من ذلك الشخص؟ ما الذي سيفعله الكاتب الشبح إذا فقد ذلك الشخص اهتمامه بالكتابة؟ ألا يجعل ذلك من الكاتب الشبح شخصًا لا لزوم له؟ كيف يمكن للكاتب الشبح إقناع ذلك الشخص بأن هذا الموضوع جدير بالاهتمام فعلاً؟

حقيقة ثابتة: كثيرًا ما يقع الكاتب الشبح في حبّ الشخص الذي يكتب له.

حقيقة ثابتة: يصبح كتّاب السيرة الذاتيّة مسكونين بالشخصيّة التي يكتبون عنها. وبعد وقت قصير يفقدون القدرة على البقاء على مسافة واضحة والقدرة على تمييز الحدود بين حياتهم وحياة موضوع كتابتهم.

يعتقد الكثير من الكتّاب الأشباح أنّهم يمتلكون سلطة حقيقيّة على موضوع كتاباتهم لا يمتلكها أصحاب الموضوع أنفسهم. وهكذا

ينفعلون انفعالاً شديدًا في حال اختلف معهم أصحاب موضوع كتاباتهم ولو قليلاً.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

البيوت من الداخل

اتّضح أنّني غرقت في النوم بعد أن ثملت الليلة الماضية، وكان كولمان يتقلّب بجانبي. لقد شعرَت حقًّا بالإثارة، أوقدها تخيّل فكرة ارتداء ملابس رجاليّة والعزف على الترومبيت. دار الكثير من الكلام حول رغبة جوس مودي الشديدة في العزف على الترومبيت. وظهرت بعض المقالات التي تتحدّث عن عدم وجود موسيقيّات نساء في عالم الجاز في الخمسينيّات. كان هناك الكثير من التعاطف هنا وهناك. وكان هناك الكثير من الأشخاص المتفهّمين جدّا لهذا الوضع. ولكن إذا قلت لهؤلاء النّاس إنّ هذا الموضوع كلّه لا يتعلّق سوى بالعزف على الترومبيت، فماذا سيكون رأيهم؟ هل سيحتفظون بموقفهم المتفهّم هذا؟ لقد أحبَّت أن تضع تلك الضمادات، أليس كذلك؟ أحبّتْ ذلك التنكّر، أن تتنكّر وتتجوّل بين الناس وتخدع الجميع. أحبتْ الذهاب إلى حمّام الرجال. كان لديها هوس بالذهاب إلى حمّام الرجال، أليس كذلك؟ وأن تملّس شعرها وتسحبه إلى الوراء، وأن تحصل على قميص رجاليّ جديد، وأن تفكّ الدبابيس، الدبابيس

الصغيرة، أن تحلق ذقنها، وأن تضع رغوة صابون الحلاقة وتفركها على وجهها.

الأهمّ من ذلك كلّه، أنّها أحبّتْ ذلك النفوذ والسلطة. السلطة؛ تلك الطريقة التي تعاملها بها النساء، والطريقة التي يعاملها بها الرجال، أن تمشي في الشارع بتلك المشية التي لا بدّ من أنّها قد تدرّبت عليها. لقد شاهدتُها في مقطع فيديو. درستْ هذه المشية بدقّة. لم تستيقظ في يوم من الأيّام هكذا لتقول لنفسها: «قرّرتُ أن أصبح رجلاً». لا بدّ من أنّها قد تدرّبَتْ أوّلاً على ذلك. لا بدّ من أنّها قد فكّرت في ذلك كثيرًا. ولا بدّ من أنّ ذلك لم يكن سهلاً عليها مطلقًا، أن تختفي بهذه الطريقة. كان ذلك في منتهى الإنهاك. كلّما حاولت أن أخفي شيئًا مّا، ارتفعت مستويات القلق لديّ. كما يدقّ قلبي بسرعة كبيرة عندما أبدأ بالخداع. لقد غيَّرَتْ المدينة التي تعيش فيها، أليس كذلك؟ انتقلت بعيدًا عن غرينوك، ثمّ أصبحَتْ رجلاً. كان عليها أن تجد مدينة أخرى، جلاسكو، ثمّ مدينة أكبر في ما بعد مثل لندن. لم يكن باستطاعتها المخاطرة بالبقاء على اتّصال بوالدتها، ليس لفترة طويلة بالطبع.

متى كانت آخر مرّة رأت فيها إيديث مور ابنتها؟ أتمنّى لو فكّر كولمان في أن يسألها عن هذا. لا بدّ من أنّها درست تلك المشية جيّدا وتدرّبت عليها. وكذلك النظرة الواثقة. نعم هذا صحيح، لقد أحبّتْ العزف على الترومبيت، ولكنّ الموضوع لم يتوقّف على هذا فقط. لقد أحبّتْ أن تكون رجلاً، بكلّ بساطة ونقاء.

ربّما يكره الجمهور هؤلاء المنحرفين، ولكنّهم يحبّون القراءة عنهم. لماذا؟ لأنّ الجميع يحمل بداخله القليل من الانحراف. يتابع كلّ شخص حياته مع القليل من الانحراف الذي لا يعترف به في داخله، انحرافٌ سريّ مكروه. أنا متيقّنة من هذا. لديّ الكثير من الشخصيّات في خزانتي. وسارّة أيضاً على الرغم من أنّها لا تعترف بذلك. فهناك بعض الأشياء التي لا نتحدّث عنها مطلقًا في الأوساط العائليّة.

عندما استيقظتُ في الساعة السابعة وعشر دقائق كان كولمان قد ذهب. لم أسمعه وهو يغادر. استيقظتُ ونظرتُ حولي في الغرفة التي تعمُّها الفوضى؛ زجاجات وأكواب، وكانت ملابسي مرمية على الكرسي دون اكتراث، على الرغم من أنني لا أتذكّر أنّني قد طويتها. هناك ملاحظة على مرآة الماكياج. «لا يمكنني القيام بهذا، آسف يا صديقتي... كولمان». أمسكتُ الملاحظة وطويتُها بعنفٍ وصنعتُ منها كرةً ورقيةً صغيرةً. ثمّ رميتها ككرة السلّة في سلّة المهملات.

النذل، النذل اللعين.

فتحتُ صنبور الحمّام. صديقتي، إنّه يحاول إذلالي. لا بدّ من أن يعلم أنّه لا يستطيع التراجع الآن. فهناك الكثير من الأشياء على المحكّ. سأتحوّل إلى أضحوكة. لقد أخبرتُ الجميع عن هذا الكتاب. سأسوّي الأمور معه لاحقًا. كان الموضوع مجرّد كأس من الشراب فقط. كان مجرّد كلام تلفّظ به وهو ثمل. لا ينبغي أن نشرب كثيرًا بعد اليوم. كنت أريده أن يتحدّث، لا أن يتراجع عن كلّ شيء. ربّما لا يزال نائمًا في الغرفة المجاورة. من الأفضل أن أجعله ينسى كلّ هذا.

اكتشفتُ أنّ والدي لم يكن رجلاً، بل امرأة، قبل عشرة أسابيع عندما ذهبتُ إلى صالة الجنازات في شمال لندن، حيث استلقتْ جثّتُه هناك. إذا قلت إنّني قد شعرت بالذهول التّامّ، فلن يعبّر هذا حقًّا عن شعوري الحقيقي حينها. لقد صدمتُ صدمة هائلة. شعرتُ حقًّا بالخيانة. في الحقيقة لم أتمكّن من تصديق ذلك، ولكن كان عليَّ أن أفعل. كانت أعضاء جسد تلك المرأة هناك أمام أعين الجميع. بالنسبة إلى ذلك الرجل الذي ظننت أنّه والدي، فقد بدا الثديان وشعر العانة مثيرين للاشمئزاز. كان منظرًا عجيبًا. ربّما لو تحوّل إلى شخص أمهق، لكان ذلك أقلّ صدمة بالنسبة إليّ. بدا منظر شعر العانة والثديين بشعًا وفي منتهى الوحشيّة.

أصابني ذلك المنظر بصدمة رهيبة، وتسبّب في ردّة فعلي، إذ قرّرت أن أؤلّف عنه كتابًا. اعتقدتُ أنّني إذا وضعت كتابًا عن هذه الصدمة، فقد يساعد ذلك الآخرين. أدرك تمامًا أنّه ليس هناك الكثير من الأشخاص الذين قد يجدون أنفسهم في وضع مثل وضعي هذا (لا بدّ من أن تعرف كم أنت محظوظ). ورغم ذلك هناك الكثير من الأشياء غير العاديّة التي تحصل للكثير من النّاس، وربّما يؤدّي الأمر بأيّ شخص قد يحصل معه شيء عجيب كهذا، إلى تجربة إعداد كتاب. اضطررت إلى تأليف هذا الكتاب لأتمكّن من فهم والدي وكي يتسنّى لي أيضًا أن أفهم نفسي.

أراجع ما كتبتُه. إنّها مجرّد مسوّدة أوّليّة، ولكنّني راضية عن النتيجة حتّى الآن. إنّها فكرة جيّدة استخدام ضمير المذكر «هو»،

هذا ما فعله كول. يمكنني العودة إلى هذه المسوّدة لاحقًا بعد وجبة الإفطار، لأغيّر كلمة أو كلمتين هنا وهناك. ربّما يمكنني حذف عبارة (لا بدّ من أن تعرف كم أنت محظوظ). لا بدّ لكولمان من أن يعرف من خلال هذا أنّني لا أنوي نشر كتاب عادي من كتب الصحافة الصفراء، فأنا لست مجرّد كاتبة شبح عادية لعينة. لديّ أيضًا حساسيّاتي الخاصّة. ربّما سيشعر بالكثير من الإطراء والرضا عندما يعلم إلى أيّ مدى تتفهّمه صوفي وتعرفه. لقد فُتنت به حقًّا، دخل تحت جلدي. ألا تنفع هذه العبارة كأغنية جاز؟ يمكنها أن تكون عنوان أغنية. نعم بالفعل! رفعت قبضتي عاليًا منتصرة، خاصّة الآن، ماذا لو كان اسم الكتاب بأكمله: «كولمان الذي دخل تحت جلدي». هذا رائع تمامًا، سأقترح عليه ذلك. ولاحقاً بعد زجاجة من النبيذ الجيّد ووجبة عشاء لذيذة، يمكننا أن نجرّب ذلك المطعم التايلاندي الليلة. ربّما يفاجأ بأنّني مازلت أتبادل معه الحديث. سأفتقد كولمان عندما ننهي هذا الكتاب. يا لكول السخيف وملاحظته الغبيّة!

المنزل والوطن

طيور النورس تحلّق على شكل حرف من حروف الهجاء؛ الحرف V. كان أحد طيور النورس متمرّدًا وخرج من السرب. تابعتُه بعينيّ. السماء باهتة والجوّ عاصف. مشيت إلى «كبير» عبر الطريق الساحلية، وكان البحر تحتي. لقد كبرتُ في السنّ ومضت عليّ السنين وهذا البحر في حياتي.

لطالما كانت الرياح تمثّل الشريك البرّيّ الراقص للبحر. لدغتْ الرياح وجهي وخدَشَتْ الجزء الخلفي من رقبتي. أتذكّر كيف كنت أمسك يد كولمان الصغيرة بإحكام، لنمشي في هذا الطريق نفسه إلى القرية. أتذكّر دائمًا كيف كنّا نغدو وهو يحمل شبكة الصيد. أتساءل إذا ما كان يتذكّر أيّ شيء من هذا؟

عندما بدأت الصحف بطباعة تلك الأكاذيب الرهيبة كنت على وشك أن يغمى عليّ. لقد صعقت فعلا عندما اطّلعت عليها. تخيّلت كلّ شخص عرفته يومًا يقرأ هذه العناوين. تخيّلت جوس يقرؤها. خلال تلك الأيّام الثلاثة الأولى، شعرتُ بأنّ حياتي بأكملها قد دُمّرت.

ليس بسبب وفاة جوس فقط، بل بسبب الأخبار التي انتشرت حول وفاته. أمّا اليوم، فقد أصبحت المقالات في الصحف تتنقّل مثل الغربان بحثًا عن جيف أخرى، وأصبحت قصّتُنا حكايةً قديمة. وإذا وضع كولمان هذا الكتاب، فسيعيد كلّ شيء إلى دائرة الضوء مجدّدًا. لا يمكنني تحمّل ذلك. لا بدّ لي من القيام بما ينبغي لي فعله. كنت قد كتبت لكولمان أقول له إنّه إذا وضع هذا الكتاب فلا أريد أن أراه مجدّدًا في حياتي. وكتبت لها أيضًا، لصوفي ستونز أقول لها إنّها لو تابعت ما تفعله في ما يخصّ هذا الكتاب فسأتّصل بالمحامين. كتبتُ لها قائلة: «ما رأي والديكِ بكِ عندما تقومين بإنجاز كتاب مثل هذا ضدّ إرادة الآخرين، من المؤكّد أنّهما سيرفضان». قلتُ لنفسي إنّها لو كانت تتمتّع بأدنى قدرٍ من التربية، لأزعجها ذلك حقًّا. كتبتُ عنوان ذلك الفندق في جلاسكو على الظرفين الأبيضين للرسالتين. سألتني السيّدة ماك جونيجال في مكتب البريد: «كيف حالك، سيّدة مودي؟» قلت وأنا أمرّر الرسائل من تحت الزجاج: «أنا بخير، كيف حالكِ أنت؟».

تلقّيتُ رسالةً جميلة هذا الصباح، وصلت إليّ من خلال السكرتيرة. رسالة رائعة من مجموعة من النساء اللواتي يعزفن موسيقى الجاز واللواتي يرغبن في تشكيل فرقة. تريد هؤلاء النساء تسمية الفرقة: «جوس مودي ميموريال باند». منحتني هذه الرسالة الكثير من الأمل. لست متأكّدة تمامًا ما إذا كانت هذه الفكرة ستعجب جوس أم لا، ولكنّها أعجبتني.

السفر: الطريق الساحلي

سلك الباص المحلّي الطريق الساحليّة المتعرّجة القديمة نحو «لاير». كان البحر على يمينه. جلس قرب النافذة يتأمّل الطريق. لقد مرّ وقت طويل جدًّا منذ آخر مرّة سلك فيها هذا الطريق. كانت التلال بعيدة، ولكنّه تمكّن من إدراك الأشكال التي ترسمها، الجبهة العملاقة (ذا جاينت فورهيد)، الإصبع الطويلة (ذا لونغ فينجر)، الأرنب النائم (ذا سليبنغ هير). هذه الحافلة الثالثة التي يمتطيها اليوم. من محطة بوكانان Buchanan للحافلات في جلاسكو إلى محطة سانت أندروز St Andrews، ومن سانت أندروز إلى محطة بيتنويم Pittenweem، ثمّ من بيتنويم إلى كيبر Kepper.

كان عليه أن ينتظر في محطة سانت أندروز الحافلة القادمة لمدّة ساعة. اتّصل هاتفيًّا ببروس سافاج الجزّار. قال بروس: «آه، كولمان، كولمان، كيف حالك؟ أنا في غاية الأسف لسماع نبأ وفاة والدك». كان أوّل شخص يقول هذا لكولمان، وبهذه البساطة. أدهشه ذلك بالفعل. سأله كولمان: «هل يمكنك إيصال رسالة إلى أمّي؟ هل يمكنك أن

تقول لها إنّني قادم لرؤيتها بمفردي، وإنّ حافلتي ستصل إلى هناك على الساعة الرابعة وعشرين دقيقة».

قال بروس: «طبعًا، لا مشكلة بتاتًا».

- «شكراً، لا بدّ من أن تقول لها إنّني بمفردي، هل هذا ممكن؟».

قال بروس ضاحكًا: «بمفردك، فهمت الرسالة. ما الذي حدث؟ هل كسَرَتْ قلبكَ في النهاية؟»

استدارت الحافلة عند معطف ضيّق عالٍ، أصبح الآن على الجهة المقابلة للميناء. يمكنه رؤية «كيبر Kepper» من بعيد.

كان وجهه على مقربة من نافذة الحافلة. وذلك هو ميناء الصيد القديم نفسه، حيث أمضى الكثير من الساعات الطويلة عندما كان صبيًّا. كان هناك مع والده وأنغوس على قارب التجديف القديم، بانتظار أن يعلق شيء بالصنارة، كان يفتح علبة القصدير التي تحتوي على الديدان أو العلبة التي تحتوي الطُّعم الطازج، ويربط فلّينة الصيد والذباب بالخيط، ويختار الصنارة اللازمة. كان يغمره إحساس غريب، ثمّ يضربها بمطرقته. كانت الأسماك تقفز أحيانًا من يده وترفرف على القارب، حتى بعد أن تكون قد ماتت. رفرفة السمك تلك بعد الموت تدهشه دائمًا. كانوا يجلسون بصمت هو وأنغوس ووالده، ليحافظوا على الهدوء أمام الأسماك لجذب الكبيرة منها. ذلك الصمت الخاصّ بالصيّادين. بإمكانه الآن أن يرى والده، ممسكًا الرافعة ذات الأرجل الثلاثة من نهايتها، مبتسمًا ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن. قال والده: «لقد أمسكت بها».

أخرج رسالة والده، تلك التي كتب عليها «تُفتح بعد موتي» وأخذَ نفسًا عميقًا. أصبح جاهزًا لقراءتها. وبصرف النظر عمّا تقوله هذه الرسالة، بدا مستعدًّا لتقبّله. فتَحَها بعنايةٍ وحذرٍ. كانت رسالة طويلة. لا بدّ من أنّها استغرقت فترة طويلة منه لكتابتها.

الكلمة الأخيرة

لقد أردتَ أن تعرف قصّة والدي، أتذكُر؟ قلت لك إنّ قصّته قد تكون كقصّة أيّ رجلٍ أسود جاء من أفريقيا إلى إسكتلندا. كانت قصّته كما قلت لك، قصّة الشتات. تصبّ كلّ قصّة في النهر نفسه، وذلك النهر ذاته يصبّ في البحر، ولكنّني غيّرت رأيي، فأنا أحتضر الآن، وذلك ليس من الحمّى فقط، وأنا لا أتصبّب عرقًا وحسب، أنا أنير شمعة لنفسي. يمكنني رؤيته بوضوح كما لو أنّني هناك بالفعل، فهو الذي أخبرني القصّة.

جاء والدي على متن قارب، اقترب من الشاطئ، شاقًّا طريقه في البحر ليدنو بما فيه الكفاية في زخم الضباب الكثيف. أطلق السكّان المحليّون على هذه الضباب اسم «الضباب الكثيف حقًّا». لم يكن قد رأى الضباب في حياته من قبل. وكان الهواء رطبًا وغريبًا عن جلده حتى كاد يتجمّد. ما هذا البلد الشبحي الخيالي. يكتنف عدم اليقين هنا النّاس والطقس معًا. حدّث نفسه: «يالهم من أناس أشباح، خياليّين لا لون لهم. كان صبيًّا صغيرًا مليئًا بالمخاوف. قال إنّ الحياة قد عادت

حينها إليه. سحب أشخاص آخرون السلاسل الرفيعة فتمسّك بها بأطرافه. كان هذا البلد الجديد عبارة عن شبح رطبٍ وأصابع متجمدةٍ تحاول تدفئة وجنتيه، كما لو أنّه قد خرج من تلك السفينة إلى اللامكان، وكأنّ ذلك الهواء الرمادي الغريب قد ابتلع يديه وقدميه وجسده بأكمله.

كان ذلك في مطلع القرن العشرين. قال إنّ النّاس المسنّين في مطلع القرن كانوا يتراجعون ويتركون المجال للشباب لكي يتقدّموا إلى الأمام. عندما انتهى القرن تغيّر الجميع معه، وكأنّهم جميعًا في حلبة رقصة الريل الإسكتلندية. فتح البعض صفحة جديدة، وتعامى الآخرون عمّا يحدث، وأغلقوا آذانهم. أدار البعض اتّجاه الطاولات الممتدّة وجهّز نفسه للتقدّم، وانزلق البعض متراجعًا إلى الوراء، إلى الماضي، انزلق إلى الماضي باتّجاه اللغة واللسان القديمين. عندما يتحرّك بندول ساعة قديمة كبيرة إلى الأمام، فهناك دائمًا شخص مّا يعيده إلى الوراء. شخص يمقت التقدّم ويغضب منه أو شخص قرّر أنّ كلّ تغيير سيأتي لا بدّ من أن يكون تغييرًا سيّئًا. شخص يرى أنّ الساعة التي سيقلب فيها كأسه في متناول يديه دائما.

في مطلع هذا القرن، رغب بعض الناس في الخيانة، في الهروب والفرار. أمّا التائبون فذهبوا بعيدًا ببطء نحو مطلع القرن يرتدون معاطفهم السوداء الطويلة. جاء القرن الجديد كشيء برّي متوحّش في عاصفة، وصل إلى الشاطئ بوجهٍ رطبٍ. وعندما وصل والدي لأوّل مرّة إلى إسكتلندا في مطلع هذا القرن، وجد هناك النّاس الواقفين منذ

مدّة طويلة متجمّعين معًا يرتدون معاطفهم الطويلة الداكنة بوجوه طويلة شاحبة. وقفوا قبالة الجدار الصخري للميناء. بدوا كأنّهم قد نبتوا على الصخور. كانوا ثابتين، كأنّهم لا يتحرّكون من مكانهم. كانوا متجمّدين، كأنّهم نقوش على الجرف الصخري. كانت السفينة العملاقة راسية قبالتهم. نظر والدي إلى الخلف ليلقي نظرة عليها. يا لغرابة منظر السفن الواصلة حديثًا عندما ترسو على البحر، كم تبدو غير واقعيّة.

كاد لا يُصدّق كيف أحضرته تلك السفينة الضخمة إلى هنا. بدا الأمر خيالا جامحًا، وبدت الأحرف المكتوبة بخطّ مائل على جانب السفينة عنوانَ ملحمة سرديّة. اسم السفينة HMS Spiteful. وكلّما اقترب من الأشخاص الذين ينتظرون الركّاب لينزلوا إلى الميناء صاروا خياليّين بالنسبة إليه. كانت البشرة البيضاء أشبه بالبشرة الشفّافة لشبح. بدا هؤلاء كأنّهم لن يجدوا الأشخاص الذين ينتظرونهم. كان السقوط والفقد يهبّ من أيديهم في محاولة منهم للعودة إلى الحياة. كانوا يقفون هناك ينتظرون منذ فترة طويلة بخدودهم الشاحبة في ذلك الطقس السريّ الغامض. اعتاد والدي أن يقول عنهم ساخرًا إنّهم القرن الماضي.

عندما رآهم والدي من خلال الضباب، ليميّز يدًا أو حذاءً أو قبّعةً أو كتفًا، ليميّز شخصًا مّا يمسح وجهه بقبضته عبر الضباب الباهت، شعر هو بدوره بأنّه كان شبحًا دون جسد. كان جسده متكسّرًا أيضًا بسبب الضباب. لم تكن يده اليسرى ظاهرة ولا فردة حذائه اليسرى. ولكن عن قرب، ظهر النّاس فجأة وظهرت أجسادهم الحقيقيّة. لم

ينسَ في حياته مطلقًا أوّل ترحيب تلقّاه هنا. قال لي إنّه قادر إذا ما أغمض عينيه على رؤية كلّ ما حصل حينها.

الغريب أنّ ذاكرته قادرة على العودة إلى الماضي واستعادة الضباب والرطوبة والفراغ. قال لي أكثر من مرّة إنّ الذاكرة شيء في منتهى الغرابة. يمكنني تذكّر ما تعتقد أنّه غير قابل للتذكّر، الغموض والتيه وطعم الهواء الرطب، ولكنّه لا يستطيع أن يتذكّر ما يريد أن يتذكّره بالفعل. قرأ العديد من الكتب لمعرفة ما إذا كانت ستذكّره بما أراد أن يتذكّره: الغبار الساخن على الطريق الأحمر، وشجرة جاكاراندا الاستوائية، وأنفاس والدته الحارّة على خدّه. قال والدي إنّ المشكلة مع الماضي هي أنّك لم تعد تعرف ما يمكنك أن تتذكّره. لقد فقدتُ أيّ ذكرى تتعلّق ببلدي الآن. لقد غرق بطريقة أو بأخرى في البحر في جنح الظلام، خلال تلك الليلة الدهماء. قال لي إنّه في بعض الأحيان كان ينحني عليه كأنّه يخبره قصّة غريبة عن الأشباح، ربّما تسمع بلدك في بعض الأحيان ينتحب في الرياح، قبل أن يغرق. قال لي: «سيظلّ بلدي يطاردني دائمًا، إنّه بلدي».

وصل والدي إلى إسكتلندا. لطالما كان القدر عبارة عن شيء جميل وفظيع. عندما كان والدي في السادسة من عمره، أقنع قبطان السفينة الإسكتلندي باصطحابه معه في عودته إلى إسكتلندا ومنحه بعض التعليم. وعندما وصلت السفينة إلى غرينوك، بجانب ميناء جلاسكو، كان روبرت دنكان-براي هناك للقائها. كان يعرف قائد سفينة HMS Spiteful وطاقمها، وعرض عليهم أن يأخذ والدي

ويمنحه منزلاً. كانت الحياة كما قال مثل رمح من البرق. بإمكانه أن يعرف بالضبط متى يمكن لقرار مّا أن يختلف بعنف عن قرار آخر، ومتى يشرق مستقبل جديد أمامه.

إنّها المرّة الأولى التي يركب فيها والدي عربة يجرّها حصان. لم يكن يستطيع في البداية أن يسيطر على الحصان. كان هذا الحصان مثل مخلوق قادم من الخيال، نصفه مخفيّ تقريبًا في الضباب، لن ينسى صوته وهو يضرب بحوافره على الأرض، وينتظر بفارغ الصبر أن يتحرّك ويطرق بحوافره الطريق المرصوفة بالحصى. سمع الحصان يزفر أنفاسه في الشارع ويرفع رأسه الضخم عاليًا حتّى يصل إلى الآلهة. كان لدى الحصان رسن حول وجهه يشدّه الشخص الذي يركبه باستمرار. كانت عائلة دنكان-براي عائلة مميّزة. ساعد السيّد دنكان-براي والدي ليصعد على درجات العربة، ونام والدي على وقع حوافر الحصان وهي تضرب الطريق. كان صوت حوافره مثل أصوات الآلات الموسيقيّة، مثل الموسيقى التي كان يعرفها من قبل.

عندما وصل إلى المنزل الكبير، أعطوه وعاء من العصيدة. كانت تبدو كأنّها قطع من الضباب بداخلها قطع أخرى من الطعام. ابتلع العصيدة بالملعقة. لم يكن لها أيّ نكهة على الإطلاق، فوضعها أمامه. قاده أحد أفراد العائلة إلى سرير وتركوه لينام لفترة طويلة جدًّا. لم يكن دنكان-براي قاسيًا على والدي، ولكنّه افتقد والدته وبلده وبلد أمّه. كان صوت والدي في غاية الروعة حين يُغنّي، وكان قادرًا على أن يُغنّي لي من ذاكرته أيّ أغنية شعبيّة أردتها.

كانت تظهر تلك النظرة الساهمة على وجهه كلّما غنّى لي أغنية شعبيّة إسكتلنديّة.

«هيلا هوب، يا أولاد، اتركوها تذهب يا أولاد، لتحرّك رأسها دائريًا، هيّا جميعًا مع بعضنا البعض».

لم أسمع مطلقًا باسم عائلة متوارث يتكوّن من أقلّ من مقطع أو اثنين. أصبح اسم والدي خادم دانكان-براي. كان يلمّع حذاء السيّد دنكان-براي، حتّى يرى وجهه الأسمر فيه. ويلمّع الفضيّات والخشب الداكن وأرضيّة المطبخ القاسية. أزال الغبار عن الكتب الكثيرة في مكتبة السيّد دنكان-براي. لقد علّم نفسه القراءة. عشق العالم الداخلي للكتب، وأصبح يُجيد اللغة، ليتعلّم باستمرار كلمات جديدة، حتى لو اكتشفها بطريقة خاطئة. كان يتذكّر أنّه أمضى فترة طويلة يقول: «هذا إنجاز جيّد». لم تحبّ الطاهية لسانه الأسود المزخرف. قال إنّها كانت تشعر بالغيظ الشديد من الدونيّة. لقد أخافها هذا في حقيقة الأمر. من كان يظنّ نفسه ليتجوّل في المطبخ مع كلماته الحادّة المقوّسة، يلتمع في أرجاء المكان مثل سكاكينها الحادّة. سئم تمامًا من كونه خادمًا في هذا البيت. ولم يكن يتوافق كثيرًا مع تلك الطاهية.

عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره، قال للسيّدة دنكان-براي إنّه يريد أن يذهب بعيدًا. قال لها: «سيّدتي أودّ أن أصبح رسّامًا». كان قد رسم في تلك الرحلة الطويلة إلى إسكتلندا على متن السفينة بابين من أبواب المقصورة، ولقد أحبّ ذلك فعلاً. وهكذا غادر منزل عائلة دنكان-براي وأصبح تلميذًا متدرّبًا في منزل الرسّام دندي، وكان

يكسب عيشه جيّدًا ويمارس مهنته. رسم أحدهم لوحة لوالدي تركتُها لك بين الأغراض. كان اسم اللوحة مامبو جامبو، ما جعلني أغضب منها أكثر من أيّ ذكرى أخرى متعلّقة به. لم ينادوه حتّى باسمه. حتى الاسم الذي منحوه له، جون مور، لم يكن اسمه الأصلي. هذا شيء متأصّل في عائلتنا؛ لطالما قمنا بتغيير أسمائنا. لدينا جميعاً هذا القاسم المشترك. لقد غيّرنا أسماءنا جميعًا، أنت وأنا ووالدي. كلّ لأسبابه المختلفة. ربّما ستتفهّم يومًا ما السبب الذي دعاني إلى ذلك.

عندما كنت في الحادية عشرة، مات والدي. أتذكّر وجه أمّي المنقبض، وصمتها الرهيب. أتذكّر ذلك الهدوء المرعب في منزلنا من دونه. يا لذلك الشعور المروّع الشبيه بالحلم الذي كان يكتنف كلّ هذا. كيف ظللتُ أتوقّع لعدّة أشهر أن أستيقظ وأجده أمامي مجدّدًا بشحمه ولحمه. أتذكّر الحزن في ما تخبزه والدتي. فاجأتها مرّة تبكي فوق عجينتها. لم تتمكّن بتاتًا من تخطّي موته. ولم أتمكّن أنا بدوري من تخطّيه. لقد تغيّرنا كلانا للأبد بسبب وفاة جون مور. لم يعد هناك أحد لينظر في وجهي مثلما كان يفعل، بعينين ساطعتين محبّتين، ولم يعد هناك أحد يصفّق لي بإيقاع منتظم عندما أرقص وأغنّي. كان حبّ أمّي معقولاً أيضًا، ولكنّه حبّ مختلف، لا يشبه حبّ والدي. أفتقد كثيرًا تلك الأوقات عندما كان يمسكني بيده السوداء في الشارع. أنظر إلى يده، ثمّ أقارنها بيدي. كنت بمفردي ذات مرّة أنظر في يدي، محاولاً تذكّر خطوط الحياة في يد والدي. كانت خطوط الحياة في يده داكنة أكثر من خطوط الحياة في يدي، خطوط حياته وقلبه.

ربّما ستتفهّم ما أقول، وربّما لا. لقد عرفت بأنّك ستأتي إلى هنا. عرفت بأنّك ستأتي إلى هنا لتبحث بين الأغراض. لقد تركت لك كلّ شيء، الرسائل والصور والسجلّات والوثائق والشهادات. كلّ هذه الأشياء هنا؛ أغراضك وأغراضي. جلست هنا هذا الصباح وأردت التخلّص من كلّ هذه الأشياء. أردت إحراق كلّ شيء، ولكنّني منعت نفسي من ذلك. فلو فعلت سأحرق نفسي حرفيًّا. لم أستطع أن أفعل ذلك بنفسي وبموسيقاي، ولكنّ الأهمّ من ذلك كلّه أنّه لا يمكنني أن أفعل هذا معك.

قلت لنفسي: «من سيتفهّم كلّ هذا؟» ثم فكّرت فيك. سأترك نفسي لك. كلّ شيء حصلت عليه في حياتي. جميع الرسائل التي كنت أخفيها. اكتشفت شيئًا غريبًا ربّما لا يمكن أن تكتشفه سوى عندما تحتضر، أتمنّى ألّا تجرّب هذا! اكتشفت أنّ المستقبل شيء آخر تمامًا، وأنّ مخاوفنا تافهة جدًّا. الأمر في غاية البساطة: كلّ هذه الأشياء هي ماضيّ، إنّها عبارة عن تلخيص كامل لنفسي. أمّا أنت فمستقبلي.

سأكون ابنك الآن بطريقة غريبة مّا. ستكون عبارة عن والدي الذي يخبر النّاس أو يمتنع عن إخبارهم بقصّتي. (فأنا لم أولد أمس).

جعلتني فكرة أنّك ستمرّ يومًا مّا بكلّ هذا أشعر منذ بضع سنوات بسوء. ربّما ستتفهّم كلّ هذا، وربّما لن تتمكّن من ذلك. ربّما ستحتفظ بذكراي وربّما ستنساني. ربّما تكرهني وربّما تحبّني. ربّما ستغيّرني أو تتمسّك بي يا عزيزي. ربّما ستمرّ ببعض هذه المشاعر أو جميعها لسنوات طويلة. ولكنّني ذاهب الآن. لن أعود إلى الحياة.

عاد والدي إلى هذا السرير وهو يغنّي. الحاضر مجرّد عقدة أخرى في الخيط.

«ري! يا هو، يا أولاد، دعوها تذهب، يا أولاد».

هل تتذكّر عندما كنت تجلس على كتفي؟ هل تذكُر دائمًا جلوسك على كتفي؟ هل تذكُر عزفك على ترومبيتي؟ هل تذكُر صيد الأسماك على القارب القديم مع أنغوس؟ لقد أصبحت سخيفًا حقًّا: أنا آسف، تذكّر ما تريد. لقد قلت لك كلّ شيء. جاء والدي على قارب، استطاع أن يقترب بما فيه الكفاية من الساحل.

مكتبة ياسمين

telegram @yasmeenbook

النصيب

مشت المرأة إلى أسفل التلّ لتصل إلى الميناء. كانت الحافلة قد وصلت بالفعل. أسرعت في مشيتها. وعندما انعطفت عند الناصية، رأته بينما كانت قوارب الصيد تمخر المياه ببلادة. كان يسير نحوها. هو يتحرّك مثل والده. أفزعها طائر مّا عندما طار بالقرب من رأسها. بدا كأنّ الطير قد جاء باتجاهها مباشرة. شاهدته يرتفع عاليًا في السماء، رفرفت أجنحته مرتفعة ومنخفضة مجدّدًا، وسمعَتْهُ ينادي ويطير مسرعًا في مهبّ الريح.

telegram @yasmeenbook